وليد فكري

أربابِ الشَّر

المعبودون والملعونون في أساطير الشعوب القديمة



الرواق للنشر والتوزيع



المعبودون والملعونون في أساطير الشعوب القديمة

وليد فكري

الرواق للنشر والتوزيع

الشرُّ هو بطل قصتنا

مقدمة لا بُدَّ منها

«كيف بدأ الشر؟»..

لعل هذا هو السؤال التالي قِدمًا للسؤال الشهير: «كيف بدأ الخلق؟»، فمنذ وضع الإنسان الحالي قدميه على الأرض الصلبة وشد قامته متنسمًا الهواء البِكر لعالمنا، وهو يواجه شرور الحياة وبلاياها.. بعضها جاءه من محيطه، متمثلًا في أنياب حيوان مفترس أو هدير زلزال مفزع أو زمجرة بركان مدمر، والبعض الآخر – وهو أخطرها ـ جاءه من بني جنسه متمثلًا في غدر قريب أو عدوان غريب أو دسيسة حاسد حاقد..

لا ريب أنه بعد نجاحه في النجاة مرة وفشله مرات، قد افترش الأرض يلهث خوفًا وغضبًا وهو يقلِّب ناظريه إلى السماء ويزفر السؤال ملتهبًا بمرارة حبيسة في جوفه: لماذا؟

في القصص الديني اليهودي والمسيحي، نقرأ أن الرب عندما غضب على «آدم» وزوجته؛ إذ أكلا الثمرة المحرمة، أنزلهما الأرض وقضى عليهما أن يُحرَما الخلود فيذوقا الموت يومًا، وابتلى الأرض لأجل خطيئة «آدم» فصارت مسكنًا للعناء والمتاعب والشرور بأنواعها، كما هبط إليها الشيطان وجنوده وصاروا أعداءً لـ«آدم» ونسله إلى الأبد يسعون إلى هلاكهم بإضلالهم عن طريق الخير.

ومن آيات القرآن الكريم، يستخلص المسلمون أن الله قد خلق النفس البشرية فألهمها الفجور كما ألهمها التقوى، وأن الإنسان يعمل

الخير والشر اللذين يحاسَب عليهما ولو كانا بمقدار ذرة، وأنه سيمسه الشر كما يمسه الخير فيُبتلى بالخوف والجوع ونقص الثمرات والأنفس.. فالدنيا ما هي إلا دار ابتلاء خلق اللهُ الإنسانَ وجعله فيها «فِي كَبَدٍ»، أي في مكابدة للمتاعب والمشاق..

وبينما يقدم كلٌّ من الكتاب المقدس والقرآن الكريم تفسيرات واضحة لوجود الشر والغاية منه، بل وتصريحًا بنهايته ومصيره، تزخر كذلك الموروثات الدينية للأقدمين من أهل الحضارات والشعوب القديمة بتفسيرات وتبريرات وقصص تنوَّعت وتباينت حول الشر ومبتدئه وخبره وماهيته ومستقره الأخير..

تلك الموروثات هي نتاج السؤال الذي بدأ به حديثنا: «كيف بدأ الشر؟»، والذي لم يقف عند هذا الحد، بل تعداه إلى محاولة إضفاء هيئة ذات أبعاد على ذلك الشر، سواء أكان «طبيعيًّا» كالكوارث الطبيعية والأمور القدرية من مرض وموت، أم «أخلاقيًّا» متمثلًا في انحرافات البشر عن الأفكار والأقوال والأعمال الطيبة..

وبطبيعة الحال، فإن تلك الإجابات لم تتفق لا في ماهية الشر ولا في تعريفه أصلًا؛ فما هو شر مطلق عند قوم قد يكون هو ذروة الخير عند غيرهم، كلٌّ حسب نمط الحياة الذي اتخذه لنفسه والذي ترتبت عليه أفكاره حول القيم والأخلاق والضوابط.. فمخطئ من يعتقد أن الشعوب القديمة قد اتخذت مفهومًا واحدًا له.. ولو سمحنا لأنفسنا ببعض الفلسفة للأمور لقلنا إن اللحظة التي يتفق فيها جميع بني الإنسان على تعريف واحد جامع مانع للخير والشر هي اللحظة التي تتوقف فيها كل الحروب والصراعات والنزاعات والصدامات، سواء على مستوى

المجتمعات أو الأفراد، ويصبح العالم هو «اليوتوبيا» الحقيقية؛ حيث - على حد قول بعض النبوءات المبشرة بذلك - يحمي الذئبُ أغنامَ الراعي، والأسد والبقرة يرعيان معًا، أما الحية فيصير طعامها التراب!

■ ■ ■

كيف رأى الأقدمون الشر إذًا؟ وما القالب الذي وضعوه فيه؟ وكيف تفاعلوا معه؟

تعالَ نذهب في رحلة قصيرة نتحرر فيها من قيود الزمان والمكان، نطالع بعض مفاهيم البشر القدامى عن الشر وتفسيراتهم له.. كتمهيدٍ لتلك الرحلة الأطول في أفكارهم ومعتقداتهم عبر صفحات هذا الكتاب.

■ ■ ■

النهر العظيم الهادر، الأرض المسودة بالطمي الآتي من الجنوب، لا بُدَّ أنك قد استنتجت بسهولة أننا في مِصر..

يصطدم الجمعان المدججان بالسلاح كجسدين عملاقين هائلين متصارعين، ثم ينحسران وقد شكل كل منهما نصفًا للدائرة الواسعة حول رجلين راح كل منهما يدور حول الآخر بتربص ذئب ويقظة هر بري متوتر..

لو دققت النظر لرأيت أحدهما رجلًا متوسط العمر متين القامة يتوهج رأسه بشعر تتناقض حُمرته الدامية مع بياض بشرته الشديد الكالح لبشرته، أما الآخر فشاب لم تتعارض نحافة قده مع صلابة عضلاته المحددة بانعكاس الشمس عليها..

يتأمل أحمرُ الشعر خصمه بازدراء ثم يقول:

ـ «حورس» يا ابن أخي، كأبيك الصريع عنيد أنت.. ولكن دعني أعذر نفسي منك بنصيحة أخيرة: ارجع عن غيِّك لئلا يهلكك؛ فلست ندًّا لي!

يجيبه الشاب كأنما يبصق:

ـ «سِت»! يا ربيب الغدر ورفيق الشر، لا مرجع لي عن الثأر لأبي «أوزيريس» وانتزاع ما سلبت من حقي، فهلمَّ إليَّ ننهي الآن وهنا ذلك الصراع المرير!

ينفغر حلق «ست» عن زمجرة كهزيم الرعد، تتموَّج هيئته البشرية وقد ثارت حولها الرياح الساخنة ثم تمخض عن تحوُّله إلى وحش مخيف له خطم ممتد وأذنان طويلتان وذراعان تنتهيان بمخالب تنذر بالويل بينما يتلوَّى من أسفل ظهره ذَنَبٌ ذو طرف مدبب كأنه رمح حاد.

يبتسم «حورس» استهانةً ثم يرتفع عن الأرض في وثبة جبارة يستحيل خلالها إلى صقر هائل له جناحان يكاد امتدادهما يحجب الشمس.. ويلتحم الخصمان..

فوق ربوة مشرفة على ساحة القتال تقف امرأة في وجهها جمال جليل وفي عينيها حزن نبيل، ترمق المتقاتلين بخوف شديد من أن يصيب ابنها «حورس» من عمه الشرير مكروه..

تحس ذلك الضياء الباهر المنبعث من وراء ظهرها فتقول بغيظ من دون أن تلتفت:

ـ «رع»! أين أنت ممَّا يجري؟ لماذا لا تتدخل فتقول كلمتك وتقضي بالحق لصاحبه الذي تعرفه؟!

تقدم منها «رع» مجيبًا وقد ركز عينيه على القتال الرهيب:

ـ ابنتي وأختي.. إن كان «حورس» وريث عرش «أوزيريس»، فإن هذا العرش يتربع عليه «ست» بالفعل ويحكم من فوقه بقوة وبأس شديد!

أجابته مستنكرة:

ـ أنت رب الأرباب.. قل كلمتك يخضع لك سِت.. قل كلمة الحق!

هز «رع» رأسه بغير اقتناع وأجابها بصوت عميق:

ـ وما قيمة الحق بلا قوة تحميه؟

ثم أردف وهو يعود ببصره إلى الخصمين:

ـ لابنك الحق بالوراثة.. فليستحقه إذًا بإثباته جدارته إن تحلَّى بالقوة لانتزاعه من خصمه!

▪ ▪ ▪

تعالَ نترك المعركة إلى حين ولننتقل إلى موضع وزمان آخرين..

تلك الأبراج الشامخة، تلك البوابات الهائلة المزيَّنة برسوم الآلهة.. نحن في العراق القديم الذي يشهد واحدة من أعتى كوارثه..

هلم نحث السير صعودًا إلى هذا البرج، فعمَّا قليل يبلغنا الهول فيكتسح كل ما أمامه..

الطوفان يداهم الأرض، يكشط الحياة من فوقها كحافة سكين هائل حاد بيد عملاقٍ لا يرحم..

الماء، نعمة «إنليل»، كبير الآلهة، التي أحالها غضبُه نقمةً لا ترحم.. تنشق عنه السماء نزولًا، ويثور عن ضفاف الأنهار صعودًا فيلتقيان ليسحقا حضارة البشر..

«إنليل»، الذي أزعجه ضجيج البشر وصخبهم، قد قرر اجتثاث

الحياة من الأرض، فتح أبواب هوله الذي أفزع حتى الآلهة ففرَّت إلى السماء..

هل ترى تلك المرأة التي حاصرتها الأمواج على سطح دارها فألقت ما تحمل أرضًا ووقفت فوقه تلتمس متنفسًا لأنفها الذي سرعان ما يغمره الماء؟ هل ترى ما ألقت تحت قدميها لتستجدي أنفاسًا أخيرة؟ إنه رضيعها! لا تندهش؛ فالرعب قد أذهل المرضعة عن رضيعها والأخ عن أخيه والرجل عن صاحبته وبنيه..

سدِّد نظرك إلى الأفق.. هناك بين قمم الأمواج التي أذلَّت شموخ الجبال، بلى، ما تراه صحيح، إنها سفينة.. سفينة تحمل الرجل الصالح «أوتنابشتيم» الذي أشفق عليه «أيا»، رب الحكمة، من الهلاك فأوحى إليه أن اصنع سفينة واجعل بها من كل كائنٍ زوجين، ذكرًا وأنثى.. تُرى هل يدرك النجاة ومن معه أم يلحظه «إنليل» فيسحقه سحقًا؟

لا تنظر لي بذهول هكذا.. أعلم أن القصة تبدو مألوفة بشكل صادم.. سنتحدث في شأن ذلك لاحقًا، لكن دعنا نغادر إلى قصة أخرى..

■ ■ ■

متِّع ناظريك بروعة مشهد الساحل الفينيقي البديع والتقائه سفوح الجبال التي اتخذت منها الخضرة مدرجات تزهو بنضارة مزروعاتها..

انظر معي لهذا الرجل الذي لم تُنقص نحافته من الهيبة المطلة من وجهه ذي الملامح النبيلة، هل تلاحظ معي اخضرار كل موضع تطؤه قدماه حتى لو كان سابقًا صخرة متشققة؟

هذا هو «بعل»، رب الأجواء والخصوبة، جالب الخير، ابن «داجون»،

رب الزراعة وحفيد «إيل»، رب الأرباب سيد الكون..

هل ترى تلك الفاتنة المهرولة من خلفه؟ هذه الربة «عناة»، زوجته وحبيبته..

ـ «بعل»! أستحلفك بأبيك «داجون» وجدك «إيل» ألا تفعل!

من دون أن يلتفت أو يتوقف أجابها:

ـ لا بُدَّ ممَّا لا بُدَّ منه!

شرقت بدموعها صارخة:

ـ الهلاك؟! لا بُدَّ من الهلاك؟! أن قدِّم نفسك فريسة سهلة لـ«موت»، إله الموت والقحط والجفاف؟! أن تتركه يبتلعك في جوفه المنتن؟! أنت «بعل»، سيد السماء والأرض، قاهر ومروض «يم»، رب المياه، تسير إلى مصرعك على أيدي «موت» بغير قتال أو مقاومة؟!

التفت إليها مقاومًا رغبةً في ضمها إليه، بقي صامتًا حينًا ثم قال:

ـ إن لم أفعل فسيدمِّر «موت» كلَّ شيء! سيجتث الحياة ذاتها من الأرض!

صاحت به لاطمة خديها:

ـ أنت الحياة! ألا تفهم؟! أنت الذي تجعل النبتة تشق الصخر عن شجرة وارفة! أنت الذي تسوق السحاب بالمطر ليسقي الأرض! مَن للمخلوقات إن غبتَ أنت؟!

داهمهما زئيرٌ مجلجل هبت معه رياح ساخنة خبيثة الرائحة.. تمتمت «عناة» في رعب:

ـ «موت»!

لم يَبدُ الخوف على وجه «بعل» وهو يقول بهدوء:

ـ بلى.. قد حان الوقت.

استدار وأكمل مسيره.. حاولت زوجه أن تلحق به إلا أن قدميها قد تصلبتا في الأرض كجذع شجرة عجوز، احتبس صوتها فلم تستطع مناداته..

تقدَّم «بعل» بهدوء من عدوه الذي تجلَّى تنينًا حجب الأفق، راح «موت» يتقدم بدوره.. وبعكس «بعل»، كانت أثر قدمَي «موت» بوارًا مفاجئًا في كل موضع وطئه..

كادت «عناة» تحترق ألمًا وغيظًا وهي ترى التنين يفغر فاه فيسد به ما بين الأرض والسماء، بينما «بعلها» يسير إلى موته طائعًا..

وقبل أن يهوي «بعل» في جوف عدوه، وقبل أن تنغلق أنياب «موت» على جسده، التفت إلى «عناة» وهتف بها بقوة وثقة لا مثيل لهما:

ـ سأعود!

■ ■ ■

هلم، لا تكُن رقيق المشاعر إلى حد التأثر هكذا.. واطمئن؛ فالمعركة بين «بعل» و«موت» لم تنتهِ، بل لقد بدأت لتوِّها..

دعنا نتجه شمالًا، إلى بلاد الإغريق.. تقدم معي من تلك الدار الرائعة ولا تنبهر؛ فما تحتويه أكثر روعة، أو «مَن تحتويها» إن شئنا الدقة..

هذه دار «أبيميثيوس» وزوجته «بندورا»..

و«أبيميثيوس» هذا هو ابن سلالة من «الجبابرة» أو «التيتانوس»،

كما تسميهم أساطير الإغريق.. وضعت الحرب أوزارها بينهم وبين «زيوس»، كبير الآلهة، بانتصار هذا الأخير، إلا أن هذا الأخير لم يكُن مِمَّن ينهون صراعاتهم بسهولة.. فإن كان قد أخضع خصومه بصواعقه ونيرانه فقد بقيت له لعبة أخيرة يغرس بها راية نصره وتسلطه..

استدعى ابنه «هيفاستوس»، إله الحدادة والنيران، وكلفه بخلق ذلك الذي سيُخضع «أبيميثيوس»: المرأة.. صاغها «هيفاستوس» فأحسن صنعها وأخرجها تحفةً تسلب لب أعتى العقلاء، ثم قدمها لـ«زيوس» الذي وضع في قلبها الخداع وعلى لسانها الكذب (هكذا تقول الأسطورة؛ فلا تحيُّزَ ذكوريًّا هنا)، ثم قدمها لـ«أبيميثيوس» ليتخذها زوجة.. ولأن «هيفاستوس» كان صانعًا قديرًا بحق، فقد تسمّر «أبيميثيوس» أمام فتنة «بندورا» وتعطل عقله عن نصائح أخيه «بروميثيوس» أن يحذر من هدية «زيوس»..

ويوم زفاف الزوجين، قدَّم لهما كبير الآلهة مزهرية ضخمة أنيقة الصنع، يعلو عنقها غطاء ثقيل أمرها «زيوس» حين أعطاها إياها ألَّا تفتحها..

وكأنما يعلم الإله الخبيث أن نصيحة «لا تفتحي هذه» لـ«بندورا» هي كأمر مباشر لها أن تفتحها فضولًا، فقد تطلعت المرأة لأن ترفع الغطاء وتنظر ما بداخل المزهرية..

تعالَ نتسلل وننظر من بعض نوافذ الدار لما تفعله «بندورا» بعد أن ودَّعت زوجها الذي خرج لبعض شؤونه..

ألم أنصحك ألَّا تنبهر وأن تتماسك أمام الفتنة الرهيبة لتلك المرأة؟ انفض ذهولك وراقِبْ معي.. ها هي تقترب من الهدية الضخمة..

تلصق أذنها بجانبها وهي تحاول أن تستوثق من تلك الأصوات التي تتسلل إلى سمعها من داخلها.. تقف مترددة بين نصيحة زوجها ألَّا ترفع الغطاء ورغبة معربدة في صدرها لمعرفة ما وراءه.. أخيرًا تحسم ترددها وتمسك قمة الغطاء فتديره وترفعه..

ياللهول.. ياللرعب.. ياللشر الذي أطلقتِ سراحَه بحماقتك يا «بندورا»..

عشرات، بل مئات المسوخ، تندفع من فوهة المزهرية كخفافيش ضخمة تهرع من سجنها.. تخفق بأجنحتها في سماء الغرفة موزعة صرخات حادة كصرير أبواب القبور وروائح أخبث من رائحة الجيف.. تتخبط بين الجدران بحثًا عن مخرج للعالم الواسع.. عبثًا حاولت المرأة المذعورة أن تشيح بذراعيها لتبعد تلك الكائنات الشنيعة عنها، حتى إذا يئست من إعادتها إلى المزهرية تراجعت إلى ركن الغرفة مرتجفةً بارتياع وقد اختنقت صرخاتها في حلقها..

والآن فلننظر إلى تلك الأرواح التي أطلقتها هذه الحمقاء..

هل ترى ذلك الذي تبدَّلت هيئته بسرعة مرعبة؟ إنه «النفاق».. وهذا الذي التصق بجسد «بندورا» محاولًا تحسسه؟ هو «الجشع».. أما هذا الضئيل الذي راح يسعى إلى أن يعلو صوت صراخه باقي الأصوات فهو «الكذب»، وهذا هو «الخيانة»، والذي يجاوره هو «المكر»، وهؤلاء هم «الحقد» و«الحسد» و«الغدر»..

أخيرًا، استطاعت «بندورا» التحرر من رعبها، فقفزت إلى المزهرية التي لمحت من طرف عنقها روحًا أخيرة تحاول التسلل خارجًا، فقفزت المرأة وضربتها بقبضة يدها مُرجِعةً إياها إلى جوف محبسها، ثم وضعت

الغطاء فوق فوهة المزهرية مغلقة إياها إلى الأبد..

وبينما أدركت «بندورا» أن ما حررت من أرواح خبيثة قد وجدت لنفسها مخرجًا عبر النوافذ إلى العالم.. لم تدرك أن تلك الروح الأخيرة التي استطاعت حبسها كانت الوحيدة الطيبة بين أسرى المزهرية، فتلك الروح كانت «الأمل»!

■ ■ ■

شرقًا ننطلق.. هل ترى «بيوت النار المقدسة» حيث تقام طقوس تمجيد الإله «أهورامزدا»؟ هل ترى «أسطوانات الصمت»، تلك البنايات الشاهقة التي تعلو قمم الجبال فتوضع عليها جثامين الموتى كيلا تلوث عناصر الكون الأربعة: التراب والنار والماء والهواء؟ نحن في بلاد فارس..

فلنترك الموجودات الدنيوية ونخترق الضباب إلى مكان يتجاوز حدود الدنيا..

جبلان شاهقان، يمتد بينهما جسرٌ على هيئة سيف حاد، أسفل منه هاوية تلتمع جنباتها بوهج نار هائلة منبعثة من أسفل..

على طرف الجسر رجلٌ وقف يرتجف وهو يتقدم قسرًا للعبور، يحاول أن يثني قدميه عن التقدم فلا تطيعانه كأنما يجذبه عملاق جبار خفي من سلسلة غير مرئية..

تهب عليه ريح خبيثة الرائحة فيعتريه رعب هائل، تنقشع الريح عن جسد متسربل بأسمال ممزقة يتوسط الجسر/ السيف العملاق، الذي استدار فصار نصله الرفيع كالشعرة الحاد كالموسى إلى أعلى..

ـ تعالَ.. تقدَّمْ!

صاحت به المرأة الواقفة بمنتصف الجسر بصوت رهيب يرتعب له الرعب ذاته..

ـ تعال! أنا أنتظرك!

كررت آمرةً وقد مدت إليه ذراعين عظميتين بينما انحسر لثامها عن وجهٍ هو مزيج من عظام نخرة ولحم متعفن ترتع فيه الديدان..

قسرًا خطت قدماه الخطوة الأولى لينغرس نصل الجسد فيهما مُطلِقًا في جسده آلامًا رهيبة.. صرخ برعب:

ـ من أنتِ؟!

خطت خطوة بدورها قائلة:

ـ أنا الفكر الفاسد الذي نهاك عنه «أهورامزدا» فعصيته وأمرك به الروح الخبيث «أنجرامابنو» فأطعته!

خطوة تالية وآلام أشد قربته لمحدثته الرهيبة.. أجابته بخطوة منها وهي تقول:

ـ أنا قولك الفاسد الذي نهاك عنه «أهورامزدا» فعصيته وأمرك به الروح الخبيث «أنجرامابنو» فأطعته!

ثم أردفت صارخة:

ـ هلم إليَّ!

فأطاعتها قدماه لتضاعفا آلامه في خطوة جعلته قاب خطوةٍ منها، فقالت وهي تخطو خطوتها الأخيرة وتحيطه بذراعيها:

ـ أنا عملك الفاسد الذي نهاك عنه «أهورامزدا» فعصيته وأمرك به الروح الخبيث «أنجرامابنو» فأطعته!

عبثًا حاول التملُّص منها فقهقهت قائلة:

ـ لم تتملص مني هكذا عندما كنت تتمتع بالحياة والفرصة للفكر الصالح والقول الصالح والعمل الصالح! حذرك «أهورامزدا» أن تكون من جنود الخبيث في معركته الأخيرة فأبيت وتكبرت وركبت رأسك!

صاح وهو لا يكف عن محاولة الإفلات:

ـ كنت أقدم العبادة والعطايا لبيوت النار! كنت لا أفوت الصلوات! أهذا جزائي؟!

شددت قبضتها عليه وهي تلصق فمها بأذنه مجيبة:

ـ قد كنت تفعل هذا ليقال إنك عابد صالح مطيع، بينما كنت تؤذي مخلوقات «أهورامزدا» بفكرك وقولك وعملك التي لم يرَها الناس فقالوا عنك ما كنت تريد من عبادتك! قد قيل ما أردت، فهذا جزاء عبادتك! أما ما عملت فهو أنا!

لفحتهما غضبة مباغتة من هاوية النار أسفل منهما فأردفت:

ـ والآن لا تلقى إلا عملك! وعمّا قليل تنشق الأرض عن عظام كل بني البشر فيكون الصالحون في جيش «أهورامزدا» وتكون أنت وأشباهك في جيش «أنجرامانيو» لتحتدم المعركة الأخيرة الموعودة بين سيد الخير وسيد الشر ليكون النصر للأقوى.. أما إلى هذا الحين فأنا وأنت إلى الجحيم!

قالتها ومالت به إلى لسان لهب انبعث من الهاوية فابتلعهما حيث يلقى المجرمون عقابهم إلى حين نشوب المعركة الفاصلة في نهاية الزمان..

■ ■ ■

هدِّئْ من روعك، ومن دهشتك، لن يكون هذا أول ولا آخر تشابه تقابله مع بعض المألوف لك عقائديًّا..

تعالَ نشاهد قصة قد تكون مررت بها مرور الكرام خلال مطالعتك بعض قصص الأطفال القديمة..

هذان الجالسان أسفل تلك الشجرة هما الأخوان الألمانيان ياكوب وفلهلم جريم، قد جاءا لعلهما يضمان بعض ما يجيء في هذه القصة إلى ما جمعا من قصص شعبية جرمانية ليقدما لأجيال كاملة حكايات مثل «بياض الثلج» و«سندريلا» و«ذات الرداء الأحمر» وغيرها..

أمامنا مروج خضراء.. وبرج مرتفع تطل منه فتاة بارعة الجمال تنظر بارتياع إلى المعركة التي تكاد تبدأ بين منقذها المنتظر، ذلك الفارس المهيب، وعدوها وخاطفها التنين الضخم ذي الهيئة الكفيلة بتشتيت جيش جرار رعبًا وهلعًا..

تمطَّى التنين مطلقًا لسانًا عاتيًا من اللهب فصرخت الفتاة بينما شرّع الفارس المدرّع رمحه الطويل..

خفق التنين بجناحيه العظيمين فأثار زوبعة ثم قال بصوته العميق:

- ارجع يا هذا؛ فلست ندًّا لمواجهة مخلب واحد مني أو طرف لسان نار أطلقه!

تحسس الفارس صليبًا معلقًا بعنقه وقال بقوة:

- بل أنت الذي ليس ندًّا لأحد فرسان الرب القدير!

التقط نفسًا عميقًا وأردف:

- انسحِب وارجع إلى خرائبك وكهوفك، حيث ألقاك القدير من قبة

السماء، وخلِّ بيني وبين الأميرة، وإلا هوت هراوة الرب على رأسك تسحقه!

قهقه التنين ملوحًا بذيله الطويل المحرشف وأجابه:

ـ أنت تعلم إذًا من أنا وإن كنت تراني في هذه الهيئة!

رد الفارس:

ـ إن لم أعرف الشيطان حين أراه فبئس العبد أنا وبئس الجندي أنا من جنود الرب! أنت في كل شيء خبيث، ومنبع كل شر! فأي الهيئات تتخذ إن لم تكُن أخبثها؟!

شد التنين جسده في وضع التأهب للهجوم وهو يقول:

ـ تعلم إذًا أنَّ فانيًا مثلك لا يقدر على قتلي!

بادله الفارس وضعًا مماثلًا على صهوة جواده وأجابه وهو يشير له بذبابة رمحه:

ـ ولكني، بعون القدير، أقدر أن أجعلك تعيش لاعقًا مرارة خيبة تضاف لهزائمك!

أطلق التنين غضبه لسانًا ناريًّا كاد يعصف بعدوه واندفع نحوه صارخًا:

ـ بل تلقى مصير الحمقى مِمَّن يحسبون أن أبناء «آدم» بهم طاقة لمواجهتي!

لكز الفارس جانبَي فرسه مندفعًا بدوره إلى الخطر وهو يتمتم بصلاة قصيرة ختمها بصيحة قتالية جلجلت لتضفي على المشهد الرهيب روعةً وجلالًا..

ذلك المشهد الذي تناقلته وتبنته ثقافات مختلفة، سواء في الحكايات الخرافية الغربية، أو تلك اللوحة الشهيرة التي يعلقها كثيرٌ من الأقباط، والتي تمثل الشهيد «مار جرجس الروماني» وهو يمتطي جواده ويطعن تنينًا بحربته..

■ ■ ■

فلندع الفارس والتنين ـ إلى حين ـ لقتالهما الضاري، ولنتخذ طريقنا جنوبًا، إلى صحراء جزيرة العرب..

دعنا نقف فوق ذلك التل المُطِل على بعض وديان الصحارى، ولنشهد صراعًا جديدًا مع الشر المتجسد في هيئة ملموسة.. نحن الآن قبل بعثة الرسول محمد بسنوات ليست بالقليلة..

ذلك الرجل الممتطي ناقته يقترب من مدخل الوادي، يمس تميمته المعلقة بعنقه وهو يتمتم برهبة:

ـ أعوذ بعظيم هذا الوادي.

يضرب جنب مطيته برفق مستحثًّا إياها أن تسرع المرور، فهو إن كان من شجعان العرب الذين تجري ببطولاتهم الركبان إلا أنه ـ كسائر قومه ـ يخشى ما قد يحوي الخلاء من كائنات غير مرئية يتربَّص بعضها بالعابر عثر الحظ قليل الحذر..

هبَّت عليه ريح مباغتة بما فيها من رمال فانحاز بناقته إلى جانب الطريق وهو يتمتم: «عمتم ظلامًا» ـ تحية الجن ـ فالريح المباغتة ما هي إلا أثر بعض معارك الجان..

سرعان ما توقفت الريح وساد السكون الذي لم يبدد تهيبه، بل زاده.. حاول تهدئة نفسه بأنه قد قام بكل ما على المسافر عمله قبل الشروع

في سفره، فقدم قربانًا لربته «العُزَّى»، وضرب القداح عند ربه «هُبَل» فخرج السهم المكتوب عليه الأمر بالسفر، ثم عند خروجه من مكة زجر طيرًا كان قد حط على بعض الشجر فطار يمينًا فاستبشر خيرًا.. ما باله إذًا يستشعر خطرًا يتربص به؟!

عاد يستحثُّ ناقته رافعًا صوته بالحِداء ـ إنشاد ينشِّط الإبل ـ لعلَّه يغطي على صوت مخاوفه، فأسرعت الخطى قليلًا ثم توقفت بغتة حتى كادت تلقيه عن ظهرها.. بتر حداءه وراح يضرب جنبيها بقدميه إلا أنها تشبثت بموطئها، بل زادت فتنوَّخت إلى الأرض..

ترجَّل عنها وجذب خطامها صائحًا: «حِل! حِل» ـ يأمرها بالقيام ـ فلم يزدها ذلك إلا عنادًا، وبدا عليها خوف شديد وقد أرغى شدقها بالزَّبَد..

استيأس منها فأمسك قائم سيفه يلتمس منه أمانًا وهو يتطلَّع حوله إلى الفراغ الواسع.. داهمه صوت أنثوي من ورائه:

ـ عمت مساءً.

فالتفت مفزوعًا وهو يجذب سيفه الذي سرعان ما أعاده إلى غمده وهو ينظر إلى صاحبة الصوت..

امرأة مقنَّعة بنقاب لم يُبد سوى عينيها، تقدمت منه بهدوء وهي تقول:

ـ أغريب فنضيفك فتُطعَم وتُسقَى وتروي راحلتك، أم ضال فنهديك الطريق، أم مستجير فنجيرك؟

أجابها ولم يزل ممسكًا بقائم سيفه بقبضة متوترة:

ـ بل مسافر وقد تمنَّعت راحلتي.

نظرت إلى الناقة قائلة:

ـ لعل أمرًا أصابها.

بادرها بسؤاله:

ـ ومن أين المرأة؟

أجابته بهدوء وهي تشير إلى أقصى الوادي بذراعها فانحسر كم ثوبها عن أساور كثيرة:

ـ ديار قومي بعد هذا الوادي، وداري تقوم على بعض روابيها كحارسة لها، حتى إذا ما دهمنا عادٍ صرخت في القوم ففزعوا إلى السلاح.

لدهشته رأى نارًا بأعلى التل القريب على الرغم من أنه يكاد يقسم إنه لم يرَها عند عبوره على الرغم من تمعنه الشديد فيما حوله.. عاد يسألها:

ـ ومن القوم؟

أماطت لثامها مانحة إياه ابتسامة مطمئنة وهي تجيب:

ـ تلقاهم الساعة.. هلم إلى الدار، ولعل ما أصاب ناقتك قد زال فتنهض بها.

رفع كفه المعروقة عن مقبض السيف وهمَّ باتباعها، إلا أن اتساع ابتسامتها بغتة حين رأت تخليه عن قبضة سلاحه ردَّ ريبته مضاعفة.. وسرعان ما دهمت ذهنَه عاصفةٌ من التساؤلات السريعة: كيف لم يسمع صلصلة أساور المرأة في هذا السكون وهي تتقدم منه؟ أسرع ينظر للأرض خلفها فلم يجد أثرًا لقدميها.. كيف وقد توقفت الريح فلم يتسنَّ للرمال بعدُ أن تغطي آثارها؟ أفزعته الإجابة فتراجع خطوة إلى الخلف وهو يمعن النظر في قدميها.. تقدمت منه خطوة فانحسر ثوبها في لمحة عابرة عن قدمين بهما مثل حافر الحمار..

ـ بلى.. أنا هو.

قالتها وهي تقترب منه بهدوء مخيف..

ـ أنا الغول!

أردفت وهي تُبرز من كفيها مخالب طويلة وتبتسم عن فمٍ التمعت فيه الأنياب الحادة..

ارتدَّ في قفزة إلى الوراء وهو يستل سيفه ويعض على أضراسه..

الغول.. رعب المسافرين.. يقطع الطريق عليهم فيعبث بهم، حتى إذا سئم العبث قتلهم..

والغول لا سبيل لقتله إلا بطريقة واحدة: أن يُضرب ضربة واحدة قاضية بالسيف.. واحدة فقط.. لأنه لو تلقَّى ضربة تالية فسيرجع للحياة ويستحيل قتله..

فهل يقدر هذا الرجل أن يفعلها؟

■ ■ ■

شمالًا نسافر، إلى زمن آخر، وعالم آخر..

هؤلاء المحاربون ذوو الخوذات التي تعلوها قرون الثيران واللِّحى المضفرة والأحزمة التي تتدلى منها الفؤوس الحربية والقرون المفرغة التي يستخدمونها كأقداح للشراب.. هل ميزتهم؟ هؤلاء هم محاربو الشمال في اسكندنافيا أو من يعرفهم أغلبنا باسم «الفايكينجز».

صفوف عريضة من المحاربين عددها عسير على الإحصاء، تعلوها في السماء محاربات «الفالكيري» على صهوات جيادهن المجنحة، وفي المقدمة يقف الأرباب، على رأسهم كل من الإله المحارب «أودين العظيم» وابنه الإله «ثور»، رب الرعد، يمسك بمطرقته العملاقة منذرًا بالويل من يدنو منه..

يدمدم «ثور» من بين أسنانه مراقبًا حشود الأعداء الجرارة العابرة حدود الأرض الوسطى «ميدجارد» متقدمة منهم في زحف حثيث:

ـ قلت لك أكثر من مرة أن نتخلص من هذا اللعين «لوكي» فلم تلق بالًا لنصيحتي.

عضَّ «أودين» على أضراسه ثم أجاب ابنه:

ـ المعركة الكبرى واقعة لا محالة! هذا قدر نعرفه منذ بدء العالم.. وقتل «لوكي» لم يكُن ليمنعها!

صاح به «ثور»:

ـ فارق كبير بين معركة نبذل تأهبنا لها وأخرى تدهمنا بسبب حماقة جديدة من حماقات هذا اللعين!

لم يُجِبه «أودين» فأردف الابن هادرًا:

ـ ضحيت يومًا بإحدى عينيك لتشرب من نبع الحكمة الأبدية، لكن تلك الحكمة لم تخبرك أن من يربي ثعبانًا في فراشه لا بُدَّ أنه ملدوغ منه! والآن هذا اللعين لم يكتفِ بما زرع بيننا من فتن ودسائس، بل زاد ففر إلى أعدائنا من العمالقة ومَردة الثلج وأهل «نيفيلهايم» (الجحيم) يحرِّضهم على غزونا وضربنا ضربة رجل واحد!

تمتم «أودين» وهو يتحسس عصابة تغطي إحدى عينيه:

ـ «لوكي» ابني!

صرخ به «ثور»:

ـ «لوكي» لا يستحق حتى أن يكون في موضع أخس راعي غنم بين أحط البشر! «لوكي» هو نقيض كل ما يؤمن به أي محارب يستحق

أن تُفتَح له أبواب «فالهالا» (الجنة)! عالمنا قام على الشجاعة والإقدام والقوة والنُبل، بينما «لوكي» هو الخِسة والجبن والحقارة! طول حياته لم يأتِ منه إلا ما تخجل منه أرخص عاهرات البشر! ومع ذلك...

هدر «أودين» بدوره:

ـ ومع ذلك فالولولة كالثكالى لن تُجدي نفعًا الآن! نحن نستعد لمعركة يترتب عليها مصير العالم وأنت لا تنفك تكيل السباب لـ«لوكي»! حسنًا، «لوكي» حشرة حقيرة وخائن خسيس! ولئن لقيته في المعركة لأرسلنه إلى أعماق الجحيم بسيفي! أما الآن فدعنا منه ولننتبه لتلك الجحافل التي أنا نفسي لا أرى آخرها!

ابتلع «ثور» غضبه وأولى نظره جموع الأعداء التي دنت حتى بدا لمعان أنياب جند مقدمتها.. من خلف تلك الجموع سُد الأفق بجرمين هائلين: ذئب عملاق، مخلب منه جدير بأن يطيح صف فرسان مدرعًا، وأفعوان ضخم فغر فكّيه فزلزل الأسفلُ الأرضَ بينما أخفى الأعلى أفق السماء..

غمغم «ثور» مشيرًا بمطرقته إلى الأفعوان:

ـ دعوا هذا لي! فبيني وبينه ثأر قديم، ولطالما اشتاقت مطرقتي لسحق رأسه!

هز «أودين» رأسه موافقًا وهو يجيبه:

ـ والذئب لي.. فلن يقدر على ذبحه سواي!

قالها ثم أشار إلى من حوله فشد حاملو الرايات قاماتهم ورفعوا تلك الرايات لتخفق في السماء، بينما ترددت أصوات الأبواق ممتزجة بقرع المقاتلين سيوفهم على الدروع.. ردت جيوش العدو بصرخات

قتالية هائلة صاحبها الذئب العملاق بعوائه الذي انهارت لتردده بعض صخور الجبال، بينما نصب الأفعوان أعلاه ورفع رأسه مبرزًا أنيابه التي أغشى لمعانها عيون المواجهين له..

وبين صفوف الأعداء، شد «لوكي» قامته وقد بدا في ملامحه، التي تجمع بين الوسامة الشديدة والقسوة البالغة، فخرٌ بما نتج عن ألاعيبه من حدث جليل رهيب..

هبط الصمت على الجميع حينًا قليلًا.. قطعه «أودين» بأن وكز فرسه واندفع إلى الأمام صارخًا بقوة فاندفعت من ورائه الجموع المتعطشة لقتالٍ مصيري تتقرر به نهاية أحد الطرفين..

■ ■ ■

«سِت».. غضب «إنليل».. مزهرية «بندورا».. «موت».. التنين.. «أنجراماينو».. الغول.. «لوكي».. وغيرهم..

كلٌّ من هؤلاء مثَّل «الشر» لبعض البشر وفق نظرتهم لمفهومَي الخير والشر..

كلٌّ من هؤلاء تبنى أهل اعتقاد وجوده قصة لبدايته وتطوره ونهايته..

لم يقتصر تصور الإنسان القديم للشر عليهم، بل هم «غيض من فيض»، كما تقول أمثال العرب..

هؤلاء هم أبطال هذا الكتاب.. هؤلاء الذين استحقوا أن يوصفوا بأنهم «أرباب الشر»..

فعن أرباب الشر عبر التاريخ والمعتقدات القديمة.. نتحدث.

I

«سِت».. الإله الشرير المظلوم



القارئ والدارس للتاريخ المصري القديم عادةً ما يصادف في طريقه الأسطورة المشهورة باسم «إيزيس» و«أوزيريس»..

وعلى الرغم من شكي أن يكون بين قراء هذا الكتاب من لا يعرف هذه الأسطورة، فإن الأخذ بالحيطة يقتضي أن أعيد سردها، سواء بالتفاصيل الشائعة أو تلك التي لا يلم بها إلا القارئ المتبحر في الأساطير القديمة..

تقول الأسطورة: إن «جب»، رب الأرض، تزوَّج أخته «نوت»، ربة السماء، فأنجبت له ابنين، هما: «أوزيريس» و«سِت»، وابنتين هما: «إيزيس» و«نفتيس».

تزوج «أوزيريس» «إيزيس»، بينما تزوَّج «ست» أخته «نفتيس»، وحكم «أوزيريس» مصر بالعدل، وكان عالمًا حاذقًا فعلَّم الناس الزراعة والكتابة والبناء والفلك، بينما علمت شريكته «إيزيس» النساء فنون رعاية الزوج والأبناء، فعمرت مصر في عهدهما وخصبت أرضها وازدهرت حضارتها..

ثم بدا لـ«أوزيريس» أن ينشر حضارة مصر في الأرض، فأناب عنه «إيزيس» في حكم مصر، وانطلق يطوف بالبلدان يهبها ما أوتي من علم وحكمة.. ثم عاد ليستكمل حركة البناء والعمران في مملكته..

وبينما «أوزيريس» يحكم مصر بالعدل وينشر فيها الخير، كان أخوه «سِت» ينقم عليه ما بلغ من شأن، فدبَّر مؤامرة لاغتياله..

أقام «سِت» وليمةً على شرف أخيه، وكان قد أمر بصناعة تابوت فخم مضبوط على مقاييس أخيه «أوزيريس»، وفي نهاية الحفل أعلن عن مسابقة: سيرقد كل من المدعوين في التابوت الذي سيصبح جائزة لمن تلائمه مقاييسه.. وما إن حان دور «أوزيريس» ورقد في التابوت،

وثب «سِت» وأعوانه فأحكموا إغلاقه عليه وصبوا عليه الرصاص المنصهر للتيقُّن من استحالة فتحه، ثم تعاونوا لإلقائه في النيل فحمله التيار بعيدًا..

ووثب «سِت» على عرش أخيه المغدور فاغتصبه لنفسه..

ارتاعت «إيزيس» لما جرى لحبيبها، فراحت تتتبَّع آثار التابوت الذي حملته مياه النيل إلى البحر المتوسط الذي حمله بدوره على متن أمواجه ليستقر بساحل فينيقيا ـ لبنان حاليًّا ـ تحديدًا عند مدينة بيبلوس - جبيل الحالية.

وألقت الأمواج التابوت على الشاطئ، وفوقه نبتت شجرة أصابتها بَرَكة الجثمان المقدس الراقد في التابوت فعظمت وكبرت واحتوته في جوفها، وفاحت بروائح طيبة..

بلغ ملك بيبلوس أمر الشجرة فأمر بقطعها وأن تُجعل عمودًا لقصره..

في ذلك الوقت، كانت «إيزيس» قد ألقت عصا الترحال في المدينة الفينيقية نفسها، وتحسست الأخبار فعلمت بشأن التابوت والشجرة، فاتخذت لنفسها مستقرًّا على الساحل وهي تدبر أمر بلوغ القصر للاستحواذ على تابوت زوجها.. وفي أثناء ذلك، كانت قد التقت مصادفة بعض وصيفات الملكة، فعرضت عليهن أن تمشط شعورهن وأن تزينهن وتعطرهن، فلما رأتهن الملكة أُعجِبَت بعمل «إيزيس» فدعتها للإقامة بقصرها.. وكان هذا تدبيرًا محسوبًا لامرأة «أوزيريس»..

وفي الليل، تسلَّلت «إيزيس» إلى قاعة القصر وعاينت العمود، وتيقنت ممَّا حدست أنه يحتوي جسد زوجها..

ولأن «إيزيس» كانت تريد مكافأة الملكة لإكرامها إياها، فقد تسللت

إلى الجناح الذي يضم ابن الملكة الرضيع، وألقت عليه تعويذة لتحصينه من الموت والمرض، وكانت الطقوس تتضمن إشعال شعلة من النار تحتوي جسد الرضيع، وبينما «إيزيس» منهمكة في طقوسها إذ فاجأها دخول الملكة عليها.. ارتاعت الملكة لرؤية طفلها بين النيران فصرخت ففسد السحر وجرى على الرضيع الفَناء، لكن ملكة بيبلوس إذ رأت النار لا تضر ابنها ولا تحرق «إيزيس» أيقنت أنها في حضرة ربة جليلة فخرَّت ساجدة..

طمأنتها «إيزيس» وأنبأتها بأمرها، فأخبرت الملكة زوجها، الذي أمر بمنح «إيزيس» التابوت، فحملته وعادت إلى مصر حيث اختبأت به بين أحراج دلتا النيل خشية أن يبلغ أمرها «سِت» الشرير..

لكن «سِت» كانت له عيونه التي أنبأته خبر رجوع جثمان أخيه القتيل، فأرسل من يستولي عليه، وأمر بتقطيع الجسد إلى أربعة عشر جزءًا دُفن كل منها في موضع من مصر ليستحيل جمعه ورده إلى الحياة..

ولم تيأس «إيزيس»، فجابت مصر تجمع قطع الجسد المقدَّس ثم ألصقتها ببعضها عدا العضو الذكري لـ«أوزيريس» الذي التهمه بعض سمك النيل..

وحضرت «نفتيس» لتساعد أختها في طقوس إحياء «أوزيريس» يعاونهما «أنوبيس»، رب رعاية الموتى وتحنيطهم، وراحت الأختان تنوحان على الميت، وهو الطقس الذي توارثته نساء مصر طول العصور التالية لذلك.. ثم تحولت الأختان المقدستان إلى طائرين وراحا يخفقان بأجنحتهما ليرسلا نسمات الهواء للجثمان العزيز.. فارتدَّت الحياة للجسد، ولكن من دون أن يتمكَّن من الحركة والنطق.. وبطقوسها السحرية

التي برعت فيها، تمكَّنت «إيزيس» من مجامعة زوجها لتحمل منه ابنهما «حورس»..

وأخفت «إيزيس» ابنها ورعته وأحسنت تنشئته حتى إذا ما اشتد عوده هبَّ فثار على عمه «سِت» وقاتله وهزمه وقطع أعضاءه التناسلية لينقطع نسله، واسترد منه عرش مصر، بينما ضمت الآلهة «أوزيريس» إلى مجمعها المقدس وجعلته قاضيًا للموتى وحاكمًا للعالم الآخر..

ولأن نيل مصر قد حمل جسد «أوزيريس»، وأرضها قد ضمت أجزاءه التي دفنها «سِت» فيه سابقًا، فقد بورك النيل بالفيضان بالخير وبوركت الأرض المصرية بالطمي والخصوبة..

وهكذا تنتهي أسطورة «إيزيس» و«أوزيريس».

■ ■ ■

في «الجبتانا» ـ أو «أسفار التكوين المصرية القديمة» ـ التي وضعها الكاهن والمؤرخ مانيون السمنودي في العصر البطلمي وترجمها كاهن قبطي أرثوذكسي في القرن العشرين، لا تختلف القصة كثيرًا، غير أنها تقدم «أوزيريس» كملك أرضي مقدس هو وإخوته «سِت» و«نفتيس» و«إيزيس» لانحدارهم من الآلهة، وتجعل ميلاد «حورس» ونضوجه متقدمين على اغتيال «سِت» لـ«أوزيريس»، كما أنها تقدم المعركة الأخيرة بشكل مختلف، فـ«حورس» و«سِت» يلتقيان بجيشيهما، وبينما كان «حورس» يحاول أن يعيد أباه باستخدام طقس «تضحية الابن بعينه ووضعها بين عيني الأب الميت»، استطاع «سِت» مداهمة ابن أخيه وخطَف منه عينه ليتداوى بها من جراحه، فتدخلت الآلهة وأعادت العين لـ«حورس»

ورفعته هو وأباه من العالم الأرضي إلى مجمع الآلهة المقدس، بينما تحولت «إيزيس» إلى روح خفية تطوف مصر لتحمي الأطفال وترعى الأمهات باعتبارها «روحًا حارسة»..

أما «سِت» فقد انقلب عليه أعوانه ومزقوه شر ممزق..

وتنتهي «الجبتانا» بأن حرب «حورس» و«سِت» قد مزقت وحدة مصر، فمنحت الآلهة «مينا»، أمير الجنوب، عمرًا مديدًا وكلفته بإعادة توحيد البلاد..

■ ■ ■

هذه هي الأسطورة كما توارثها المصريون في صيغتها التي ترجع لعصر الأسرة الخامسة؛ حيث كانت قبل ذلك مجرد «حكاية شعبية» حتى تبناها رجال الدين وصيَّروها جزءًا من المعتقد المصري القديم..

وعلى الرغم من ذلك فإن ثمة فصلًا أخيرًا مختلفًا من القصة حملته لنا الموروثات الأدبية للدولة الحديثة ـ تحديدًا عصر الأسرتين العشرين والحادية والعشرين ـ وتتعلق بالخصومة بين كلٍّ من «حورس» و«سِت»، وسعي الأول إلى استعادة عرش أبيه من عمه..

القصة ـ غير الشائعة بالمرة إلا بين القراء المتمعنين في الأساطير المصرية القديمة ـ تقول إن «حورس» إذ تيقن من اشتداد عوده توجه إلى مجلس الآلهة بقيادة «رع»، وطالبهم بأن يردوا له عرش «أوزيريس»؛ لأن «سِت» قد اغتصبه ولا يجوز أن يستولي العم على ميراث أخيه ما دام لهذا الأخ ابنٌ حي..

سارعت الآلهة تقضي لـ«حورس» بحقه في العرش، فابتهجت «إيزيس» واستعدت للاحتفال، إلا أن «رع» قد غضب من مسارعة

الآلهة للحكم في القضية من دون رجوع إليه فأصر على أن يترأس هو المحكمة وألا يُتَّخَذ قرار من دون أمره باعتباره كبير الآلهة..

وبينما كان ظاهر موقف «رع» هو إلزام الآلهة مراعاة مركزه، كان باطنه ميله إلى «سِت»؛ فهذا الأخير كان بالفعل يقبض على عرش مصر بالقوة، فضلًا عن أنه كان ذا بأس شديد وسطوة بين الآلهة، إضافة لذلك فقد كان هو الذي يحرس مركب «رع»/ الشمس، خلال رحلتها كل يوم من الشروق إلى الغروب ويتصدى لهجوم الثعبان الهائل «أبيب» الذي يحاول كل يوم أن يبتلع قرص الشمس..

هذا إلى جانب أن «رع» كان يرى في «حورس» مجرد طفل غرير غض العود لا يصلح للحكم..

وعبثًا حاول الآلهة إثناء «رع» عن موقفه، فأرسلوا الرسل إلى آبائه الأرباب القدامى يستفتونهم في أمر الخصومة، فكان الأرباب يشيرون برد عرش «أوزيريس» لابنه.. ونصحه بعضهم بترضية «سِت» بتزويجه بعض ربَّات فينيقيا ليسكن غضبه من خلعه عن العرش.. لكن «رع» صم أذنيه عن النصيحة..

وأعيا عناد «رع» الآلهة حتى صاح به أحدهم ـ «ببون» ـ صاحب هيئة القرد، يعيِّره أن معابده خاوية من المتعبدين له! فغضب كبير الآلهة واعتزل المجلس سخطًا لهيبته المهتزة.. وتعطلت المحكمة..

واحتالت الربة «حتحور» ـ صاحبة هيئة البقرة ـ لتزيل غضب أبيها، فدخلت عليه ورقصت وهي تعري المواضع الحميمية من جسدها، فضحك «رع» وانقشع غضبه وعاد ليترأس الجلسة..

استدعى الآلهة «سِت» ليمثل أمامهم إلى جوار خصمه، فحضر وألقى حجته أنه القوي الجدير بالحكم، وهو الذي يحمي مركب «رع»

ذاته من أعداء الإله، وهو الذي يخشى الجميع بأسه وغضبته، فبناء على ذلك هو الأحق بالعرش من شاب حديث السن..

وبينما لاقى هذا الحديث هوًى عند «رع»، استنكره الآلهة وقالوا:

ـ كيف يرث العم والابن على قيد الحياة؟

فاستشاط «سِت» غضبًا وهددهم بأنه سيحمل صولجانه الثقيل ويقتل واحدًا منهم كل يوم..

ولما كان يخشى دهاء «إيزيس» ومساندتها ابنها، فقد طالب «سِت» مجلس الآلهة بأن تُعقَد المحكمة في موضع لا تكون «إيزيس» فيه.. فأمر «رع» بنقل المجلس إلى جزيرة في النيل وحذر النوتي (المراكبي) من أن يسمح لـ«إيزيس» بالعبور إليها..

لكن الربة الداهية لم تكُن ليسقط في يدها، فاحتالت وتنكرت في هيئة امرأة عجوز، ورشت النوتي بخاتم من ذهب ليعبر بها النيل إلى الجزيرة، وبالفعل استطاعت التسلل إليها، وهناك حوَّلت نفسها إلى امرأة جميلة وتعمدت المرور بطريق «سِت» فخلب جمالُها لُبَّه.. أظهرت البكاء أمامه فسألها في رفق عمَّا بها فشكت إليه أن زوجها قد مات وترك لها ابنًا، فاستولى العم على تركة ابنها من أبيه.. فغضب «سِت» وقال لها إنه لا يسمح بهذا الظلم، وإن ما وقع على ابنها من غبن لا بُدَّ أن يُرفَع، وإن هذا العم الغاصب لا بُدَّ أن يعاقَب..

عندئذ تحولت «إيزيس» إلى حدأة وطارت وهي تصيح ضاحكة:

ـ أبشِر يا «سِت»، لقد حكمت على نفسك!

هرع «سِت» إلى «رع» يخبره ما جرى، فأمر بمعاقبة النوتي ثم التقى «سِت» سرًّا فقال له:

ـ ماذا يمكن أن تفعل لتفلت من تلك الخدعة؟ قد قضيت على نفسك بالفعل!

فصاح «سِت» في غضب يطلب منه أن يأمر بمبارزة بينه وبين «حورس» لتقضي القوة وحدها لصالح صاحب الحق..

وافق «حورس» على المنازلة، فالتقى عمه في الماء وحوَّل كلٌّ منهما نفسه إلى فرس نهر قوي، ونشبت بينهما معركة ضارية لأجل العرش..

ووقفت «إيزيس» ترقب المعركة، وأرادت أن تعين ابنها فألقت خطافًا على عمه الشرير، لكنها أخطأت الهدف فنشب الخطاف في جسد ابنها الذي استغاث بها فنزعت سلاحها عنه ثم أعادت تصويبه فأصابت «سِت» وجذبته إليها..

فراح «سِت» يسترحمها ويستغيث بها ويناشدها ألَّا تنصر «الغريب» على أخيها.. وكان «سِت» يعتبر «حورس» غريبًا ويطعن في شرعية بنوته لـ«أوزيريس»؛ لأن «إيزيس» قد حملت فيه بعد موت زوجها، فرقَّت «إيزيس» لتوسلات أخيها وأطلقته..

هنا ثار غضب «حورس» من التدخُّل الضار لأمه فهوى بالسيف عليها فأطاح رأسها وحمله وانطلق إلى الجبل..

حوَّلت «إيزيس» نفسها إلى تمثال من المرمر وشكت إلى «رع» ما لقيت من ابنها، فغضب الإله وأمر بالقبض على «حورس» ومعاقبته.. بينما كان ينبت لـ«إيزيس» رأس جديد..

سارع «سِت» في مطاردة «حورس»، حتى إذا ما وجده نائمًا تحت شجرة دهمه فطرحه أرضًا واقتلع عينيه ودفنهما في سفح الجبل، ثم رجع إلى «رع» وهو يدَّعي أنه لم يعثر لـ«حورس» على أثر..

وبينما «حورس» راقد يبكي إذ عثرت به «حتحور»، فحلبت له لبنًا ووضعته في موضع عينيه فخُلقت له عينان جديدتان، ثم أسرعت به إلى مجلس الآلهة تخبرهم بما جرى له..

وكان «رع» قد ضجر من هذا الخصام الذي استغرق ثمانين عامًا ـ وهي لا شيء بمقاييس الآلهة ـ فألقى أمره إلى كلٍّ من «حورس» و«سِت» أن يعقدا هدنة وأن يأكلا ويشربا معًا ليعمَّ السلام إلى حين، فوافق «حورس» وأظهر «سِت» الرضا وقد أضمر أمرًا..

دعا «سِت» ابن أخيه أن يقضي الليلة ضيفًا عليه، فرحَّب «حورس» بدعوة عمه وتوجَّه معه إلى بيت العم حيث طعما وشربا..

حتى إذا ما جنَّ الليل وأوى «حورس» إلى فراشه فوجئ بالعم الشرير يثب عليه ويقيِّد حركته ويكفئه على وجهه ثم يحاول اغتصابه من الخلف! لم يكُن ذلك عن شهوة وإنما كان حيلة من «سِت» ليصغر ابن أخيه، أو على حد التعبير الدارج «ليكسر عينه».

عبثًا قاوم «حورس» اعتداء العم، لكنه لم يتمكَّن إلا من أن يجعل مني «سِت» يقع في يده لا في داخله، فهرع الفتى إلى أمه حاملًا المني يصرخ بها بما جرى له، فصاحت «إيزيس» صيحة عظيمة وقطعت يدَي ابنها الملوثتين بنطفة الرب الشرير، وألقتهما بما فيهما في الماء وصنعت له يدين غيرهما..

راحت «إيزيس» تفكر فيما ترد به على فحش «سِت»، وسرعان ما واتتها فكرة فصنعت دهانًا وأضجعت «حورس» وراحت تفرك عضوه الذكري بالدهان حتى قذف المني، فأخذته وتوجهت إلى بستان «سِت» وسألت البستاني عن أكثر طعام يأكله سيده بصحبته، فأشار البستاني إلى حقل الخس وقال:

ـ إن سيدي لا يأكل غير هذا النبات بصحبتي.

فوضعت «إيزيس» مني ابنها في الخس ثم انطلقت.. وسرعان ما أتى «سِت» بستانه فأكل من الخس الملوث بمني «حورس» فبلغ المني بطنه..

وفي الصباح التقى كل من «حورس» وعمه فقال هذا الأخير:

ـ هلم نتوجه إلى محكمة الآلهة فنختصم.

فانطلقا إلى المجمع المقدس، وما إن مثلا أمام «رع» والآلهة حتى قال «سِت» ساخرًا وهو يشير إلى ابن أخيه:

ـ جئتكم بما يحسم الخلاف! هذا الطفل لا يصلح للعرش، فإنه ضعيف غرير، وإني قد فعلت به فعل الرجل بالمرأة وألحقت به العار لأثبت لكم أنه أضعف من أن يحمي نفسه!

ارتاع الآلهة وصاحوا بـ«حورس» وسبوه وبصقوا في وجهه، فلم يفقد هدوءه وقال لهم:

ـ «سِت» كاذب، وإنَّ نطفتي هي التي تقبع في بطنه، فلينادِ كلٌّ منا نطفته فتجيبه لتعلموا أني صادق.

فابتسم «سِت» باستهانة ونادى نطفته التي فوجئ بها تجيبه من الماء، أما «حورس» فنادى نطفته فأجابته من جوف عمه الذي ارتاع واستشاط غضبًا لتلك الخدعة البارعة التي وقع في حبائلها..

واستمات «سِت» في الدفاع عن قضيته فعرض على الآلهة منازلة جديدة بينه وبين الفتى: أن يبني كلٌّ منهما مركبًا حجريًّا ويلتقيا في النيل، فمن يُغرق مركب خصمه فهو الفائز..

ووافق الآلهة..

وصنع «حورس» مركبًا من خشب الأرز غطاه بالطين فبدا كأنه من

حجر، بينما بنى «سِت» مركبًا من حجارة الجبل ودهم مركب «حورس» الذي كان أخف من مركب العم الذي غرق، فحوَّل «سِت» نفسه إلى فرس نهر وخرق مركب ابن أخيه فأغرقه.. فهمَّ الفتى أن يصوِّب حربته إلى «سِت» ليقتله لو لا تدخُّل الآلهة بأمرهم إياه أن يكف عنه..

وحار الأرباب في أمر هذين الخصمين العنيدين، فتقدَّم «تحوت»، رب الحكمة، يقترح أن يرسلوا إلى «أوزيريس»، قاضي الموتى وإله العالم الآخر، يستفتونه..

فأرسل «رع» إلى «أوزيريس» يسأله في أمر ابنه وأخيه، فجاء جواب «أوزيريس» بأن عدَّد مننه ونعمه على البشر والأرباب من إطعام وزرع وشراب وخصوبة، وأمرهم بأن يردوا عرشه لابنه المظلوم..

أثار رد «أوزيريس» غضب «رع»، بما فيه من منة عليه، فأرسل إليه رسالة حادة اللهجة يُظهر فيها الاستهانة بأمره ويقول له فيها إن الخير والرزق كانا ليوجدان به أو من دونه..

فأجابه «أوزيريس» بغضب على غضبه وأنذره والآلهة أنهم إن لم يردوا لـ«حورس» عرش أبيه فإنه ـ «أوزيريس» ـ يمكنه أن يبطش بهم بأن يحبسهم في عالمه الغربي الذي يأوي إليه البشر والآلهة في نهاية كل يوم، وأن يطلق عليهم الأشرار الذين لا يخشون إلهًا فيهلكوهم..

هنا ارتاع «رع» ومجلسه، فتنحَّى كبير الآلهة عن نظر القضية حرجًا من أن يخالف «أوزيريس» فيلحق بهم الويل أو أن ينصاع له فيبدو خوف «رع» من «أوزيريس».. واتفق الأرباب أن يتركوا الحكم في القضية لـ«أتوم»، الإله الأب الأول، الذي كان أول خالق وأول من خلق نفسه بنفسه..

وجاء رد «أتوم» برسالة إلى «إيزيس» يأمرها أن تكبِّل «سِت» بالأغلال وأن تُحضره ليمثل بين يديه، ففعلت ولم يستطِع «سِت» أن يرد لجده الأكبر أمرًا فخضع («أتوم» هو أبو «تشو»، رب الهواء، و«تفنوت»، ربة الرطوبة، وهما أبوا «جب» و«نوت» أبوَي «أوزيريس» و«سِت» و«إيزيس» و«نفتيس»)..

وفي حضرة «أتوم»، راح «سِت» يتلقَّى توبيخ الإله وتقريعه لتكبُّره وصلفه وتماديه في الغيّ، ثم أمر الإله حفيده أن يسلم التاج والعرش لابن أخيه، فأبدى «سِت» التسليم بقضاء «أتوم» ودعا «حورس» ليتسلم عرش أبيه..

وهكذا تربع «حورس» على العرش..

أما «سِت» فقد أراد «رع» ترضيته فتبناه ابنًا له وجعله معه في مركب الشمس الخالد، وجعل صوته رعدًا يخيف به أعداء الآلهة وأعداء مصر، وجعله اليد الباطشة ضد كل عدو..

وهنا تنتهي تلك القصة العجيبة ذات التفاصيل المذهلة..

■ ■ ■

في كتابه الثري الضخم «موسوعة مصر القديمة»، يفسر الأستاذ سليم حسن القصة السابقة بأنها ليست «نصًّا دينيًّا» بالمعنى المعروف بقدر ما هي «قراءة شعبية» للأسطورة، أسقطتها على أحداث سياسية سابقة ترجع لمرحلة «العصر الإقطاعي» في التاريخ المصري القديم..

فخلال تلك المرحلة، تعاظمت سطوة الأمراء الإقطاعيين مقابل تضاؤل سطوة الملك، فلم يعُد هو الحاكم الأوحد الذي تُعادل كلمته القانون الصارم، بل أصبح تحت رحمة الأقوياء من الأمراء الذين اعتمدوا

قانون الوراثة لتداول السلطة في أقاليمهم بعد أن كان تعيينهم يخضع لإرادة الملك..

يقول الأستاذ سليم حسن: إن قصة خصومة «حورس» و«سِت» ما هي إلا تحوير لقصة سابقة ربما وقعت خلال هذا العهد، عن أمير إقطاعي تُوفي فاستولى أخوه القوي على إرث ابنه الذي اختصمه عند الملك، ولمَّا كان الملك في حاجة إلى دعم العم المتسلط فإنه راح يماطل الابن ويسوِّف الحكم في قضيته حتى أبدى الابن المظلوم قوة تفوق قوة المغتصب فقضى له الملك بالحق..

أما ما فيها من تفاصيل صادمة، مثل تصرف «رع» بنزَق يليق بطفل عنيد، أو قيام «حتحور» بالتعري أمام أبيها، أو تطاول «سِت» على الأرباب وسخرية الإله «ببون» من «رع» أو تعدي «حورس» على «إيزيس» أو ـ وهو الأكثر إثارة للصدمة ـ تفاصيل الاعتداء الجنسي لـ«سِت» على «حورس» وتحايل هذا الأخير لبث نطفته في جوف عمه، هذا كله يفسره صاحب «موسوعة مصر القديمة» بأنه يمثل نوعًا من «الأدب الساخر» ـ الذي يصل إلى حد الهرطقة والتجديف بمقاييس هذا العصر ـ الذي بلغ من الجرأة حد السخرية من الآلهة ذاتها!

وأنا أجدني متفقًا مع وجاهة كلٍّ من تفسيرَي الأستاذ سليم حسن، خاصة أن الأسطورة ما هي ـ ضمن تفسيراتها ـ إلا محاولة لتفسير واقع تاريخي قديم أو تساؤلات محمومة حول أمر واقع وظواهر غير مفهومة وتفاصيل موغلة في القدم.. أي أنها بمثابة «صدى للتاريخ».

هذا عن تفسير القصة التي يمكن أن نصفها بـ«المسكوت عنها» في أسطورة «أوزيريس» و«إيزيس» و«حورس» و«سِت»، ولكن

ما تفسير «سِت» ذاته بوصفه واحدًا من أبرز «أرباب الشر» عبر التاريخ الأسطوري؟

■ ■ ■

بداية، فإن ثَمَّةَ مفهومًا عليَّ تصحيحه للقارئ؛ فالشائع أن «سِت» كان «إله الشر عند المصريين القدماء»، لكن هذه المعلومة الشائعة هي أبعد ما تكون عن الصحة..

فـ«سِت» ـ وهي ملاحظة أوردها الباحث الأستاذ فراس السواح في كتابه «الرحمن والشيطان» ـ لم يكُن «إلهًا للشر»، بل كان «إلهًا شريرًا».. كيف؟

المصريون القدماء لم يؤمنوا بوجود «مصدر مجسد مبتدأ للشرور»، بل آمنوا أن الشر هو شيء غريزي فطري تمامًا كالخير، وأنه وُجِدَ في البشر منذ خلقهم، فلم يتدخل عامل خارجي لزرعه فيهم..

بالتالي، فإن «سِت» بريء من أي شرور يرتكبها الإنسان، تلك الشرور التي نقرأ في كتاب «الخروج في النهار»، المشهور باسم «كتاب الموتى»، أن الميت يتبرأ منها أمام محكمة «أوزيريس»، مثل تلويث النهر وإهمال القرابين والإساءة للملك ومنع معونة المحتاج والاعتداء على حقوق الآخرين وغيرها من الآثام والموبقات.. هذه الشرور لم «يوسوس» بها «سِت» لمرتكبيها، مثلما نقرأ عن فعل الشيطان في الأديان الإبراهيمية..

فضلًا عن ذلك، فإن ثَمَّةَ حقيقةً تاريخيةً تقول: إن غضب المصريين على «سِت» ـ إلى حد تشويه رسومه وإهانتها في مراحل متأخرة من التاريخ المصري القديم ـ لم يكُن له شأن بالذنوب والآثام التي قد يرتكبها بعضهم، وإنما كان لكونه عدو «أوزيريس»، قاضي الموتى، الذي أنعم

على مصر بالخير والخصب، و«حورس» الذي يحرس المملكة ويحميها..

ومفهوم المصريين القدماء عن الشرور كان منبعثًا من طبيعتهم كشعب زراعي في المقام الأول، تتوقف حياته على استقرار مفاهيم العدل والتضامن والتكافل والتعاون والاتحاد واحترام الجميع للنظام الدقيق المنعكس على سير الحياة، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، والجرائم بحق هذه المفاهيم لم يكُن مبعثها «سِت»، بل إن من كانوا يقترفونها يفعلون ذلك بإيعاز من نفوسهم الخبيثة لا من وسواس خارجي..

بل إن ثَمَّةَ حقيقة ثانية هي أن «سِت» بقي واحدًا من «تاسوع الآلهة» المصري القديم الذي يضم «رع ونفوت وتشو ونوت وجب وأوزيريس وإيزيس ونفتيس وست».

وحقيقة أخرى أن «سِت» كان يُقدَّس أحيانًا باعتباره «إلهًا للحرب» ـ أسوة بالإلهة «سخمت» ـ فضلًا عن كونه ربًّا للصحراء والبلاد الشمالية الباردة والحيوانات الضارية، ولو دققنا في تلك الأشياء لوجدنا أنها ـ على الرغم من ظاهرها المؤذي ـ كانت هي التي تحمي وادي النيل من الغزاة، فضلًا عن دوره كحارس لسفينة الشمس ضد الثعبان الشرير «أبيب»، وحمايته روح الموتى من هجوم أرواح الشر عليهم خلال الرحلة للعالم الآخر، بل إنه قد اعتُبِرَ أحيانًا ربًّا للقوة الجنسية..

بل وقد سُمِّي بعض الملوك المصريين باسمه، كالملك «سيتي» والملك «ست نخت»، وقرنه الهكسوس بإلههم «سوتخ»، ووُضِعَت رسومه أعلى القصور الملكية منذ عصر الأسرة الثانية، وصورته بعض الرسوم يعلِّم الملك «تحمس الثالث» الرماية، كما تركت لنا فترة الرعامسة تمثالًا يمثل كلًّا من «حورس» و«سِت» يتوجان الملك، فيمنحه الأول العمر المديد ويمنحه الآخر القوة والبأس.. وفي بعض الرسوم نجد جسدًا

واحدًا يعلوه رأسا كلٍّ من «سِت» و«حورس» في إشارة لتكاملهما لحماية المملكة والملك.. بل لقد حملت بعض فرق الجيش المصري القديم اسمه شعارًا لها..

هذا لا يعني أن «سِت» لم يكُن ممثلًا لبعض الشرور البغيض؛ فهو يمثل الفوضى التي تناقض «ماعت»، إلهة النظام والحق والعدل، وحتى قصة ميلاده تنبئ بعنفه؛ فهو لم يولد بيُسر بل مزق رحم أمه منتزعًا نفسه منها، وحتى هيئته كانت مخيفة؛ فهو يوصف أنه حين وُلِدَ كان أحمر الشعر شديد شحوب البشرة، وهيئته الإلهية هي لوحش غريب له خطم طويل وأذنان ممتدتان وذنب مدبب، ومن فرط بأسه وقوته كان المصريون يسمون الحجارة والحديد «عظام ست».

لو دققنا إذًا لوجدنا أن «سِت» لم يكُن يمثل عند المصريين القدماء «الشر البغيض» بقدر ما كان يمثل لهم «الشر الذي قد نحتاج إليه أحيانًا»؛ فهو «القوة الغاشمة» التي ينبغي ترويضها لتواجه الأعداء وتحمي مصر والملك من المعتدين.. بالتالي فإن فكرة أن «المصريين قد عبدوه اتقاءً لشره» ليست بالدقيقة، فالمتأمل يدرك أنهم قد عبدوه رغبة في توجيه شره لصالحهم..

هل يُفسَّر ما سبق وصفي إياه ـ في عنوان هذا الفصل ـ بـ«الشرير المظلوم»؟

■ ■ ■

لو أن الأسطورة انعكاس لواقع تاريخي قديم، فما تفسير اختيارها «سِت» بالذات ليكون عدوًّا لـ«حورس» ومهزومًا على يديه؟

الواقع أن الشطر الآخر من السؤال ـ حول هزيمة «سِت» أمام

«حورس» ـ ليس بالدقيق، فالواقع أن «سِت» لم ينهزم بالمعنى المعروف، بل يمكننا أن نقول إنه قد «تم وضعه في المكان المناسب لقدراته وسماته»، فإن حظي «حورس» بالعرش والحلول في الملوك المتربعين عليه بعد ذلك، فإن «سِت» قد حظي بمكانة «الحامي والباطش بالأعداء».. وهو «تطويع القوة الغاشمة لصالح الخير» الذي سلف ذكره..

إضافة لذلك، فإن المصريين لم يجعلوا أي الخصمين ـ «سِت» و«حورس» ـ ينتصر على الآخر ويمحقه تمامًا، ربما لإيمانهم بضرورة فكرة «الصراع بين طرفين قويين» كضرورة لاستمرار الحياة، وأن اللحظة التي ينتهي فيها هذا الصراع لصالح أيٍّ منهما هي لحظة انهيار العالم.. نستطيع تشبيه ذلك بفلسفة «الين واليانج» في آسيا؛ حيث يتمحور الكون حول قوتين متناقضتين تدور كل منهما حول الأخرى.. فـ«حورس» و«سِت» يمثل كلٌّ منهما نقيض صاحبه الذي لا ضرورة لوجوده من دونه..

والمصريون ـ كشعب نهري يعتمد على دورة الزراعة ـ آمنوا بدورة الحياة من فيضان وزراعة وحصاد.. وهكذا دواليك، وانعكس ذلك على نظرتهم للعالم وجريان الأمور من حولهم بأنه دورة مستمرة أبدًا..

أما عن الشطر الأول من السؤال ـ وأعني به التفسير التاريخي لحرب «سِت» و«حورس» ـ فيجيب عنه الباحثون في التاريخ المصري القديم بإجابتين متقاربتين، تقول إحداهما إن «حورس» كان معبودًا قديمًا لبعض الشعوب السامية التي هاجرت في التاريخ الباكر لوادي النيل، ممتزجة بشعب حامي استقر على ضفتيه واتخذ «سِت» معبودًا، فلما خضع أولئك الحاميون للوافدين الساميين صيغت قصة انتصار «حورس» على «سِت» كرمز لهذا الانتصار، ثم امتزج الشعبان ليكوّنا النواة الأولى لمن نعرفهم باسم «المصريين القدماء».

وثَمَّةَ إجابة أخرى تقول: إنه خلال الحروب الأولى لمحاولات توحيد وادي النيل، تحارب الشمال والجنوب، فكان «سِت» إله الشمال و«حورس» إله الجنوب، فلمَّا انتصر الجنوب وانضوت مصر تحت حكم أسرته الحاكمة صاغ الوجدان الجمعي عبر الزمن تلك الواقعة في أسطورة صراع «حورس» و«سِت»..

ومع ذلك، فلماذا لا نحاول أن نوجد لأنفسنا قراءة جديدة للتاريخ من خلال الأسطورة؟

■ ■ ■

الأمانة العلمية والدقة المهنية تقتضيان مني أن أنبه القارئ أن ما يلي هو محض محاولات لاستنتاج بعض غوامض التاريخ من خلال قراءة ما بين سطور أسطورة «سِت»، وعلى أي حال فإن قراءة الأساطير ومحاولة تحليل ما وراءها تحتاجان إلى خيال خصب وأفق واسع..

لكني أكرر: ما يلي ليس بالضرورة «حقائق» بل هو «محاولة لطرح نظرية تفسيرية».

تعالوا ننظر في بعض تفاصيل قصة «سِت» و«أوزيريس»..

قيام «سِت» باغتيال «أوزيريس»: عند بعض الشعوب الأفريقية القديمة، ثَمَّةَ طقس معروف هو «قتل الملك بعد مرور مدة محددة من حكمه»، فعند تلك الشعوب كانت للملك مدة محددة مسبقًا، إذا مات قبلها خلفه غيره، أما إذا بلغها فإنه يخضع طواعيةً لمراسم تنتهي بقتله والتضحية به، بغرض تجديد شباب الدولة، بل قد تكون كذلك بمثابة نقلة له من عالم البشر إلى عالم الأرواح المقدسة.. فهنا ينتهي وجوده الإنساني (الناسوتي) ويبدأ وجوده الإلهي (اللاهوتي)..

بل قد عرف المصريون القدماء عيدًا مماثلًا منذ عصر ما قبل الأسرات، هو عيد «سد» الذي يفسره البعض ـ تفسيرًا غير مؤكد ـ بأن أصله اسم الإله «سِت».

ففي هذا العيد، كان الملك يحتفل باليوبيل الثلاثيني لحكمه، ثم يجري قتله لتجديد شباب المملكة؛ نظرًا لما قد لحق به ـ بطبيعة الحال ـ من ضعف ووهن، ثم استُبدِلت بالقتل طقوس «تجديد الشباب»، فكان الاحتفال يتم على فترات أكثر تقاربًا ـ حسب رغبة الملك ـ يقوم فيها الملك بتجديد شبابه وإعادة تقديم نفسه لشعبه كحاكم قوي مسيطر..

فلماذا لا يكون قيام «سِت» بقتل «أوزيريس» في الأسطورة بمثابة انعكاس لتلك الفكرة؟

الفعل التالي هو إلقاء جسد «أوزيريس» في النيل، وما ترتب على ذلك من حلول البركة بالنهر وفيضانه بالخير (لاحظ التشابه مع فكرة عروس النيل).. وما تلا ذلك من قيام «سِت» بتقطيع جسد «أوزيريس» ودفن كل قطعة منه في أحد أقاليم مصر، لماذا قطعه ودفنه بهذا الشكل؟

فليلاحظ القارئ هنا أن هذين الفعلين قد ترتب عليهما فيضان النيل وخصوبة الأرض، فهل كان «سِت» في حقيقة الأمر يضحي بالملك المقدس ويقدم جسده قربانًا لكلٍّ من النهر والأرض ليزداد الخير؟

إن الطقوس الوثنية القديمة تزخر بمثل تلك الممارسات؛ فبعض الشعوب البدائية كانت تقدم قربانًا بشريًّا للأرض لتزداد خصوبة وينبت منها الزرع، إيمانًا منها بفكرةٍ نجدها تتكرر في كثير من المعتقدات القديمة هي أن «لأجل أن تنبت الحياة لا بُدَّ من الموت»، وهي إحدى الفلسفات الرامية لتفسير «دورة الحياة» أو ما يصفه الآن المتخصصون في العلوم البيئية بـ«دورة الغذاء»..

بل عرفها بعض العرب القدامى من خلال ممارسة صنع صنم من العجوة للإله ثم تقطيعه وأكله لتحل قوته بأجسام الآكلين..

وحتى من يُعرَفون من الأقوام البدائية بـ«آكلي لحوم البشر»، يعتقد بعضهم أن التهام أعضاء الموتى يورث من يفعل ذلك قوتها؛ فالتهام المخ يورث الحكمة، والتهام الذراع يورث القوة.. وهكذا..

بالتالي فإن «التهام الأرض» أعضاء «أوزيريس» قد أحلَّ بها الخصوبة، ولهذا نجد لونه في التماثيل والصور التي تجسده أسودَ بلون الطمي أو أخضرَ بلون الزرع، أو نرى صورته نائمًا وقد نبت الزرع من جسده..

حتى إن أهل إقليم أبيدوس، الذين اعتقدوا أن رأس «أوزيريس» قد دُفِنَ عندهم كانوا يحتفلون بذكرى ذلك كل عام ويحج إليهم المريدون من شتى أنحاء مصر..

إذًا فالمصريون القدماء تعاملوا مع دفن أجزاء الجسد المقدس باعتباره «بركة حلت بهم» وليس «نقمة ولعنة»..

فهل كان «سِت» يقصد ذلك؟ هل كان «سِت» في حقيقة الأمر لا يغتال أخاه بغرض الكراهية، بل كان يقدمه قربانًا للنيل والأرض بعد أن كان قد استنفد ـ «أوزيريس» ـ الغرض من وجوده البشري بإتمامه تعليم البشر أنظمة الحكم والعمران والزراعة وصار عليه أن يؤدي بموته دورًا لا يقل أهمية؟

ما يدفعني للتفكير في ذلك هو المصير النهائي لـ«أوزيريس»؛ فبعد أن تدخلت الآلهة للحكم بينه وبين «سِت»، تقرر أن يصبح هو حاكم عالم الموتى، فهل كان هذا هو المقصد من البداية؟ في كتاب «البطل صاحب الألف وجه»، لجوزيف كامبل، يقول المؤلف في تفسيره لبعض

الأساطير ما معناه أن ثَمَّةَ مرحلة مهمة في قصة البطل، هي وقوعه في المحنة، وهي مرحلة محورية يترتب عليها مصيره..

فـ«أوزيريس» لا بُدَّ أن يُقتَل ليصبح إلهًا، و«هرقل» لا بُدَّ أن يعاقَب بالأعمال الشاقة لتكون بطولته.. وحتى في القَصص الديني للأديان الإبراهيمية نجد أن مصير النبي «يونس» قد ترتب على محنته (الحوت)، وصعود النبي «يوسف» ترتب على سجنه وانتصار النبي «موسى» ترتَّب على تحوله إلى مُطارَد.. وهكذا..

فهل كان «سِت» مجرد حاقد شرير حقًّا مسطح الشخصية بلا أي معانٍ عميقة خلف أفعاله، أم كان دوره الخفي هو أداة الأقدار الإلهية لتقديم «أوزيريس» كقربان ثمين وبالتالي فوز مصر بالخصوبة وفوز «أوزيريس» بالألوهية والخلود؟

ألا ترون معي أن «سِت» قد أدى بأفعاله من الخير أضعاف ما قد يبدو ظاهرًا فيها من شر؟

أكرر مجددًا أنها مجرد تساؤلات غايتها تحريك بركة الماء الراكد بحثًا عن نظريات تفسيرية جديدة..

وعلى أي حال، فإن الأسطورة ـ أي أسطورة ـ ليست غايتها أن تعكس الواقع التاريخي بشكل مباشر سلس، بل أن تستفز العقول لفحص كل صغيرة وكبيرة فيها متمخضة كل يوم عن أفكار وتفسيرات جديدة..

■ ■ ■



الإله سِت





«حورس» و«سِت» يتوِّجان الملك



II

«إنليل».. سيد العاصفة.. الإله الناقم دومًا على عباده



المُعتاد من الإنسان المؤمن بإله أنه حين يمسه الشر بأي شكل يتضرع لإلهه ويدعوه أن يرفعه عنه، على الرغم من إيمانه أن من خلق هذا الشر أو مصدره هو الإله نفسه.. لكنه عادة ما يؤمن أن ما أصابه إنما هو ابتلاء وراءه حكمة عليا..

ولكن ماذا لو لم تكُن وراء الابتلاء أي رغبة غير التدمير وإشفاء الغضب؟

هذا ما كان من شأن الإله العراقي القديم «إنليل» مع البشر، وفق ما تقول الأسطورة السومرية..

■ ■ ■

في بداية الألف الثالث قبل الميلاد، قامت حضارة «السومريين» في جنوب العراق (وسومر تعني الأراضي الجنوبية)، وكان التحدي الأكبر لها هو التعامل مع الطبيعة الصعبة لجنوب ما بين النهرين؛ فالمستنقعات تغلب على الأراضي، وبالتالي فإن الأوبئة تداهم المنطقة من حين لآخر، وأي قارئ بسيط في الطب والأمراض يدرك بسهولة «متلازمة» الأراضي المستنقعية والأوبئة..

على الرغم من ذلك، بذل السومريون عظيم الجهد لتحويل تلك المنطقة إلى أرض خصبة للزراعة، وبالتالي لإقامة الحضارة التي حملت اسمهم.. وكان أعظم ما يمكن أن ينشغل به الملوك هو إقامة نظام ريٍّ مُحكَم يحمي البلاد من العطش، وفي الوقت نفسه يقيها شر الفيضانات المدمرة..

كان التقسيم السياسي للعراق القديم أولًا هو نظام «المدينة الدولة»، أي أن كل مدينة كانت بمثابة دولة قائمة بذاتها، وإن كان ذلك يؤدي

إلى مرحلة تالية هي قيام سلطة قوية في إحدى تلك المدن تعمل على توحيد ما حولها ثم التوسُّع لإقامة مملكة واحدة قوية.. هكذا قامت دول سومر وأكاد وبابل وآشور..

وبطبيعة الحال، فإن المدينة التي كانت تفرض سطوتها السياسية والعسكرية على ما سواها، كانت كذلك ترفع من شأن معبودها فتجعله «كبيرًا للآلهة»؛ لهذا تداول كلٌّ من «إنليل» السومري و«مردوخ» البابلي و«آشور» الآشوري هذا المنصب، كلٌّ في زمن سيطرة نظامه الحاكم..

■ ■ ■

بعض القدماء قال: إن فكرة الإنسان عن ماهية الإله وشكله ونمط حياته هي بمثابة انعكاس لحياته هو وطبيعة مجتمعه الإنساني..

كان هذا ينطبق بشدة على الأديان القديمة ـ ما قبل الأديان الإبراهيمية ـ والعقائد العراقية القديمة لم تكُن استثناءً..

فالعراقيون تأثروا بفكرة «الملك الإله» الذي يحكم من خلال مجلس لأهل الدولة أو الحاشية، والذي يتمثَّل مؤهله الأول للحُكم في القوة والسيطرة، خاصة أنهم لم يؤمنوا ـ بعكس المصريين القدماء ـ بفكرة الثواب والعقاب فيما بعد الموت والعالم الآخر المقسم بين أصحاب النعيم وأصحاب الجحيم، بالتالي فقد كان الإله بالنسبة لهم أشبه بالملك الذي يَخضع له مجموعة من الأمراء أو السادة الذين يُخضع كلٌّ مِنهم مَن يعلو عليهم..

ولأن حياته تقوم على الزراعة والري والرعي والصيد والتفاعل مع ظواهر الطبيعة، فقد جعل العراقي القديم لكل ظاهرة إلهًا؛ فللمياه إله، وللقمر إله، وللشمس إله، وللرياح إله.. وهكذا..

والعلاقة بين الإنسان والإله مطابقة لعلاقته بملكه الأرضي آنذاك: علاقة منفعة وولاء، فعلى هذا الإنسان أن يُرضي سيده بالخضوع والقرابين والتملق مقابل حصوله على الخيرات الدنيوية من هذا السيد وحمايته من الشرور ومن بطش الإله وغضبه.. بل إن القارئ في قصة خلق البشر من الأساس يجد أنهم إنما خُلِقوا لخدمة الآلهة وتقديم الطعام لهم بغرض أن يستريح الإله من عناء خدمة نفسه بنفسه، أي أن البشر مجرد «أدوات للخدمة» أو «عبيد» بالمعنى الكامل للكلمة وليسوا «عبادًا» خلقهم الإله وهو يحبهم..

بالتالي، فإن فكرة «غضب الإله» وتسليطه الشر على البشر لا تخضع لمنطق أخلاقي معين، أو لفكرة «الابتلاء بغرض الاختبار أو لحكمة خفية تظهر فيما بعدُ»، بل لـ«مزاجه الشخصي».

■ ■ ■

كان للسومريين مجمع آلهتهم الذي كان يترأسه أولًا «آن»، إله السماء، ثم توارى مفسحًا مكانه لـ«إنليل»، إله الهواء المعروف بـ«سيد العاصفة»..

وإن كانت الكتابات السومرية القديمة تصوِّر «إنليل» في شخصية الإله الودود الطيب الرحيم، فإن الكتابات اللاحقة، التي ترجع لعصر سيطرة الدولة البابلية وإلهها «مردوخ» على العراق، تُظهره باعتباره الإله القاسي المدمِّر الغضوب الذي يُنزل الكارثة تلو الأخرى على شعبه.. وكأنما كان الوجدان الجمعي البابلي يحاول أن يحطم أي أثر لتبجيل إله أكبر غير «مردوخ» من خلال شيطنة الإله السابق، على الرغم من أن تقديم البابليين إلههم الأكبر «مردوخ» لم يترتب عليه طرد «إنليل» من مجمع الآلهة، بل مجرد تراجعه في المكانة فحسب مع بقائه إلهًا، وهي

ممارسة سبق أن رأيناها مع «حورس» و«سِت»..

كذلك سنرى في قصص شرور «إنليل» المسلطة على البشر، خلطًا بين أسماء الآلهة السومرية وتلك البابلية، فـ«إنانا»، ربة الخصوبة والحب الجنسي عند السومريين، هي «عشتار» البابلية، و«أنكي»، رب المياه والحكمة السومري، هو المعادل لـ«إيا» البابلي.. وهكذا..

من هنا إذًا نبدأ قصتنا مع «إنليل»، الإله الشرير..

■ ■ ■

فوجئ الإله «إنليل» باحتشاد الآلهة الأصغر أمام قصره يطلبون منه أن يخلق لهم مَن يحمل عنهم أعباء خدمة أنفسهم؛ فكلف «ننخرساج»، إلهة الأرض المعروفة أيضًا بـ«مامي/ ماما» (الأم الكبرى)، بخلق بشر من طين ليتولوا إعمار الأرض وتقديم القرابين والطعام والشراب للأرباب..

ولكن تكاثُر البشر وتصاعُد ضجيجهم مع الوقت قد أزعجا «إنليل»، فقرر أن يقضي تمامًا على البشرية، وهو الحدث الذي خلَّدته الأساطير في أكثر من صيغة أشهرها ما سنعرضه..

ملحمة «أتراحاسيس»

هي الأقدم من ملاحم «الدمار الشامل» في الموروث العراقي القديم، وبينما ترجم كُتَّابها اسم «أتراحاسيس» إلى «عندما كان الآلهة مثل البشر»، فإن ثَمَّةَ ترجمة أخرى أحدث ترجيحًا هي «المتناهي في الحكمة»..

تبدأ الملحمة بقصة الخلق سالفة الذِّكر، ثم تتصاعد أحداثها بدايةً من تضجُّر «إنليل» من ضجيج البشر الذي ـ على حد قوله ـ قد حرمه النوم والراحة..

هنا يقرر الإله الأكبر تدمير هؤلاء المزعجين، فيأمر الإله «نمتارا» ـ أحد آلهة العالم الأرضي ـ أن يسلِّط على الإنسان الأوبئة والطَّوَاعِين..

يطيح الموتُ سيفَه في البشر، فيستغيثون بملكهم «أتراحاسيس» الذي يهرع إلى الإله «أنكي»، رب المياه والحكمة، المشهور بعطفه على البشر وأنه يمثل في مجمع الآلهة «جناح الرحمة»، ويشكو له ما أصاب الناس من بلاء..

يتفكر «أنكي» ثم يقدم النصيحة لـ«أتراحاسيس»: أن يجمع رؤوس قومه فيأمرهم أن ينادوا في الناس أن يمتنعوا عن إقامة الصلوات وتقديم القرابين للآلهة جميعًا، ما عدا «نمتارا» ـ اليد الباطشة لـ«إنليل» ـ وأن يقدموا له قرابين الخبز والسمسم ليُخجلوه من استجارتهم به لعلَّه يرفع عنهم الأذى..

وبالفعل، نفَّذ «أتراحاسيس» والقوم النصيحة، بل أقاموا معبدًا لـ«نمتارا» في مدينتهم، فلمَّا رأى الإله ذلك استحى منهم ورفع عنهم الوباء..

ومرت فترة من الزمن استعادت فيها البشرية حيويتها وعاد صخب البشر وضجيجهم يتصاعدان، ومعهما شكوى «إنليل»، الذي قرر هذه المرة أن يسلِّط عليهم ابتلاءً جديدًا..

استدعى «إنليل» الإله «أدد»، رب الأمطار، وأمره أن يقطع أمطاره عن الناس كي يصيبهم الجفاف ويموت زرعهم ولا ينبت غيره فيقضوا جوعًا.. وبالفعل سارع «أدد» بتنفيذ أمر سيده..

وعاد الموت يحصد البشر بسيف الجوع بعد أن سبق وحصدهم بسيف الوباء، وعاد «أتراحاسيس» يناجي ربه «أنكي» الذي نصحه

بتكرار الحيلة السابقة فيكف الناس عن التعبُّد للآلهة جميعًا عدا الإله «أدد» لعلَّه يخجل من فعله مع من يتقربون إليه..

ومثلما كان في المرة السابقة، استحى «أدد» من قرابين البشر وصلواتهم، فعاد ينعم عليهم بالمطر، وعاد للأرض زرعها وخصبها..

وسرعان ما رجع ضجيج البشر يزعج «إنليل» الذي استشاط غضبًا فجمع الآلهة وأمرهم أن يغلقوا كل أبواب الخير والرحمة أمام بني الإنسان..

فكلف كلًّا من «آنو»، إله الهواء، و«أدد»، رب المطر، بإغلاق مصاريع السماء أمام الأمطار، وأمر «أنكي» بصرامة أن يمنع المياه الجوفية والينابيع عن العطاء، وتولَّى «إنليل» بنفسه حراسة الأرض كيلا تنبت الخير.. وبقي يترقب هلاك البشرية..

وبالفعل عانى البشر الويلات، فبارت الأراضي وماتت المواشي، وتفشت الأمراض، وعز الطعام حتى تفشَّت المجاعة..

ومع تلك الظروف القاسية، ساءت طباع الناس الذين هزلوا وضعفت بنيتهم وتضاءلت، فصارت الابنة تستغيث بأمها فلا تغيثها، وراح كل إنسان يتعامل مع غيره بريبة وتربص.. ثم تفاقمت المأساة حتى اضطر الناس لأكل لحوم أبنائهم واصطياد بعضهم بعضًا على سبيل الطعام!

ومن جديد، حاول «أنكي» أن يتدخل بين الآلهة لرفع البلاء (ولا تبيِّن كِسَرُ الألواح المدونة بها الملحمة كيف فعل ذلك، وإن كان يبدو أنه كان يتسلل في غفلة من «إنليل» وينعم على الناس من الخير فيغيثهم)..

ويتصاعد كل من غضب وعناد «إنليل» فيقرر هذه المرة أن يوجه للإنسانية ضربة قاضية لا يدع معها فرصة لأيٍّ من المتعاطفين معهم

من الآلهة أن ينقذهم من الهلاك..

يجمع «إنليل» الأرباب ويأمرهم بالآتي: أن يتوجه كل من «شلات» و«خانيش»، مساعدَي إله المطر «هدد»، إلى الناس فيطلقا عليهم الزوابع والعواصف، وأن يقلع الإله «إيراكلّا» دعائم العالم الأرضي التي تمنع مياه الأنهار والآبار والقنوات من الفيضان على الناس كي تندفع المياه وتجرف كل شيء، وأمر الإله «ننورتا» ـ وهو إله محارب ـ أن يدمر السدود في الأنهار لتفيض على الأرض، كما أمر «أدد» أن يغرقهم بالأمطار..

بشكل أكثر اختصارًا، فقد قرر «إنليل» أن يهلك البشر بالطوفان!

هرع «أنكي» إلى عبده المخلص «أتراحاسيس» ينذره بالويل القادم، فخاطبه من وراء حجاب وأمره أن يبني سفينة ضخمة لتعصمه من الهلاك، وعيَّن له مقاييسها وكيفية تشييدها..

وعندما سأله «أتراحاسيس» بحِيرةٍ عمَّا يجيب به قومه إذا سألوه عن سبب بناء السفينة قال له:

ـ فلتقُل لهم إنك قد علمت أن «إنليل» يبغضك ويبتليهم بسببك، فقررت أن تهجر الأرض وأن تعيش في الماء لتكون بقربي.

ثم أمره الإله أن يجمع في السفينة أزواجًا من الحيوانات والطيور والكائنات الحية ليضمن استمرار الحياة بعد الطوفان، وأخبره أن ينتظر إشارته ليغلق عليه السفينة هو ومن معه..

وراح «أتراحاسيس» يترقب ساعة الهرب، بينما هو ينظر في حسرة إلى الناس الغافلين عمَّا دُبِّرَ لهم، وراح الألم ينهش نفسه، حتى إنه صار يتقيأ عصارة بطنه كمدًا..

وقبيل أن يشرع الأرباب في تنفيذ أمر «إنليل»، أرسل «أنكي» الإشارة

لـ«أتراحاسيس» الذي دخل إلى السفينة وأغلق بابها وراءه بإحكام وقطع حبل مرساتها لتحملها المياه..

فور أن كان هذا، فوجئ الناس بالموت السائل يحاصرهم من كل ناحية، فقد فاضت الأنهار والبحار، وهطلت الأمطار الغزيرة، واندفع الماء يجرف ما أمامه ويسحقه، حتى ذُهِلَ كل إنسان عن أخيه وارتفعت الأمواج حتى أظلمت السماء واختفى قرص الشمس..

هذا كله و«أنكي» ينظر للبشر وهم يُسحَقون ويهلكون وهو يتميز غيظًا على «إنليل» وأمره الشنيع..

والآلهة أيضًا أصابهم الرعب لما قدمت أيديهم بأمر سيدهم، فراحوا يرمقون الكارثة بحسرة، يحيطهم نواح «مامي»، الإلهة الأم الكبرى، التي صارت تبكي وتعول على من خلقتهم بيديها، بل تمادت فصارت تكيل اللوم والتقريع القاسي لـ«إنليل» وتشبِّهه بالشياطين والأرواح الشريرة..

وارتاع الآلهة حين أصابهم الجوع والعطش، فأدركوا أنهم قد أهلكوا أولئك الذين كانوا يخدمونهم، وأدرك الجميع كارثية قرار كبيرهم..

بقي الطوفان يغطي الأرض سبعة أيام وسبع ليالٍ، ثم أخيرًا توقفت السماء عن الأمطار وابتلعت الأرض ماءها، واستقرت سفينة «أتراحاسيس» على اليابسة، ففتح أبوابها على الجهات الأربع، مطلقًا ما فيها من طير وحيوان، وسجد للآلهة، ثم أقام محرقة وضع عليها قربانًا من المواشي تقرُّبًا وتزلُّفًا للأرباب..

شم الآلهة رائحة القربان فهرعوا إليه، في إعلانٍ عن رضاهم عن «أتراحاسيس» وإشارة ضمنية لندمهم على موافقة «إنليل».. وراحت الإلهة «مامي» تدور بين الآلهة تعيب في شأن كلٍّ من «آنو»، رب السماء، و«إنليل»، كبير الآلهة، لما قدَّما بحق بني الإنسان..

فلمَّا اطلع «إنليل» على ما يجري، استشاط غضبًا لنجاة أحد البشر، ودَهَمَ الآلهة، فراح يسألهم عمَّن أفشى سر تدبيره لـ«أتراحاسيس»، فأشار «آنو» إلى «أنكي» وقال لـ«إنليل»:

ـ لا أحد يجرؤ على إفشاء سرك غيره.

وقبل أن يصب «إنليل» غضبه على «أنكي»، واجهه هذا الأخير وراح يلومه لتسرعه ورعونته، وقال له:

ـ عاقِب المذنب بقدر ذنبه، والمخالف لأوامرك منهم، ولكن لا تهلك الجميع.

ويهدأ غضب «إنليل» بينما هو يتفكر في نصيحة «أنكي»، ثم يصعد إلى السفينة فيبارك «أتراحاسيس» ويُبدي له العطف، وأخيرًا يجتمع بـ«أنكي» و«مامي» فيعمل بنصيحة الأول، لكنه يأمر «مامي» أن تخلق نوعًا من الإناث لا يحملن ـ أي أن تخلق العُقم ليقل عدد البشر ـ وأن تخلق كذلك بعض الشياطين، وهي إشارة لخلق الشرور التي تؤدي إلى تناقص أعداد البشر، لكنها لا تهلكهم بالجملة..

وهكذا يتحقق للعالم توازنه بين استقرار الحياة فيه من ناحية، ووجود أسباب وعوامل لتناقص السكان من ناحية أخرى..

وهكذا تنتهي ملحمة «أتراحاسيس»..

قصة «أوتنابشتيم» في ملحمة «جلجامش»

في ملحمة «جلجامش»، يصاب هذا الأخير بصدمة موت صديقه «أنكيدو»، فيقرر البحث عن سر الخلود للقضاء على فكرة الموت، فتصل به الرحلة إلى أرض منعزلة يعيش بها كل من الرجل الحكيم

«أوتنابشتيم» وزوجته، حيث لا يصيبهما تقدم في السن ولا يهددهما يومًا الموت (أنصح بمراجعة كتاب «ملحمة جلجامش» للأستاذ طه باقر).

في المعتقد العراقي القديم، لم يكُن من عالَم آخر بالمعنى المعروف في العقيدة المصرية القديمة أو الديانة الزرادشتية أو الأديان الإبراهيمية؛ حيث يخضع الإنسان بعد موته لمحاكمة يترتب عليها خلود في النعيم أو الجحيم، إنما كان الإنسان بعد موته ينتقل إلى العالم الآخر حيث لا رجعة، وهي أرض تعيش فيها الأرواح حالة «وجود شبحي مشوش» لا تأكل فيه إلا التراب ولا تكتسي إلا بالريش، وتبقى هكذا إلى الأبد أيًّا ما كانت أعمالها (وربما كان لغياب فكرة الثواب والعقاب بعد الموت أثر كبير في المحتوى الأخلاقي للأديان العراقية القديمة).

ولكن، على الرغم من ذلك، كان للآلهة أن يختاروا بعض البشر - لأسباب استثنائية - لكي ينتقلوا إلى أرض خاصة بالخالدين؛ حيث لا يصيب الناس مرض ولا موت ولا حزن ولا حرمان.. عُرِفَت هذه الأرض بـ«دلمون»، وهو نفس اسم الحضارة القديمة التي قامت يومًا في مملكة البحرين الحالية..

والغالب أن «أوتنابشتيم» كان يعيش هو وزوجته في هذه الأرض..

بلغ «جلجامش» دار «أوتنابشتيم» فسأله عن سر خلوده، فقص عليه هذا الأخير قصة الطوفان التي نحن بصدد مطالعتها..

كان «أوتنابشتيم» يعيش في مدينة «شروباك» (حاليًّا «تل فارة»، قرب مدينة «الوركاء» في دولة العراق).. وكان فيما يبدو حاكمًا لها أو أحد وجهائها..

ذات يوم، وجد الإله «إيا» (المعادل البابلي للإله «أنكي») يناديه من

وراء حجاب، فألقى له السمع فأنذره «إيا» أن الأرباب قد اجتمعوا وقرروا أن يسلطوا على البشر طوفانًا مدمرًا.. وأمره أن يترك كل شيء وراءه ويشيِّد سفينة عرضها مثل طولها وأن يجعل فيها «بذرة كل حياة» أي من كل كائن حي..

ولَمَّا سأله «أوتنابشتيم» عمَّا يجيب به الشيوخ والوجهاء إذا سألوه عن ذلك، أخبره «إيا» أن يقول لهم إنه قد علم أن «إنليل» يبغضه، فقرر أن يهجر الأرض وأن يعيش في الماء قرب سيده «إيا».. وأنه إذا فعل ذلك فسيغدق عليهم الآلهة من خيرهم.. أي أنه إنما يرحل ليتيح للبركة أن تحل بالبشر بينما وجوده يمنعها..

وبالفعل انطلت خدعة «إيا» على وجهاء «شروباك»، فأقام لهم «أوتنابشتيم» الولائم والاحتفالات التي شاركوا فيها بحماس استبشارًا بالخير المُنتَظَر، بل راحوا يقدمون القرابين للآلهة، ويعاون صُنَّاعهم الرجل في بناء سفينته ودفعها للماء..

وفي السفينة، وضع «أوتنابشتيم» كل ما لديه من ذهب وفضة، وجعل فيها أزواجًا من الكائنات، بل أسكنها بعض أهله وأقاربه والمقربين له، وكذلك بعض الصُنَّاع في الصناعات المختلفة.. وهكذا ضمت السفينة عينات مِمَّن يستطيعون أن يعيدوا بعث حضارة الإنسان بعد انتهاء الكارثة المرتقبة..

وبينما أهل «شروباك» في لهو ومرح، كان «أوتنابشتيم» يغلق عليه هو ومَن معه باب السفينة ويحل مرساتها، ويُسلم قيادها لمَلَّاح بارع اسمه «بوزراموري»..

ودَهَمت الآلهة الموكلة بالطوفان الأرض، فخُلعت مصاريع الماء،

وانهارت السدود من فوق الأنهار، وأطل «أدد»، رب المطر، بسيوله القاتلة، واسودَّت السماء بالغمام الكثيف.. وبينما الناس في استبشار بأن الغيوم المتراكمة هي بشائر الخير الموعود فوجئوا بالطوفان يجرفهم هم ودُورهم..

وذُهِلَ الإنسان عن أخيه وأهله، وراح الجميع يستميتون في الفرار من الهلاك، إلا أن الأمواج ارتفعت فدفنتهم تحتها، ثم تعالت حتى غطت قمم الجبال، إلى حد أن الآلهة نفسها ارتاعت من الهول وراحت تصعد إلى السماء تنشد الأمان..

ونظرت «عشتار» ـ ربة الخصوبة والحب، وتعادلها «إنانا» السومرية ـ إلى الويل العاصف بالأرض ومَن عليها وراحت تصرخ كالثكلى وهي تلوم نفسها ومَن معها أن وافقوا «إنليل» في إهلاك البشر..

واستمر الطوفان سبعة أيام وسبع ليالٍ، ثم استقرت السفينة على جبل «نصير»، ففتح «أوتنابشتيم» كوّات السفينة، فلمَّا وقع على وجهه نور الشمس ـ علامة على حضور إلهها «أوتو» ـ سجد الرجل وبكى شكرًا للآلهة على النجاة..

بقي جبل «نصير» ممسكًا السفينة بصخوره سبعة أيام، فلمَّا تحقق لـ«أوتنابشتيم» انتهاء الطوفان أطلق حمامة تستطلع الأرض، فرجعت فعرف أنها لمَّا تجد يابسة تهبط عليها.. ثم عاد فأطلق طائر السنونو فتكرر معه ما كان مع الحمامة.. ثم جرب مرة ثالثة وأطلق الغراب فلمَّا لم يرجع أدرك «أوتنابشتيم» أن الغراب قد وجد يابسة وطعامًا، ففتح أبواب السفينة وأطلق ما فيها من كائنات إلى الجهات الأربع.. ثم على قمة الجبل صنع محرقة للقرابين وقدم قربانًا للأرباب..

شم الآلهة رائحة القربان فهرعوا إليه ومعهم «عشتار»، التي رفعت عقدها اللازوردي القيِّم وهي تصيح: «كما لا أنسى عقدي هذا، لن أنسى هذا اليوم كي لا أوافق مرة أخرى على إهلاك البشر» (يشبه هذا المعتقد التوراتي عن قوس قزح أنه علامة من الرب للإنسان ألَّا يبتليه مجددًا بكارثة الطوفان)، ثم أردفت:

ـ هلموا إلى القرابين، ما عدا «إنليل»؛ لأنه هو الذي أمر بهذا الهلاك!

فلمَّا أبصر «إنليل» المحرقة والسفينة، غضب وهبط إلى جوارهما وصاح يسأل من الذي خالف أمره وأنذر بعض البشر بما يدبَّر لهم، فأشار بعض الآلهة إلى «إيا» وقال لـ«إنليل»:

ـ من يجرؤ على مخالفتك غيره؟

فسارع «إيا» يقول بدهاء إنه لم يُفشِ سر الآلهة، إنما جعل «أوتنابشتيم» يرى ما رأى في رؤيا بينما هو في النوم. ثم، قبل أن يترك فرصة لـ«إنليل» أن يرد، راح يلومه أن غابت حكمته عنه حين قرر إهلاك البشر جميعهم، وقال له:

ـ عاقِب المذنب بقدر خطيئته، ولكن لا تتمادَ فيفقد الأمل ولا تتهاون فَيضيع.. وإن أردت تقليل أعداد البشر فلتسلط عليهم الذئاب والسباع تُنقص من أعدادهم، ولتجعل المرض أيضًا وسيلة لذلك.

فتفكَّر «إنليل» في قول رب الماء والحكمة، ثم صعد إلى السفينة فمسح رأسَي «أوتنابشتيم» وزوجته وطمأنهما أنه قد رفع سخطه عن البشر، وكافأهما بأن منحهما الخلود على أرض الخالدين..

وتنتهي قصة الطوفان بأن نجت البشرية من الاندثار، بينما حلت محل كارثة دمار العالم فكرة تعرُّض الإنسان للمخاطر الطبيعية من

حيوانات مفترسة وأمراض كوسيلة لتحقيق التوازن سالف الذكر بين تكاثر البشر والحد منه..

■ ■ ■

أكاد أسمع تساؤلات القارئ عن سر تشابه قصتَي الطوفان السابق عرضهما مع كلٍّ من قصة الطوفان في التوراة وقرينتها في القرآن الكريم..

بشكل عام، فإن المُطالِع للكتب التي تتناول معتقدات الشعوب وأديانها، سرعان ما يدرك أن ثَمَّةَ خيوطًا مُشتركة أو معطيات متشابهة بين كثير منها، وهو شيء منطقي، لماذا؟

أولًا: لأن المُخاطَب المُشتَرَك بهذه الأديان هو «الإنسان»..

ثانيًا: لأن الأسئلة الإنسانية التي تجيب عنها تلك الأديان متشابهة، بل وربما متطابقة، فكلها تدور حول أمور مثل بداية الخلق، وكيفية تكون المصائر، وتفسيرات الشرور والابتلاءات، وماذا بعد الموت، ومعايير الخير والشر... إلخ.. وإن تنوعت الإجابات بتنوع الثقافات المنتجة للأديان أو التي تنشأ فيها العقائد فإن هذا لا يمنع من وجود «نقاط تماس» بين هذه الإجابات..

ثالثًا: فإن التاريخ الإنساني واحد، لكن قراءته تتنوَّع وتختلف، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمعات والثقافات، وكثيرٌ من العقائد اعتنت بوضع سرد وأحيانًا تفسير لبعض الأحداث التاريخية، بالتالي فإن «الحدث» يمكنه أن يوجد في أكثر من نص مقدس لأكثر من دين، ولكن بقراءات مختلفة..

أخيرًا: فإننا إن لاحظنا أن الدين الواحد قد ينقسم عبر الزمن إلى مذاهب وتيارات، فإنه كذلك قد يتمخض عن دين آخر منفصل، وذلك

الدين الجديد إن انبثق عن عقيدة أقدم فإنه لا بُدَّ حاملٌ منها بعضًا من عناصرها ومحتوياتها.. فكما قد تنفصل الشعوب وترتحل وتنبثق الدول عن دول سابقة، فكذلك الأديان وما تحتويه من «قَصص ديني»..

أرجو أن يكون في هذا ما يفسر تشابه قصتَي الطوفان السومرية والبابلية مع تلك التوراتية والقرآنية..

■ ■ ■

من التيمات الشائعة في الأساطير القديمة: تيمة «أساطير الدمار الشامل»، كارثة مدمرة تحل بالحضارة الإنسانية وتعيدها إلى نقطة الصفر، ولتلك التيمة نوعان، أحدهما «ناري»، يتمثل في سقوط النار على الأرض وإهلاك كلِّ مَن عليها، والآخر «مائي» يتمثل في طوفان مدمر..

وليلاحظ القارئ أن ثَمَّةَ عناصر أربعة للكون اعتمدتها أغلب الثقافات القديمة: الماء والهواء والنار والتراب، وإن كان أقوى عنصرين هما النار والماء ـ بحكم تعرض الإنسان بالفعل لكوارثهما من فيضانات وبراكين وحرائق أكثر من تعرضه لمخاطر هوائية أو ترابية ـ فمن المنطقي إذًا أن يحوزا بطولة أغلب قصص الدمار الشامل..

كذلك فإن كانت الأسطورة مرآة لكلٍّ من التاريخ والخوف من المجهول، فإن كل عصر ينتج أساطيره تلك وفقًا لمعطياته؛ فعلى سبيل المثال: بينما أنتجت العصور القديمة أساطير الزلازل والبراكين والفيضانات، فإن العصور الحديثة تترجم أحيانًا مخاوف البشر في هيئة قصص أو أفلام من فئة «الخيال العلمي» تصور «الخطر» في هيئة تمرُّد للآلات أو غزو فضائي أو كارثة نووية أو تجربة سلاح بيولوجي تفلت من عقالها (كمثال أفلام Terminator وWorld war Z وIndependence day).. بل وتتخطاه لما يوصف بـ«أدب ما بعد المحرقة»، الذي يصوِّر

الحياة فيما بعد كارثة تعيد مسيرة الإنسانية إلى الوراء (كمثال أفلام The postman و I am legend)..

يقودنا القول إن «الأسطورة مرآة للتاريخ» إلى سؤال مهم: ما الحدث أو الواقع التاريخي الذي تعبر عنه كل من ملحمة «أتراحاسيس» وقصة «أوتنابشتيم»؟

أو بصيغة أخرى: ما نوع الشر الذي نقرؤه من بين سطور هاتين القصتين؟

الشر هنا هو «شر طبيعي» متمثل في الوباء والقحط والطوفان، نتج عن «شر أخلاقي» متمثل في قسوة «إنليل» ورعونته ومسارعته لإيقاع الدمار والخراب، لسببٍ تافه هو «ضجيج البشر».

بالنسبة لمظاهر الشر الطبيعي بالأسطورة، فإن القارئ لتاريخ العراق القديم يستطيع استخلاص تفسيراتها بسهولة ويُسر؛ فالأحداث تدور في بلاد بذل أهلها قصارى جهدهم لتحويلها من مستنقعات تستحيل فيها الحياة، وترتع فيها الأوبئة، إلى أرض خصبة ذات ري متطور منتظم، تصلح للزراعة والاستقرار.. بالتالي فإن الهاجس الأكبر الذي كان يراود العراقي القديم ويمثل له الهلاك لحضارته كان ارتداد الوضع لما كان عليه، أي انهيار منظومة التحكم بالمياه، وهجوم الأوبئة مجددًا.. وعلى الرغم من إنكار البعض وجود آثار لفيضانات مدمرة في هذه المنطقة، فإن البعض الآخر يرجحون قابليتها لأن تكون قد تعرضت لذلك بالفعل في عصور سحيقة؛ نظرًا لطبيعتها الجغرافية والجيولوجية، ما أسهم في تكوين أسطورتَي الطوفان السومرية والبابلية..

أما الجانب التفسيري لـ«الشر الطبيعي» هنا، المتمثل في «الشر الأخلاقي من الإله»، فإنه يحمل من ناحية أثرًا سياسيًّا للسيطرة البابلية على حضارة

سومر القديمة، متمثلًا في إعلاء مكانة «مردوخ» البابلي مقابل إلصاق النقائص بـ«إنليل» السومري، كما يحمل من ناحية أخرى محاولة لوضع حد فاصل بين زمن كان البشر فيه يعيشون في أمان من الأخطار والمهالك والتحديات، وزمن آخر عرف فيه الإنسان المرض والموت وأخطار الحيوانات المفترسة (راجع نصيحة «أنكي»/ «إيا» لـ«إنليل» أن يسلط هذا كله على البشر لينقص أعدادهم)..

كذلك فإن ثَمَّةَ عنصرًا «سياسيًّا» نفعيًّا واضحًا في الأسطورة بدا واضحًا في ملحمة «أتراحاسيس»، وهو «الولاء للسيد»، فالإله «أنكي» قد نصح تابعه أن يأمر قومه بالامتناع عن تقديم فروض الولاء للآلهة عدا ذلك الذي بيده مصلحتهم ـ سواء أكان «نمتارا» أو «أدد»، وبالفعل يستجيب السيد لهم فور تلقيه قرابينهم، بل وفي النهاية يُقَدِّم كلٌّ من «أتراحاسيس» و«أوتنابشتيم» الولاء لـ«إنليل» على الرغم من كونه هو الذي أوقع بقومهما الهلاك، ما يعكس هنا المفهوم «النفعي» للعلاقة بين الإنسان والإله عند العراقيين القدماء، وهو بدوره انعكاس لعلاقاتهم بملوكهم..

وأخيرًا، فإن شخصية «الملك المتواصل مباشرة مع الآلهة والمتلقي لتحذيراتها» تعكس المعتقد القديم في سومر وبابل وحتى آشور؛ أن الآلهة بعد أن خلقت العالم شيَّدت المدن الكبرى وأنزلت «الملوكية» من السماء، ما يدعم نظرية «الحق الإلهي في الحكم» التي سادت هذا العصر، بل وزيد عليها أن عرفت تلك البلاد، لفترة لا بأس بها، فكرة «الملك الكاهن»، أو الملك المؤلَّه بشكل أو بآخر، ما يعكسُ جمعَهُ السلطتين الدنيوية والدينية قبل أن تنفصلا وتنشأ طبقة الكهنة..

وعودة لـ«إنليل» ـ رب الشر في هذا الفصل ـ فإنه هنا يتميَّز عن

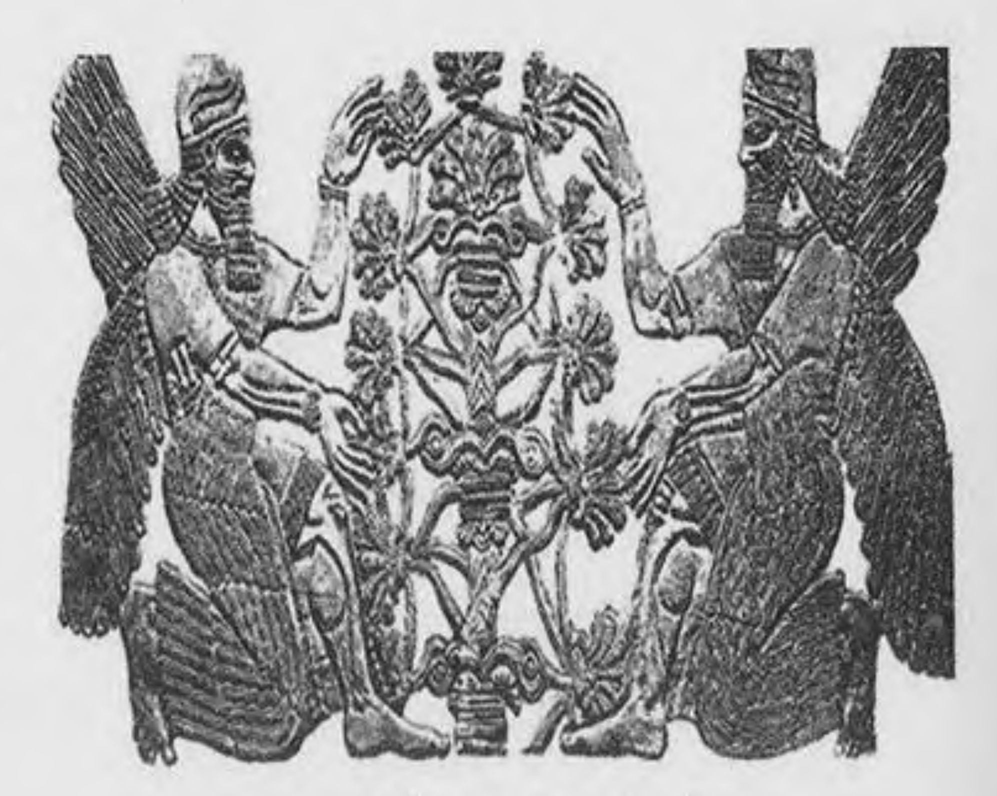
بعض أرباب الشر الآخرين في أنه لم يمارس هذا الشر لغرض نفعي متمثل في إنزال الرهبة بقلوب عباده ولا لغرض إثبات تفرده بالسطوة بين الآلهة - كما ورد في قصة «سِت» المصري - إنما هو يمارس «الشر لمجرد الشر».. وهو ما يتناسب مع صياغة البابليين لشخصيته؛ حيث يقدمونه كإلهٍ أرعنَ أهوجَ، إلى حد أنه في بعض أساطيره يُعجَب بفتاة جميلة فيغتصبها فيعاقَب بالنفي للعالم السُّفلي!

ولا ينتبه «إنليل» للفائدة النفعية من قدراته وإمكاناته إلا بنصيحة «أنكي/ إيا»، إله الماء والحكمة، أن يعاقب المخطئ والخارج عن الطاعة، فكأنما يمثل «إنليل» «القوة الهوجاء بلا عقل»، بينما تتدخل الحكمة لتحقق مع القوة توازنًا مطلوبًا لاستمرار الحياة واستقرارها..

فكأنما المغزى الدفين لتلك الأسطورة يتجاوز حدود تفسير كارثة طبيعية، أو شر طبيعي، ليصل بنا إلى حكمة أن «القوة بلا عقل مدمرة ولو كانت بيد إله».



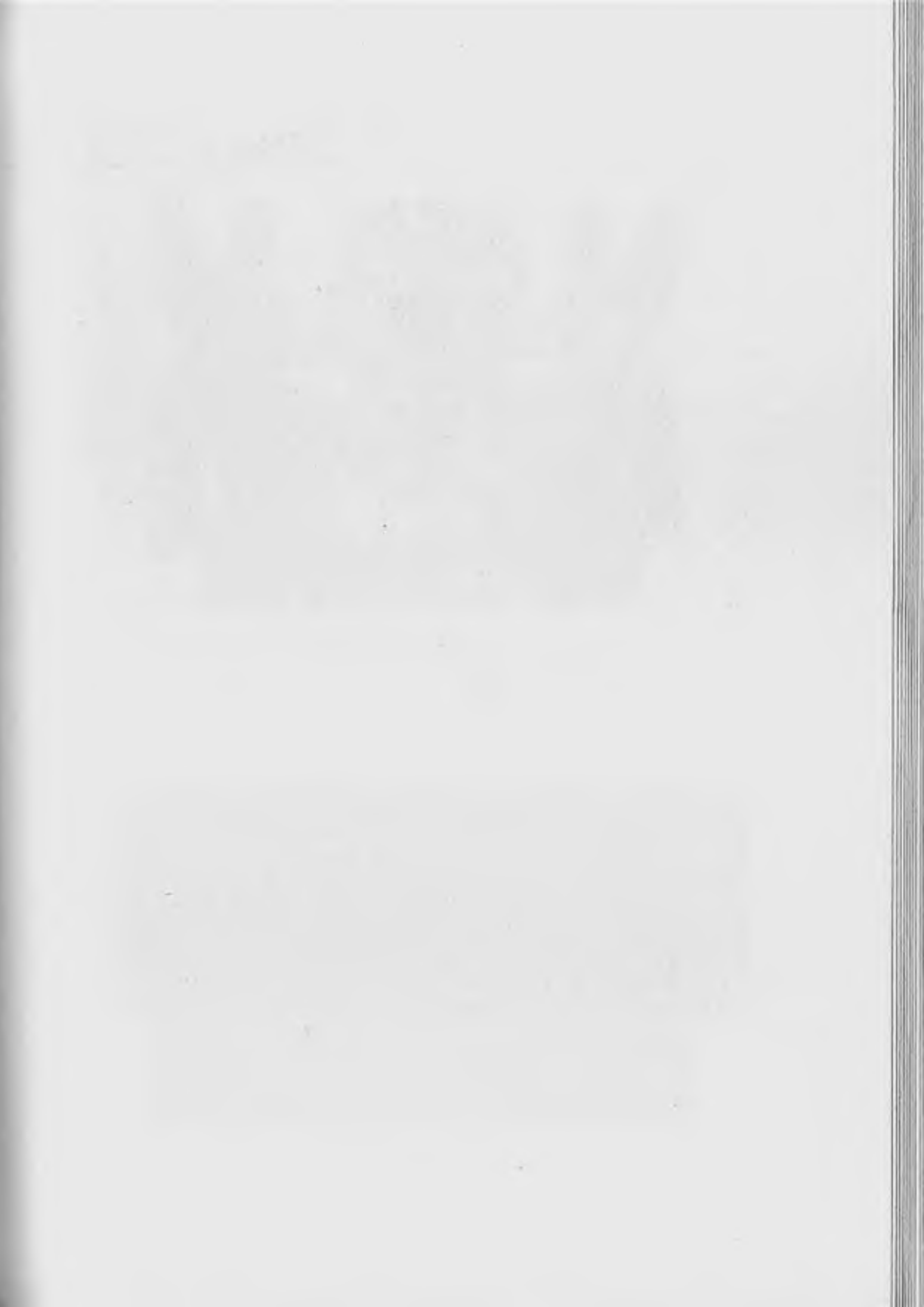
الإله «إنليل» على عرشه



الإلهان «إنليل» و«أنكي»



«أوتنابشتيم» وسفينته



III

«تيامات».. الفوضى المدمِّرة والأم الكبرى عدوة أبنائها



«عندما في الأعالي لم يكُن هناك سماء وفي الأسفل لم يكُن هناك أرض»..

هكذا تبدأ ملحمة «إينوما إيليش» ـ أي: «عندما في الأعالي» ـ البابلية، التي يرجع عمر تدوينها إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وقد عُثِرَ على ألواحها في آثار مكتبة الملك الآشوري «آشور بانيبال» خلال عمليات التنقيب في قصره..

«إينوما إيليش/ عندما في الأعالي» هي «قصة الخلق البابلية»، التي تبدأ حكاية خلق العالم من الأساس بوجود الشر الأول وتغلب الإله البابلي «مردوخ» عليه ثم تأسيس العالم بعد ذلك..

تبدأ القصة بأنه قبل خلق السماء والأرض كان الكون عبارة عن خواء، ليس فيه إلا ثلاثة آلهة: «أبسو»، رب المياه العذبة، و«تيامات»، زوجته، ربة الماء المالح، و«ممو»، الضباب، وزير «أبسو» وتابعه..

بعد أن كانوا يعيشون في حالة سكون طويل، نتج عن اقتران «أبسو» و«تيامات» بداية ميلاد الآلهة، فمن الجيل الأول وُلِدَ كلٌّ من: «لخمو» و«لخامو»، ثم الإله «أنشار» وزوجه «كيشار» اللذين أنجبا «آنو».. وأنجب «آنو» بدوره «إيا» الذي فاق آباءه جلالًا وحكمة..

وراحت الآلهة تتكاثر وتتناسل حتى صارت أجيالًا قديمة وشابة، وبدأت تسعى إلى حالة الحركة والنشاط بعد طول ركون للسكون والهدوء..

ولأن ما يوافق جيل الشباب لا يوافق بالضرورة الجيل السابق له، فقد أزعج ضجيج الآلهة الشابة «أبسو»، فاجتمع سرًّا بـ«تيامات» و«ممو» وأسرَّ لهما برغبته القضاء على هذا النسل المزعج..

ارتاعت «تيامات» لما قال «أبسو» وراحت تحاول إثناءه عن رغبته وهي تنصحه بانتهاج اللين مع أبنائه وأحفاده، لكنه صمَّ أذنيه عنها وألقى سمعه لوزيره «ممو» الذي تحمَّس للفكرة وشجعه على المضي قدمًا في تنفيذها..

وبينما «أبسو» يشرع في التدبير لأمره الرهيب، بلغت أنباء هذا الأمر مسامع الآلهة الذين ارتاعوا وأسرعوا إلى «إيا» يستغيثون به..

بقي «إيا» يتفكر حينًا ثم قام وقد حسم أمره..

عمد أولًا إلى الآلهة الشابة فخلق حلقة سحرية أحاطهم بها فأخفاهم عن الأنظار حمايةً لهم من أذى «أبسو»..

ثم تسلَّل إلى «أبسو» فألقى عليه تعويذة أغرقته في النوم العميق.. ومن دون تردد تقدم منه فخلع تاجه ونطاقه وارتداهما عنه مستوليًا على ألوهيته للماء، ليضيف «إيا» لنفسه كونه إله المياه العذبة، فضلًا عن الحكمة والدهاء، وأخيرًا قام «إيا» بذبح «أبسو» وأقام على جسده قصره الذي سكنه مع زوجته الربة «دومكينا» التي أنجبت له ولده «مردوخ»..

أما «ممو» ـ الوزير الناصح بالشر ـ فقد أسره «إيا» وجعل في أنفه حلقة يجذبه منها وراءه حيثما ذهب، ولذلك أصبح «ممو»/ الضباب يُرَى دائمًا تابعًا لـ«إيا»/ الماء العذب..

وهكذا انتصر الآلهة على الشر في الجولة الأولى..

■ ■ ■

جُنَّ جنون «تيامات» لتلك الفاجعة التي أصابت بيتها بقتل زوجها «أبسو» وأسر وزيره «ممو»..

وبعد أن كانت رافضةً لفكرة القضاء على الآلهة الشابة، قررت أن تتولى ذلك بنفسها، وانحاز لها الجيل القديم من الآلهة فاختارت أحدهم ـ «كينجو» ـ زوجًا لها، وقائدًا لجيشها، وزادت في تقديمه فعلقت على صدره «ألواح القدر» لتصبح كلمته نافذة..

وراحت الأم الكبرى تعد جيشها الجرار، فخلقت المسوخ والوحوش أمثال الذباب العملاقة والثعابين الضخمة التي يجري في عروقها السم الرهيب، والرجال العقارب، والثيران المدمرة، والأسود ذات الوجوه الآدمية، والتنانين، وعفاريت العواصف وغيرها.. واستعدت لمداهمة أعدائها لسحقهم تمامًا..

بلغ مسامع الآلهة نبأ ما كان من «تيامات»، فاجتمعوا يدبرون أمرهم ثم قرروا إرسال «آنو»، رب السماء، لمواجهتها..

تقدم «آنو» من جيش «تيامات» فهاله ما رأى من مسوخ وهولات، حتى إنه من هول المنظر ارتد على عقبيه وراح يفر مهرولًا إلى مجلس الأرباب..

وفي رعب، راح «آنو» يصف للأرباب ذلك الجيش المريع، فأطرقوا برؤوسهم ثم التفتوا ونظروا جميعًا لـ«إيا».. فلمَّا أدرك هذا الأخير أنهم قد وضعوا أملهم فيه توجَّه من فوره لمواجهة العدو..

راح «إيا» يتقدَّم من الجيش المتأهب لدهمه هو وأصحابه، إلا أنه ـ على الرغم من شجاعته المعروفة وثبات قلبه الشهير ـ لم يتمكن من الثبات وفرَّ بدوره من القتال..

سقط في أيدي الآلهة وراحوا يتشاورون فيما يمكن عمله للنجاة من ذلك الخطر.. أخيرًا طرأ اسم على أذهانهم: «مردوخ»..

كان «مردوخ»، ابن «إيا»، قد شبَّ وصار فتًى قويًّا مشهورًا بالبأس والإقدام والحكمة.. حتى إنه كانت قد طُوِّعَت له الرياح الأربعة يوجِّهها كيف يشاء.. تبادل الآلهة الفكرة وانتهى نقاشهم وقد استقروا عليها فأخبروا «إيا» أنهم قد اختاروا ابنه لينازل «تيامات»..

أبلغ «إيا» ابنه الذي لم يتردد وقام فتوجَّه إلى جدَّيه «لخمو» و«لخامو» فحصل على بركاتهما، ثم دلف إلى مجمع الآلهة وبلا مقدمات أخبرهم قراره: سأنازل «تيامات» وأسحقها، ولكن بشرط أن تقروا لي بأني كبيركم، وتعلنوا اقتداري وأن تعطوني من قوة ألوهيتكم قوة القدر وأن يبقى ما أخلق باقيًا لا يزول وما أمضي دائمًا لا يحول..

وافق الآلهة بغير تردُّد على طلب «مردوخ»، فأقام لهم مأدبة أكلوا فيها وشربوا الخمر حتى انتشوا وزال وجلهم مؤقتًا، ثم طلبوا منه أن يعقدوا له اختبارًا أخيرًا فقبل..

فأتوا بثوب وضعوه أمام «مردوخ» وطلبوا منه أن يأمره بالفناء، فأمره ففني.. ثم طلبوا منه أن يأمره بالرجوع فأمره فرجع على هيئته الأولى.. فهلل الأرباب للفتى وقد أدركوا أنه قد اكتسب القدرة أن يُفني ويخلق بالكلمة.. فهتفوا باسمه ومنحوه العرش والصولجان والرداء الملكي..

لم يضيِّع «مردوخ» وقتًا، فراح يستعد للمعركة الضارية..

ارتدى زرديته (قميص مدرع من حلقات) وسنَّ سهامه وعلَّقها في جعبة مع قوسه، أعد هراوة ضخمة ذات أسنان مدببة، وشبكة عملاقة متينة أمر الرياح الأربعة أن تحملها..

ثم ملأ جسده نارًا لاهبة، واستقل عربته الحربية التي يجرها أربعة وحوش مخيفة: الساحق والطيار والعتي والمدمر.. يسيل السم من أنيابها..

أرسل البرق والزوابع وعواصف المطر تتقدمه، ومعها ما خلق من الرياح الشيطانية والأعاصير..

وأنهى استعداده بأن وضع بين شفتيه طلسمًا يقيه الشرور وجعل معه ترياقًا يعالج السموم..

ثم تقدَّم «مردوخ» في موكبه الرهيب يحيطه الآلهة ويباركون خطاه..

■ ■ ■

بعكس كلٍّ من «آنو» و«إيا»، لم يهتز «مردوخ» لمرأى جيش «تيامات» الرهيب..

تقدَّم من الأعداء حتى صار أمامهم مباشرة، رمق «كينجو»، قائد الجيش، بنظرة نافذة أرعبته وشلَّت إرادته.. وراح يوزِّع نظراته المهيبة على من انحازوا لـ«تيامات» من الآلهة القديمة فتراجعوا فَرَقًا..

زعقت به «تيامات» تسأله عمَّن يكون ليقدِّمه الأرباب عليهم ويفترضون أنه ندٌّ لها.. فصاح بها أن تكف عن العجرفة والتكبُّر، وراح يقرِّعها لزرعها البغضاء بين الآلهة القديمة والشابة، وتقديمها «كينجو» لمكانة لا يستحقها..

وأخيرًا عرض عليها منازلة فردية معه كي يجنِّب الجميع أنهارًا من الدم..

وافقت «تيامات» وقد استشاطت غضبًا من استهانة «مردوخ» بها وهي أم الآلهة وهو إله شاب حدث.. راحت تلقي عليه التعاويذ واللعنات ثم اهتاجت فحوَّلت نفسها إلى تنين واندفعت نحوه مشهرة أنيابها..

فورًا، أمر «مردوخ» الرياح حاملة الشبكة فأسقطتها على «تيامات»

التي راحت تقاومها عبثًا، حتى إذا ما كادت تُفلت وفغرت فاها لتبتلع «مردوخ» أطلق عليها الرياح الشيطانة فدخلت من الفم المفغور وبلغت جوفها فنفخته فوقعت «تيامات» عاجزة عن الحركة..

لم يمهلها الإله الفتى وأطلق عبر فمها سهمًا بلغ قلبها فشقه، ثم تقدم منها فأجهز عليها وأزهق روحها، ثم اعتلى جسدها وهو يصوِّب لجيشها نظراته الرهيبة..

اختل عقد جيش «تيامات» إذ رأوا مصرع قائدتهم، فراحوا ينشدون الفرار والنجاة، إلا أن «مردوخ» تناول شبكته وأطلقها عليهم ثم استلَّ سلاحه وراح يصبُّ عليهم غضبه فقتل من قتل وأسر من أسر.. وشد زعيمهم «كينجو» في الوثاق وانتزع منه لوح القدر فوضع عليه ختمه وعلقه على صدره..

أمر «مردوخ» أتباعه بحراسة الأسرى ثم عاد يتأمل جثة «تيامات».. راح يتفكر قليلًا ثم حسم أمره فشق جسدها (كما تُفتَح المحارة) فشد نصفه ورفعه فجعله السماء وجعل فيها مواضع النجوم والكواكب وعيَّن لكل إله كوكبه.. وحدد أيام السنة وشهورها وخلق الشمس والقمر لينيرا السماء.

أما النصف الآخر فبسطه وجعله أرضًا وجعل من ثديي «تيامات» الجبال ومن عينيها فجَّر نهرَي دجلة والفرات..

وأهدى لوح القدر لـ«آنو»، رب السماء، وعيَّن لكل إله مهمته، فـ«إيا» رب الماء والحكمة، و«شمش» رب الشمس.. وهكذا..

ثم التفت إلى أسراه، فراح الآلهة القدامى يستعطفونه فعفا عنهم عدا «كينجو» الذي كان محبوسًا وحده، ثم نظر إلى المسوخ والوحوش

فحوَّلها إلى تماثيل من حجر ووضعها على ضفة النهر لتبقى شاهدًا على انتصاره..

وأخيرًا، قرر «مردوخ» أن يخلق مدينة مقدسة عظيمة، فخلق «بابل» وباركها..

لكن الآلهة سألوه:

ـ قد خلقت الأرض وعينت لنا مواضعَ في السماء، فمن سيعمر الأرض؟ ومن سيخدم الآلهة؟

فتفكَّر قليلًا ثم قرر خلق الإنسان..

فأحضر «كينجو» وذبحه وصفَّى من دماء شرايينه على الطين، ثم عجن الطين وخلق منه البشر..

وقرر الآلهة تأكيد مبايعتهم لـ«مردوخ» كبيرًا عليهم، فاجتمعوا وبنوا له «الإيزاجيللا»، وهو قصره أو معبده الأكبر في بابل، ثم أقاموا احتفالًا رفعوا فيه «مردوخ» على العرش وراحوا يطلقون عليه أسماءه الخمسين المقدسة التي يعبر كل منها عن واحدة من صفاته وأوجه عظمته..

وهكذا تنتهي ملحمة «إينوما إيليش» أو «عندما في الأعالي»، التي أنصح القارئ بقراءة نصها الكامل المترجم عن الألواح القديمة في كتاب «مغامرة العقل الأولى» للأستاذ فراس السواح.

(ملحوظة: غالبًا فإن الإله «مردوخ» هو «كبير الآلهة» المعاصر للنبي إبراهيم، المنتمي للحضارة البابلية).

■ ■ ■

في شهر أبريل من كل عام، كان البابليون يحتفلون برأس السنة البابلية، وفي اليوم الرابع من الاحتفالات كانت تُجرى «تمثيلية» لمعركة «تيامات» و«مردوخ» يترأسها الملك والكهنة وينشد فيها جموع الشعب.. كان هذا الطقس بمثابة مساعدة لقوى «مردوخ» الرامية لإقرار النظام والاستقرار الكوني أن تتمكَّن من هزيمة قوى «تيامات» الساعية إلى الفوضى دومًا.. في إشارة ضمنية لإيمان البابليين بفكرة الصراع الدائم بين الخير، متمثلًا في النظام، والشر، متمثلًا في الفوضى.. فالمعركة لم تنتهِ بمقتل «تيامات» وانتصار «مردوخ»، إنما قد بدأت، فالفوضى وانحلال العالم وانهيار النظام هي أفكار إن كانت «تيامات» تمثلها فإنها ليست الممثل الوحيد لها..

والأسطورة التي تم تدوينها كتابةً بالتزامن مع صعود حُكم الملك «حمورابي»، مؤسس دولة بابل، تُعتبر بمثابة صدى لواقع تاريخي هو حالة التفكُّك التي سادت العراق القديم قبيل سيطرة «حمورابي» على مقاليد الأمور وفرضه الولاء له ثم تقديمه تشريعاته المنظمة للحياة في المملكة والمشهورة باسم «شريعة حمورابي».. فالماضي الفوضوي هو «تيامات»، والحاضر المنظم الخاضع للملك هو «مردوخ».. وما الملك الأرضي ـ «حمورابي» أو غيره ـ سوى ممثل للإله وإرادته على الأرض، وما أعداء الملك سوى ممثلين لـ«تيامات»..

كذلك فإن تقدُّم «مردوخ» على سائر الآلهة يمثل صعود بابل، فكما سلف الذكر، كان العراق القديم يعيش نظام «المدينة الدولة»، فكانت المدن الكبرى تتداول عملية السيطرة، وقد حان دور بابل، فكان من الطبيعي أن يتقدم ربها على سائر آلهة باقي المدن.. بل أن تنتهي الأسطورة بتأسيسه المدينة، فكأنما كان هدف تلك الأحداث كلها أن تتوَّج الدنيا بخلق بابل..

ولكن ما سر أن يكون الشر متمثلًا في صورة «الأم الكبرى»؟

ثمة تفسيرات متنوعة للأمر من عدة زوايا؛ فمن ناحية تاريخية تعبر تيمة «الأم الكبرى الشريرة» عن انتقال العالم من النظام الأمومي (ماترياركي) إلى النظام الأبوي (باترياركي)..

فالعالم القديم كان يخضع أولًا للنظام الأمومي، وهو نظام قائم على أن المرأة هي عمود البيت ومحور العشيرة، فبينما يتولى الرجال أمور القتال والصيد وما إلى ذلك، فإن المرأة هي التي تنظم الأسرة والعشيرة وتديرها.. وهي التي تتولى القضاء، ويُنسَب أبناؤها لها، بل ويكون الميراث للأقارب من جهة الأم، ويعيش الزوج في عشيرة امرأته.. بل وكانت الألوهية الكُبرى أنثوية..

فلمَّا وقع ما يوصف بـ«الانقلاب الذكوري» وأصبح الرجل هو محور السلطة الأسرية والسياسية، ارتبط تفسير ذلك في الوجدان الجمعي للبشر بسوء تصرف المرأة الحاكمة وعجزها عن تحمل المسؤولية.. ولم يقتصر الانقلاب على الحياة الدنيوية، بل تجاوز ذلك إلى الحياة الدينية، فتراجع دور الإلهة الأنثى لمراتب متأخرة مقابل تقدم الإله الذكر..

والـ«إينوما إيليش/ عندما في الأعالي» هي الملحمة الأكثر تعبيرًا عن هذه السطوة الذكورية بشكل مباشر جدًّا؛ فالأم الكبرى الإلهة قد طاش لُبُّها وغابت حكمتها وأساءت التصرف إلى حد تحولها إلى تهديدٍ لحياة أبنائها فتصدى لها الذكر العاقل الحكيم القوي وهزمها وأقام العالم وأقر السلام.. وهي قصة تتكرر في أكثر من أسطورة، حتى إن ثَمَّةَ قصة قريبة من ذلك عند قبائل الكيكويو في أفريقيا، أي أنها تيمة عابرة للحدود والثقافات!

كذلك فثَمَّةَ بُعد تاريخي آخر كثيرًا ما يتكرر في تواريخ الشعوب،

هو صراع الأجيال؛ فالأسطورة تعبر عن صراع الأجيال بين جيل عتيق يرفض التغيير والتجديد ويريد فقط الاستكانة للمعتاد والحياة الرتيبة، وجيل جديد شاب ينزع إلى الابتكار وخلق الجديد.. وهي نفس قصة الدول الناشئة مع الدول المضمحلة، فبينما تمثل الدول العراقية القديمة شيخوخة هذا البلد، تمثل «بابل حمورابي» شبابها الباحث عن حياة جديدة أكثر تقدمًا..

ولأن علماء النفس يفسرون الأساطير من زاوية التحليل النفسي، فمنهم من يفسرها بأنها تمثل استقلال الطفل عن أمه ورغبته في التحرر من سطوتها.. وحتى الآن فإن المجتمعات الشرقية تنفر من فكرة خضوع الرجل لأمه وتطلق عليه باستهجان «ابن أمه».. فصراع «مردوخ» مع «تيامات» وهزيمته لها هي تعبير عن هذه الفكرة..

وثمة عناصر ثلاثة في الأسطورة علينا الانتباه لها: جسد «إبسو»، جسد «تيامات»، ودماء «كينجو»..

فـ«إيا» قد بنى قصره على جسد الإله القتيل «إبسو».. و«تيامات» شُق جسدها وخُلقت منه السماء والأرض، و«كينجو» سُفِكَ دمه وعُجِنَ بالطين لخلق الإنسان.. تتكرر هنا التيمة نفسها التي ذكرناها في قصة «سِت» و«أوزيريس» وهي «استخدام جسد الإله في الخلق أو مباركة الخلق»، وسنراها لاحقًا في قصص أخرى..

الأسطورة هنا تعبِّر عن فكرتين، الأولى هي: «خروج الحياة من الموت»؛ فالإنسان القديم قد آمن بفكرة أن الموت والحياة يدوران في حلقة مفرغة فيؤدي كل منهما للآخر، فكي تكون حياة لا بُدَّ من موت.. فكان «أبسو» و«تيامات» و«كينجو» بمثابة قرابين للموت ليهبوا العالم الحياة.. فهم ليسوا فقط قتلى تلك الحرب بين الفوضى الأولية والنظام

الناشئ، إنما هم يؤدون بموتهم دورًا أهم مما كان لهم بحياتهم، فضلًا عن أن كلًّا من «أبسو» و«تيامات» قد أنهيا دوريهما في القصة بتزاوجهما وتناسل نسلهما.. فكان لا بُدَّ من موتهما لتستمر الحياة، بشكل أشبه بحياة بعض الحشرات التي تقتل الذكر بعد تلقيحه الأنثى باعتبار أنه قد أنهى سبب وجوده..

الفكرة الثانية هي: «قدسية العناصر المؤسسة للكون».. فالماء هو جسد إله قتيل، والسماء والأرض كذلك، بل ودماء البشر.. وربط هذه العناصر بالألوهية يجعل لها مكانة أعلى في الوجدان الجمعي.. لو أن القارئ يريد أن تكون الفكرة أكثر وضوحًا فسأعطيه مثال نفخ الله من روحه في «آدم» بعد خلقه.. وعلاقة ذلك بمكانة «الروح» في الوجدان الجمعي للمسلمين بغض النظر عن التفسير الديني لمفهوم «الروح».

ولا ننسى البُعد الرمزي للأسطورة؛ فـ«تيامات» هي «المياه المالحة» و«إبسو» هو «الماء العذب»، وترويض الماء وتطويعه لحياة البشر كان من أهم تحديات العراقي القديم، فالماء يمكنه أن يكون صديقًا كما يمكنه أن يكون عدوًّا، حسب الظروف، وليلاحظ القارئ ارتباط «إيا»/ الحكمة بالسيادة على الماء العذب، وهو معنى مهم لشعب تتوقف حياته على حكمة إدارة الريِّ، وكذلك رمزية هزيمة القوة والإقدام للماء المالح، أي التعامل مع جور البحر وملوحته على اليابسة..

واستمرارية طقوس تمثيل الملحمة تعبِّر عن نضج نظرة البابليين للصراع بين الخير والشر؛ فالشر لم ينتهِ بمقتل «تيامات»، إنما قُتِلَ ممثله، لكنه يبقى تهديدًا قائمًا أبدًا، فبأداء المتعبدين لـ«مردوخ» طقوس الـ«إينوما إيليش» في كل عيد إنما هم يؤكدون بشكل ضمني «عهدًا» مع إلههم أنهم يدركون أن الخطر مستمر وأنهم على الولاء له أبدًا في معركته..

وهي فكرة موجودة في أديان كثيرة: أن ثَمَّةَ طقسًا يجب أن يستمر وإلا انتصر الشر، فعلى سبيل المثال: يؤمن كثير من المسلمين أن إهمال قراءة سورة الكهف في يوم الجمعة يعني نجاح شعب يأجوج ومأجوج في نقب السور الذي يعزلهم عن العالم.. كذلك آمن البابليون أن استمرارهم في إحياء المعركة الملحمية المذكورة هو تدعيم للنظام والاستقرار في مواجهة الفوضى التي تحاول السيطرة من جديد..

ولكن لم يكُن الشر عند البابليين متوقفًا على «تيامات»/ الفوضى، بل كان ثَمَّةَ شر آخر إلهي، والغريب أنهم قد وجدوا له مبررًا «أخلاقيًّا»..

وهذا ما سنراه الآن..



«مردوخ» يحارب «تيامات» المتخذة هيئة التنين

IV

«إيرا».. رب الطاعون
حامل الشر والرحمة!



انتصر «مردوخ» وخلق العالم وأسس «بابل»، لكن الخطر على الرغم من ذلك لم ينتهِ..

فـ«إيرا»، إله الطاعون والخراب، ليس راضيًا، فلطالما عربدت في نفسه الرغبة لإشاعة الموت والفوضى في أنحاء الأرض..

وهو لا يرى أن عظمة الأرباب تكون فيما يُنعمون به من خيرات على البشر، إنما ينبغي أن يذوقوا البلاء من حين لآخر حتى يلمسوا قدرة هؤلاء الأرباب على البطش والتدمير..

تبدأ القصة بـ«إيرا» يجلس مسترخيًا في قصره وقد ركن إلى الدعة والراحة، فيخاطبه سلاحه «سيبي» ذو الرؤوس السبعة المدمرة، ويقرعه بقسوة لائمًا إياه أنه قد صار ـ على حد قول السلاح ـ «زاحفًا كطفل مريض، جبانًا في مواجهة الحرب، مسترخيًا كالنساء»، ويحرضه أن ينهض فيبرز قوته لتخشاه الآلهة والملوك والعفاريت، ولتردد الجبال والبحار أنباء بطولته في إفناء الأحياء..

تشعل كلمات «سيبي» الحمية في عروق الإله الشرير فيهب أمرًا بمثول وزيره «إيشوم» بين يديه..

يمثل «إيشوم» متلقيًا كلمات سيده الذي يخبره بقراره أن يقتحم الدروب فيحيلها خرابًا ويهلك من فيها.. يُراع الوزير لأمر الإله فيحاول عبثًا إثناءه عن رغبته المدمرة..

يصيح «إيرا» بوزيره أن يصمت ويصدع بما أُمر، وأن يسير معه ليشهد اجتياحه العالم.. يشرد الإله متخيلًا الهول الذي ينتظر البشر على يديه فتنتفخ أوداجه فخرًا وهو يقول: «أنا في السماء فأس وحشية.. أنا في الأرض أسد هصور.. أنا في البلاد ملك فوق الجميع، وأنا المقدم والجليل بين الآلهة».

ثم يستدركُ فيردف أنه لم ينوِ هلاك البشر إلا لأنهم لم يعودوا يخشونه ولا يطيعون تعاليم «مردوخ» كبير الآلهة، فما إفشاؤه الموت بينهم إلا عقاب استحقوه جزاءً لما قدمت أيديهم، وردعًا لهم عن الاستمرار في الغيّ..

يلزم «إيشوم» الصمت وقد أدرك عبث محاولاته رده سيده عمّا نوى، ولكنه يفكر: و«مردوخ»؟

تدور الفكرة نفسها في رأس «إيرا»: هل يرضى «مردوخ» بإهلاك البشر وتدمير حضارتهم وخراب مدينتهم بابل وسائر المدن وهو ـ «مردوخ» ـ الذي أقر السلام بينهم وجعل لهم الأرض مستقرًّا آمنًا؟

■ ■ ■

يفكر «إيرا» فيما يقنع به «مردوخ» أن يفسح له المجال للقيام بـ«عمله».. أخيرًا تطرق أبواب تفكيره خدعةٌ فيبتسم ظفرًا ثم يمضي إلى «الإيزاجيللا»، قصر كبير الآلهة..

في «الإيزاجيللا» يمثل «إيرا» بين يدي «مردوخ» فيخاطبه متلطفًا أنه يشفق من أن الهالة النورانية المحيطة برأسه قد خبا نورها وأن عباءته الإلهية قد ارتثت وأن تاجه لم يعد يلمع وأن حمله هموم البشر قد أظهر الإرهاق عليه، فلماذا لا يركن إلى الراحة ويرتحل إلى حيث يستجم فيتجدد شبابه وتكتسب هيئته جلالًا يليق بها فيعود أكثر بهاءً وهيبة؟

يرمق «مردوخ» «إيرا» في شك؛ فهو يعلم أن هذا الإله المشاغب يتوق لأن يغيب كبير الآلهة فينهار انضباط الكون وتطل الفوضى برأسها.. وكأنما قرأ «إيرا» شكوك «مردوخ» فيحني رأسه تزلفًا ويقول له بلهجة مطَمْئِنَة إنه سيكون خير نائب عنه في الحفاظ على العالم إلى حين يستجم

هو ويجدد نشاطه وقوته.. وأخيرًا بعد إلحاح يوافق «مردوخ» على طلب «إيرا» ويوليه شأن سيادة الكون نائبًا عنه..

ويرتحل «مردوخ»، ويخلو العالم لـ«إيرا» يعربد فيه كيف يشاء..

ومن مستقره الجديد يستدعي رب الطاعون والأوبئة وزيره «إيشوم» فيلقي عليه أمره الرهيب: سأقتحم الدروب، سآمر الشمس أن تخفي أشعتها، وأغطي بالظلام وجه النهار.. ومن ولدته أمه في يوم ماطر سأجعلها تدفنه في يوم نحس، ومن ارتحل للسفر في طريق مروية مخضرة سأجعله يرجع من طريق غطاها التراب والرمال.. سأضع نهاية للحياة فأحيل الدور ركامًا، وسأدمر المدن وأحيلها خرابًا، وسأهدم الجبال وأهلك القطعان، وسأزلزل البحار وأفرغها من خيرها وسأقتلع الأشجار والزروع وأسحق كل شيء حي!

■ ■ ■

وبينما أهل بابل يمارسون أنشطة حياتهم اليومية مطمئنين، إذ يباغتهم «إيرا» مقتحمًا دروبهم ناشرًا الوباء بينهم.. لم يكتفِ بنشر أمراض الجسد، بل راح ينثر أمراض النفوس فراحوا يتقاتلون ويتباغضون إلى حد أن رفع بعضهم السلاح على بعض، وأشاع بينهم عقوق الأبناء وبغض الجيران والعداوة، حتى إن من لم يهلك بالمرض هلك بالسيف..

وراح «إيرا» ينظر ما قدمت يداه راضيًا حتى إذا ما اطمأن لهلاك بابل شد رحاله منطلقًا إلى مدينة «إيريك».

و«إيريك» هي مدينة عباد «عشتار» ـ ربة الخصوبة والحب الجنسي ـ حيث تعيش العاهرات المقدسات اللاتي وهبن أجسادهن لإشباع رغبات المتعبدين للإلهة، ويعيش إلى جوارهن المخنثون والمخصيون

الذين ضحوا بأعضائهم التناسلية على مذبح «عشتار»..

وكـ«بابل»، دوهمت «إيريك» من قِبَل «إيرا» الذي راح سيف هلاكه يحصد الأرواح ويدمر البيوت والمعابد محيلًا إياها إلى خرائب لا تجد حتى غربانًا تنعق على أطلالها..

وبينما راح «إيشوم» ـ وزير رب الطاعون ـ ينظر بحسرة للخراب الذي اجتاح العالم، كانت علامات عدم الرضا تعلو وجه «إيرا»، فما أشاع من دمار وهلاك لم يشف غليله بل زاده تعطشًا للمزيد..

وارتاع «إيشوم» إذ صكت مسامعه كلمات «إيرا» من جديد:

ـ سأظهر المزيد من الفتك والانتقام! سأسلب روح الابن ويدفنه أبوه، ثم أسلب روح الأب فلا يجد من يدفنه.. ومن بنى لنفسه بيتًا سأجعل هذا البيت قبرًا له وأدمره عليه!

ثم أردف بشبق جنوني:

ـ سأسحق كل عظيم وأصرع أرضًا كل ضعيف! سأقتل سيد القوم فيصيرون إلى حيرة من أمرهم! سأهدم البيوت والجدران وأمحق ثروات المدن! سأخلع الصواري لتضل السفن سبيلها، وأمزِّق الأشرعة فلا تصل سفينة إلى شواطئها! سأسحق الجبال وأمزِّقها وأجفف صدور الأمهات ليموت الرُضَّع، وأجفف الينابيع وأوقف جريان الأنهار وأطفئ أنوار الكواكب والنجوم وأتلف جذور الأشجار.. ثم أمضي إلى مجمع الآلهة حيث لن يقف في وجهي أحد!

علت شفتا «إيرا» ابتسامة منتشية وهو يشرع فيما نوى، إلا أن «إيشوم» يستجمع شجاعته فيتقدم منه قائلًا:

ـ أيها الرب الجليل.. قد قتلت التقي كما قتلت الضال، وأهلكت

الخاطئ كما أهلكت الطاهر.. ومع ذلك ترفض أن تستريح.

على الرغم من كونها كلمات يائسة قالها «إيشوم» وهو لا يتوقع أن يصغي إليها سيده، فإن «إيرا» قد صمت متفكرًا فيها.. ثم أخيرًا قرر أن يرفع سيف نقمته عن البشر، وأن يعفو عمَّن تبقى منهم.. ربما لإدراكه أنهم إن هلكوا جميعًا فلن يجد من يرهب جانبه ويتضرع إليه..

تفكر «إيرا» في نصح «إيشوم» ثم أخيرًا قال إنه قد قرر رفع الهلاك عن بني الإنسان، بل وأظهر كرمًا شديد الغرابة عليه فأعلن أنه سيبارك «بابل» وأهلها فيجعلهم يُخضعون أعداءهم ويحيل قلتهم كثرة ويُخضِع لهم آلهة المدن المنافسة، ويرسل بركته على الأرض فتخصب وعلى القطعان فتتكاثر وعلى معابدهم فتشع كالشمس وعلى دجلة والفرات فيفيضان بالخير، وسيطيل أيام «بابل» فتعلو فوق الجميع..

ويتنفس «إيشوم» الصعداء..

■ ■ ■

وتنتهي الأنشودة بذكر راويها أنه إنما كتب ما أوحي إليه في نومه..

وتبلغ قصيدته مسامع «إيرا» فيُبدي إعجابه بها ويلقي قراره أن يُغمر الخيرات من يقدسها وأن يُلعَن من يهملها، وأن يعلو شأن من يقدس اسمه بها من الملوك، وأن يُحصَّن حافظها من القتل، وأن البيت الذي توضع فيه سيكون آمنًا أبدًا من غضب «إيرا» وأتباعه..

وهكذا تنتهي قصة البلاء الرهيب الذي جلبه «إيرا»، رب الطاعون والأوبئة، على العالم..

■ ■ ■

لو يذكر القارئ فإننا في الفصل الثاني قد رأينا ـ في قصة غضب «إنليل» على البشر ـ أن الإله «إيا» قد نصح الملك «أتراحاسيس» أن يأمر قومه بتمجيد إله الطاعون ليرفع عنهم البلاء..

وكذلك تنتهي قصة «إيرا» بأمره بني الإنسان بتعظيمه اتقاءً لشره ورغبة في إعفائه إياهم من الابتلاء..

فهذه النقطة تعكس التفكير النفعي البحت لأهل العراق القديم في علاقتهم بآلهتهم؛ فربُّ الطاعون لم يُنزل بهم نقمته لسوء أخلاقهم ولا لشرورهم فيما بينهم، إنما فعل ذلك لرغبته أن يرهبوا جانبه وأن يقدموا له الخضوع والولاء أسوةً بغيره من الآلهة..

بل إن الأنشودة تُصَرِّح بأن أهل «بابل» لم يوجد بينهم التباغض والاقتتال ـ وهما من شرور البشر ضد بعضهم بعضًا ـ إلا بفعل «إيرا»..

و«إيرا» نفسه برَّر فعله بأنه يريد أن يرد للآلهة هيبتها، فكأنما يقول إن الإله لا يهابه العابدون له إلا إذا أظهر سوط غضبه كما يُظهر علامات نعمته.. فقد طبق قانون «العصا والجزرة» للبشر حين أظهر لهم هول غضبه، ثم بعدما أتى عليهم أظهر لهم رحمته ونعمته وبركاته بل وأبدلهم بعد النقمة بركة وعلوًا..

إذًا فهو يمثل هنا الطبيعة المزدوجة للإله الذي يمد يدًا بالخير ويرفع بالأخرى السيف..

ولو لاحظ القارئ، فبينما وقعت النقمة على البشر في قصة «إنليل» بفعل كبير الآلهة نفسه، فإن الأسطورة البابلية قد جعلت الشر بيد إله آخر ناقم ولم تنسبه لـ«مردوخ» تنزيهًا له أن يتقدم بالشر لعباده، في رسالة ضمنية أن إله البابليين ـ أصحاب السطوة آنذاك ـ هو إله طيب بعكس إله السومريين ـ الخاضعين آنذاك لـ«بابل» ـ ونستشف من ذلك أن

الأنشودة إنما هي بمثابة محاولة لتفسير ذكي لحدث تاريخي حقيقي هو اجتياح الطاعون والفوضى للمملكة البابلية، ولما كان «مردوخ» لا يأتي إلا بالخير فقد كان على الكهنة أن يقدموا للناس تفسيرًا يعفي كبير الآلهة من المسؤولية عن ذلك..

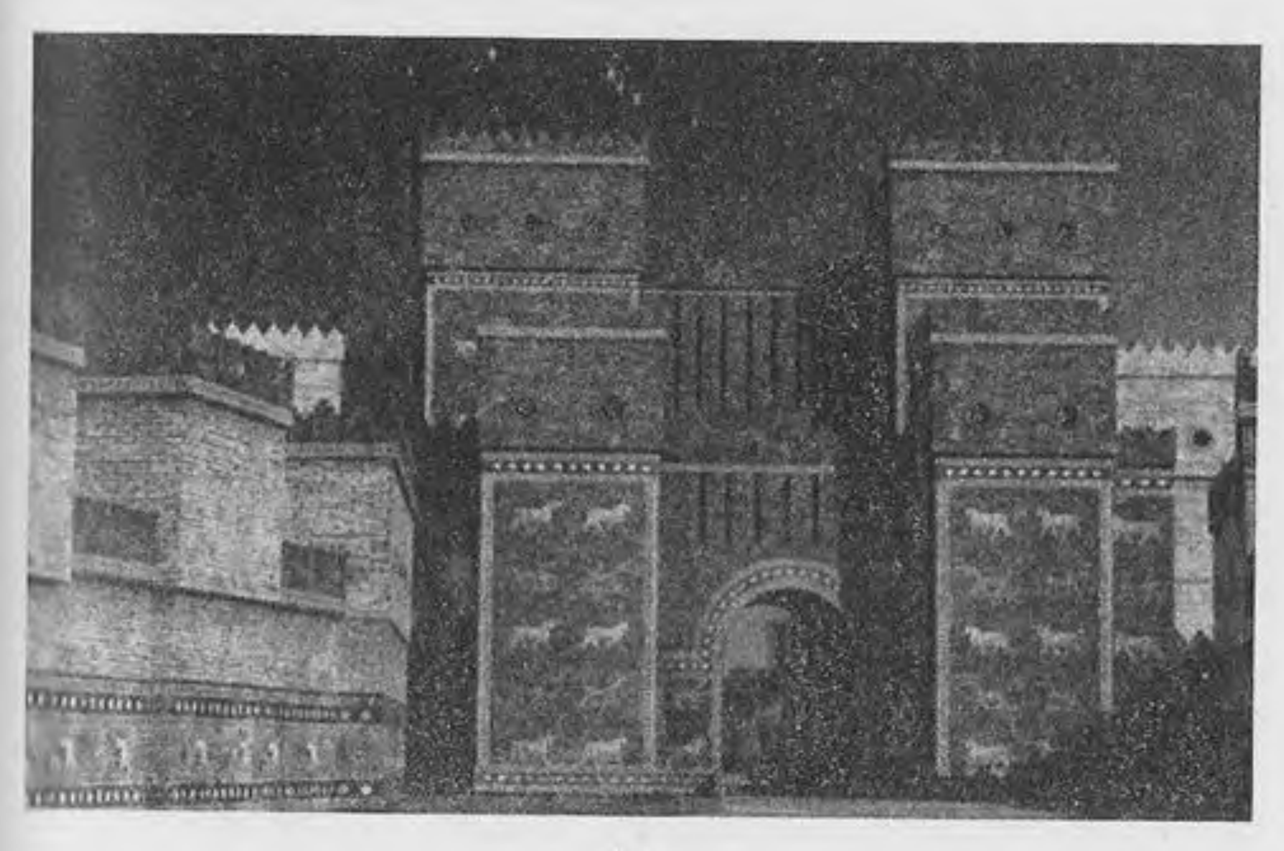
بل تزيد الأنشودة على ذلك فتصوِّر في النهاية نقمة «إيرا» بأنها تحمل بين طياتها الرحمة، فلولا اجتياحه البلاد بالخراب والدمار ما كان بعد ذلك ليخفض للبشر جناح الرحمة فيباركهم ويخص «بابل» بالخير فيُعلي شأنها ويزيد خيرها.. في محاولة لفلسفة مغزى تعرض الإنسان لكوارث الطبيعة..

تعالوا نحاول استخلاص بعض التفاصيل التاريخية من بين سطور الأسطورة؛ فنرى أن مملكة «بابل» قد اجتاحتها الفوضى والوباء والقحط، ثم انقشع البلاء واستطاعت سلطتها أن تستعيد النظام وأن تُخضِع ما تمرَّد عليها من المدن.. فيتفكر الكهنة في وسيلة لتقديم تفسير غيبي لما جرى يحفظ لكلٍّ من المملكة والألوهية ماء وجهيهما، فتخرج هذه الأنشودة في شكل وحي أنعمت به الآلهة على رجال الدين ليقدموه تفسيرًا منطقيًا ـ بمعايير هذا العصر ـ للرعية..

ولنلاحظ كذلك أن «إيرا» لم يكُن ليتمكن من تنفيذ تدبيره إلا في غياب «مردوخ»، فكأنما ترسل ملوكية بابل رسالة ضمنية لرعيتها أنها هي التي تحفظ البلاد من الفوضى والخراب، فإذا غابت سلطتها ـ المرمز لها هنا في شخص «مردوخ» ـ حل الدمار وانفرط عقد الحضارة..

وما في طيات الأنشودة من ذكاء لا يقف عند مجرد تفسير حدث وقع في الماضي، بل إنه يجعله يصلح ليكون تفسيرًا مستقبليًا جاهزًا لكل ما قد يطرأ من حوادث مأساوية!

وهكذا تحقق أنشودة «إيرا» التوازن المطلوب بين تفسير الكوارث، وعدم نسبها لإله بابل، وتحصين آلهة البابليين من الاتصاف بالشر، وتدعيم الملوكية البابلية بغطاء ديني قوي، هذا كله في آن واحد..



بابل

V

«موت».. الذي يقتل الحياة لكي تستمر



بينما ترتبط الحضارات النهرية ـ مثل مصر والعراق ـ بجريان الأنهار واعتدالها بحيث لا تفيض فتدمر ولا يهبط منسوبها فتظمأ الأرض، ترتبط الحضارات البحرية والجبلية ـ مثل فينيقيا واليونان ـ بالأجواء وما تجود به السماء من أمطار، المصدر الرئيسي للريّ..

لهذا بينما كان في مصر «أوزيريس» و«حابي» ـ رب النيل ـ يرعيان الزرع والخصب، وفي العراق كان «أنكي» السومري و«إيا» البابلي ربَّين للأنهار والمياه العذبة، كان الإله الطيب المعطاء في فينيقيا ـ لبنان حاليًّا ـ هو «بعل»..

«بعل شميم» أي: «بعل السماوي».

«بعل عليان» أي: «بعل العالي» (و«عليان» ما زالت تعني «العالي» في بعض لهجات الشام)..

«بعل»، حفيد «إيل»، خالق الكون والرب الأعلى، الذي ينظر العالم من مقعده العالي في السماء وبصحبته زوجته «عشيرة»، المشهورة بلقب «الإيلات».

«بعل»، ابن «داجون»، رب القمح والحصاد..

«بعل» هو العاصفة الممطرة والخير الهابط من السماء وخضرة الأرض ونباتها.. لهذا عبده الفينيقيون وركنوا إليه في الدعاء؛ لعلمهم أنه هو من يرعى الأرض ويحنو على البشر.. ومعه زوجته وحبيبته «عناة».. ولهما من الأبناء «عثتر»، ومن البنات «طلة»، ربة الندى والمطر، و«بدرية»، ربة القمر، و«أرصة»، ربة الأرض..

ولكن، لم يكُن لرب الخيرات أن يحكم بلا خصم يشاكسه أو عدو يحاول النيل منه، وقد كان لـ«بعل» عدوان أساسيان: «يَم»، رب المياه،

و«موت»، رب الموت والقحط والجفاف.

■ ■ ■

العدو الأول كان «يَم» ابن «إيل»، رب المياه والبحار..

كان «يم» ينفس على «بعل» المكانة التي تبوأها، فقرر أن ينال منه وأن ينزله عن مرتبته..

استدعى «يم» رسولين من رجاله وأرسلهما إلى مجلس الآلهة.. أمرهما ألا يسجدا عند قدمي «إيل» حين يدلفان إليه، وألا يركعا أو يقدما علامات الاحترام للآلهة، بل أن يلقيا رسالة سيدهما بقوة وصرامة..

صدع الرسولان بما أمرا فتوجها من فورهما لمجلس «إيل» والأرباب.. وإذ دخلا المجلس وجدا «بعل» واقفًا إلى جوار جده الرب الأكبر فلم ينحنيا ولم يسلما على أحد..

ويبدو أن الأرباب ـ حتى «إيل» نفسه ـ كانوا يهابون «يَم» وسطوته.. فعلى عكس المفترض، حنى الآلهة رؤوسهم لرسولَي رب الماء..

غضب «بعل» لما رأى من إهانة للأرباب فراح يوبخهم لتصرفهم ويأمرهم برفع رؤوسهم.. ثم توجه إلى الرسولين وأمرهما أن «هاتا ما عندكما من سيدكما»..

قرأ الرسولان رسالة «يم»، كان يأمر «إيل» ومجلس الآلهة أن يسلموه «بعل» ليكون عبدًا خاضعًا له هو وأتباعه وأن يورثوه ـ «يم» ـ ممتلكات «بعل» وسلطته..

وإن كان «إيل» جد «بعل» لأبيه، فإنه كان أحيانًا يستسلم للغيرة من حفيده الذي استولى بحب الناس له على مكانته، فلم يحاول الجد

أن يجادل عن «بعل»، بل سارع وأخبر الرسولين موافقته على تسليم «بعل» لخصمه وهو يأمل أن يذكر له ابنه رب الماء هذا الصنيع فيعيد له منزلته..

لكن «بعل» لا يخضع لهذا الحكم المهين، فيثب على الرسولين مستلًّا سلاحه لقتلهما، إلا أن الأرباب يتدخلون ويحولون دون ذلك ويذكرونه بأن العُرف يحرِّم قتل الرسل..

فيرجع «بعل» عنهما، لكنه يأمرهما أن يبلغا «يم» رغبة «بعل» في منازلته..

وفي يوم المبارزة، يتقدم «بعل» ومن ورائه إلهان خبيران بصنع الأسلحة: «كوثر» و«حاسيس»، ويظهر «يم»، مزهوًّا بقوته سادًّا الأفق ببنيانه.. فيناول «كوثر» الرب «بعل» سلاحه وهو يتمتم بتعويذة:

ـ لتكُن وليكُن اسمك العاصف.. اعصف بـ«يم».. ادفع به عن عرشه.. ادفعه عن كرسي سيادته.. وسوف تنطلق من يد «بعل» وكالصقر تندفع من بين أصابعه فتصيب منكبي «يم»!

ويلقي «بعل» بسلاحه على عدوه، ويندفع السلاح بقوة الإله والتعويذة فيشق الهواء ويصيب ما بين منكبي رب المياه..

لكن «يم» لا يهتز كأنما لم يُصِبْه شيء، ويستمر في اندفاعه مبتغيًا سحق «بعل» وإطاحته..

فيسارع الرب الصانع الثاني «حاسيس» ويضع سلاحه بين يدي «بعل» متمتمًا:

ـ لتكن وليكن اسمك الصاعق.. اصعق «يم» على عرشه.. ادفع به عن كرسي سيادته.. ولسوف تنطلق من يد «بعل» وكالصقر تندفع

من بين أصابعه.. اضرب رأس «يم» ولتكن إصابتك في المنتصف بين العينين!

ويلقي «بعل» بسلاحه الصاعقة، فيصيب ما بين عيني «يم» الذي يترنح ثم يتهاوى صريعًا، فيسارع «بعل» بالإجهاز عليه، بل وابتلاعه..

وهكذا ينتصر «بعل شميم» أو «بعل عليان» على طاغية المياه الطامع في السيادة على الأرض..

■ ■ ■

إن كان الأرباب قد انقسموا بين فرح بانتصار «بعل» وحاسد له إلا أنهم جميعًا ـ حتى «إيل» ـ قد أظهروا البهجة بقضائه على «يم»..

أقامت «عناة» وليمة حافلة للأرباب، أعقبها انتقال «بعل» إلى مقره الإلهي وبناؤه بيتًا وهيكلًا له بأمر جده «إيل» ـ الذي لم يفعل ذلك إلا بعد أن حوصر بتهديدات «عناة»، زوجة «بعل»، أن تبطش به إن لم يأمر ببناء هيكل لزوجها ـ وأصبح «بعل» سيدًا في السماء بين الآلهة ومحبوبًا في الأرض بين البشر لإغداقه عليهم من الخيرات..

لكن هذا الحال لم يكُن ليُرضي أعداء «بعل»، فإن كان الزرع والخصب يسعدان البشر، فإنه لا يرضي شياطين الصحارى، وبالتأكيد لا يرضي «موت»، رب الموت والجفاف والحرارة والقحط والعالم السفلي..

ومثل «يم»، كان «موت» ابنًا لـ«إيل».. وكان مِمَّن يحسدون «بعل» ويضمرون الشر له..

وذات يوم، رُوِّعت الآلهة بصوت «موت» يجلجل:

ـ أنا وحدي من سيحكم فوق جميع الآلهة! من سيأمر الناس والآلهة!

ويسيطر على جميع من في الأرض!

انتظر الجميع رد فعل «بعل» على هذا التمرد الصريح.. إلا أنه رأى أن يستنفد وسائل السِّلم قبل حمل السلاح..

اختار اثنين من اتباعه وجعلهما رسولين منه إلى «موت».. أمرهما أن يتقدما ثم يرفعا الجبل ويهبطا من تحته إلى أعماق العالم السفلي حتى يبلغا مدينة «موت» ويمثلا أمام عرشه، ولكن على ألا يقتربا كيلا يلتهمهما.. ثم يقدما له فروض الاحترام والتقدير ويبلغاه تحية «بعل» له، وأنه يريد أن يتعايشا في سلام وألا تكون حرب بينهما..

وبالفعل يصدع الرسولان بما أُمرا، ويبلغان «موت» رسالة سيدهما..

لكن رب الموت يرفض عرض السلام ويقرر البدء بالقتال فيرسل تنينه «لوتان» ذا الرؤوس السبعة ليهاجم «بعل».. فيواجهه هذا الأخير ويسحقه بسهولة مذهلة..

هنا يستشيط «موت» غضبًا ويقرر أن يدهم «بعل» بنفسه.. وللأسف فإن الألواح التي تحمل القصة كانت ناقصة فلم تبيِّن ما التهديد الذي أطلقه «موت» فجعل «بعل» يقرر فجأة أن يستسلم له.. ولكن الأرجح أن «موت» ـ كما نستنتج من سطور القصة ـ قد فغر فاه فصارت شفته العليا في السماء والسفلى في الأرض وكاد يبتلع العالم كله، ففضَّل «بعل» أن يضحي بنفسه ليجنِّب الأرض الدمار..

بعث «بعل» رسولًا إلى «موت» يخبره أنه قد قرر أن يسلمه نفسه.. فتنتفخ أوداج «موت» ويأمر «بعل» بغطرسة أن يأتي إليه ويرفع الجبل فيهبط من تحته إلى أعماق العالم السُفلي كي يكون مع الأموات.. وبالفعل يتوجه «بعل» طائعًا فينفذ أمر رب الموت..

لكنه قبل أن يهبط إلى العالم السُفلي، يضاجع «عناة» سبعًا وسبعين مرة، حتى يضع فيها بذرته لتستمر الحياة من بعده..

ثم يهبط «بعل».. وفي الصباح يجد بعض المارة جثته ملقاة على سفح الجبل..

يرى «إيل» جثة حفيده، فتنتابه رقة على الرغم من سابق غيرته منه.. فيهبط الإله الأعلى للأرض ويركع لاطمًا وجهه وملقيًا التراب على رأسه وهو يشق ثيابه ويصرخ بأعلى صوته.. وكأنما تلاشت غيرته من حفيده حين رآه جسدًا ميتًا فأدرك عظم المصيبة..

تسمع «عناة» صراخ «إيل» فتهرع إليه فتروعها جثة «بعل» الخالية من الحياة.. تصير تنوح مع جدهما الأكبر ثم تستجمع قواها فترفع جثمان زوجها وتصعد به إلى الجبل..

وفوق الجبل دفنت «عناة» زوجها، وذبحت على قبره سبعين رأسًا من الجاموس ومثلها من الثيران قربانًا له..

وبينما «عناة» في حزن، كانت «عشيرة» ـ «الإيلات» زوجة «إيل» ـ تحاول إخفاء فرحتها لموت منافس زوجها وأبنائها.. وإمعانًا في ادعائها الحزن، استدعت «عناة» وطلبت منها أن تقدم أحد أبنائها ليجلس على العرش مكان أبيه.. فقدمت ابنها «عشتر» لكنه كان طفلًا فلم يملأ كرسي العرش.. فتراجعت «عناة» وقد أدركت أن الملك قد ضاع بموت زوجها..

لا تيأس «عناة» فتستجمع شجاعتها وتتوجه إلى «موت».. تمثل بين يديه وتلح عليه في إعادة زوجها للحياة.. لكن رب الموت لا يستجيب لها ـ بطبيعة الحال ـ فكيف يُرجِع منافسه الأول؟

هنا يثور غضب «عناة» ـ ولها غضبة عاتية شهيرة خلَّدتها النصوص القديمة ـ فتستل سيفها وتهوي به على «موت» فتشطره نصفين.. ولا تكتفي بذلك، إنما راحت تقطعه بالسيف، ثم أمسكت بالمذراة فمزقت جسده، ثم أحرقته بالنار، ثم وضعته بين حجري الطاحون فسحقته، وأخيرًا دفنته في الحقول ورحلت وقد نالت ثأرها من قاتل زوجها..

وفي الصباح، يستيقظ «إيل» ضاحكًا مستبشرًا بحلم قد رآه؛ رأى السماوات تمطر زيتًا والأرض تفيض عسلًا.. لم يصبر الإله حتى يجتمع الأرباب، بل راح يضحك ويصيح:

ـ دعوني أهدأ الآن وأسترِح؛ لأن عليان (بعل) حي.. سيد الأرض حي!

تهب «عناة» على صوت «إيل» المبتهج فتهرع تبحث عن الخبر اليقين..

وبينما أعداء «بعل» يمرحون في الأرض المجدبة بعد موته، إذ فوجئوا به مبعوثًا من الموت وهو يدهمهم فينهال عليهم بالسلاح ويفتك بهم موزعًا بينهم الردى.. وبينما هو يُجهِز على آخرهم إذ وجد «عناة» تهرول نحوه، فألقى سلاحه وعانقها باشتياق وراح يمارس معها الحب آلاف المرات ليجدد الحياة في الأرض العطشى.. ثم يتناول يدها، وأمام النظرات المذهولة للبشر والآلهة، يتقدم من عرشه بثقة فيعتليه.. وينحني له الجميع مهللين باسمه..

وتمضي السنوات.. سبع سنوات رخاء..

ثم يرتاع الجميع لصوت «موت» يجلجل في الآفاق وهو يندفع نحو بعل:

ـ بسببك أنت جللني العار! بسببك عرفت السيف والنار وحجر الطاحون!

ولا يصدقون أعينهم إلا وهم يرون رب الموت وقد بُعِثَ من موته وقام لينتقم من عدوه اللدود..

ثم انقض على «بعل» وراح الإلهان يتصارعان بعنف ويتبادلان الضربات العنيفة.. وأخيرًا يتمكن «بعل» من «موت» فيصرعه أرضًا ويطأ جسده..

وتنتهي بهذا الأسطورة.. ولكن لا تنتهي الحرب الأبدية؛ فدومًا سيكون اقتتال بين «بعل» و«موت»، ودومًا سيموت أحدهما ويسود الآخر حتى يُبعَث عدوه ويعود ليسود مكانه.. وهكذا.. حتى تنتهي الحرب وتسود مملكة «بعل» وتعيش الأرض عصرًا لا جفاف فيه ولا قحط ولا موت..

هذه هي قصة الشر الفينيقية التي خلَّدتها لنا الألواح المعثور عليها في حفائر مدينة «أوغاريت» القديمة في لبنان..

■ ■ ■

المثير أن «بعل»، قاهر الإله الشرير «موت»، قد تحوَّل بعد زمن إلى «إله شرير» في كتابات دينية أخرى..

ففي بعض عهود المملكة اليهودية الشمالية، انتشر تقديس «بعل» وتقديم القرابين له بين اليهود، على الرغم من إيمانهم بـ«ألوهيم/ الإله».. وتدور قصة النبي «إلياس/ إيليا» حول محاربته عبادة «بعل» بل نجد لها ذكرًا مقتضبًا في القرآن: ﴿**أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ**﴾.. ثم حوَّل المتدينون من اليهود شخصية «بعل» إلى تجسد للشيطان بأن دعوه «بعل زبول» ـ أي «بعل الملوث بالقاذورات» ـ أو «بعل ذبوب» ـ أي «بعل الذباب» ـ أو «بعل فجور» ـ أي «بعل الفاجر» ـ وأحلت

الموروثات الدينية قدراته من إرسال المطر والخير في شخص النبي «إلياس» ـ أو «مار إلياس» كما يُعرَف في الشام حاليًّا..

بينما انتقل «بعل» ـ في صورته الإلهية ـ إلى جزيرة العرب، الذين حولوا كلمة «ها بعل»، أي «هو بعل»، إلى «هُبَل»..

بل انتقلت كلمتا «بعل» و«موت» إلى العربية.. فالبعل هو «رب البيت» أو «السيد» أو «الزوج».. و«الموت» هو انعدام الحياة..

■ ■ ■

بالنسبة للفينيقي الذي يعتاش على تجارة البحر أو زراعة مدرجات الجبال والسهول والوديان، كان من الطبيعي أن يتمثل التحدي الأقدم في «تطويع المياه» وأن يتمثل التحدي الأكبر في «مواجهة الجفاف والقحط».. فتمخض الفكر الأسطوري لنا عن «يم» و«موت»..

وإن كانت معركة «بعل» مع «يم» هي مجرد معركة واحدة سهلة ـ قياسًا بما تلاها من أحداث ـ فإن معركته مع «موت» أبدية؛ فالموت لا أحد يفر منه، والجفاف حدث يقع كل بضعة مواسم يعرفه المزارعون ويتوقعونه ويخشونه..

بالتالي، فإن اختيار الوجدان الجمعي للفينيقيين لشخصية «موت» تجسيدًا لأسوأ الشرور بالنسبة لهم هو خير تعبير منهم عن ثقافتهم الحياتية.. فلو سألت أي مزارع عن أكبر مخاوفه لذكر لك الجفاف والقحط وبوار الأرض وانعدام المحاصيل.. ولو سألته عن أحب الأشياء إلى قلبه لذكر لك تيسُّر الماء وثراء المحصول وخصوبة الأرض.. فصراع «بعل» و«موت» إذًا هو تجسيد لمخاوف وآمال شعب ارتبطت حياته بالزراعة والخصوبة..

والأسطورة إذ تُظهِر استسلام «بعل» لعدوه، فهي تفيد فكرة عبثية مقاومة الموت، وإذ يُبعَث «بعل» من جديد فإن هذا تعبير عن استمرارية الحياة بالضرورة، في دورة دائمة تتبادل فيها مع الموت سيادة الموقف.. فليس أحدهما بموقف الآخر..

ونحن إذ نتأمل تصرف «عناة» مع موت، إذ تقطعه ثم تمزقه ثم تحرقه ثم تطحنه ثم تدفن شظاياه في الحقول، فإن هذا المقطع في الأسطورة هنا يصف خطوات الزراعة، وعلى الرغم من أن أسطورة «بعل» لم تصرِّح بذلك، فإن بعثه إنما كان نتيجة لانتصار الرغبة في الحياة عند «عناة» التي حولت طاقة حزنها إلى رغبة في الانتقام، على قوة «موت» العاتية.. ولا نغفل هنا تكرار تيمة «استخدام جثمان إلهي لخلق الحياة» التي تتكرر في أكثر من أسطورة لثقافات متنوعة..

وتسلسل أحداث المعركة بين «موت» و«بعل» هو سرد مباشر لدورة الحياة الزراعية، فالأرض تخصب وينمو منها الزرع، ثم يداهمها الموت والجفاف، فيهلك الزرع، فتتصدى إرادة المُزارع للموت ويعيد زرع حقله، فينمو الزرع وتنقشع الغمة.. وهكذا..

هذا فضلًا عن فلسفة «لا بُدَّ من موت لكي تنشأ الحياة»، وهي فكرة رأيناها في أساطير سابقة، كأسطورة «أوزيريس» وخلق الكون من جثة «تيامات» ومباركة «بابل» بعد ابتلائها بالموت على يد «إيرا»..

وهذه الفلسفة مثيرة للتساؤلات؛ فالبعض يفسرها بأن الإنسان القديم كان يشعر بنوع من الذنب إذ ينتزع حياة نبات أو حيوان، وعندما كان يرى بني جنسه يموتون كان يعتبر أن دفنهم في الأرض هو نوع من تقديم القربان لكي تنمو الحياة من جديد.. ربما لملاحظته خصوبة

التربة المستخدمة كمدفن للموتى.. فنشأت عنده فكرة أن لا بُدَّ من التضحية بحياة لتنشأ حياة جديدة..

وأية حياة أجدر بالتضحية من حياة «بعل» واهب الزرع حياته؟ وكأنما لم يكُن «بعل» فريسة لـ«موت»، بل كان يقصد أن يغزو جوفه ليضعفه..

ويمكننا كذلك أن نحاول تفسيرها بفكرة «الخوف من المجهول»، أو «عدم الاطمئنان لتدابير القدر»، فيكون الإنسان في خوف من الآتي إلى حد أنه إذا أصابه خير أحس أنه مقدمة لشر يتبعه، وهو ما تعبِّر عنه الثقافة الشعبية المصرية عند بعض الناس الذين إذا ضحكوا اعترتهم رهبة وهم يقولون: «اللهم اجعله خيرًا».. فمن هنا نشأت فكرة أن وجود «بعل» الخصوبة والزرع لا بُدَّ أن تتبعه مصيبة مداهمة «موت» القحط والجفاف للعالم..

كذلك فإن قصة الصراع الأبدي بين «بعل» و«موت» إنما تعبر عن حالة إيجابية في الوجدان الجمعي للفينيقيين، هي الإيمان بحتمية استمرار الحياة ومحاربة الموت.. فـ«موت» أمر واقع، وهو دائمًا مبعوث من موته، وهو دائمًا يحارب «بعل»، وكثيرًا ما ينتصر عليه ويقتله.. ومع ذلك لا يتوقف «بعل» عن مقاومته ومحاربته، ولا يستسلم للبقاء في العالم السفلي بل يكافح ليعود ويحارب أعداءه وينشر الخير على الرغم من علمه أن كل ما يبنيه مهدد برجوع «موت» من جديد.. وهكذا، بشكل ينم عن توافر ثقافة «قوة الإرادة» عند الشعب الذي كان يؤمن بهذه الأسطورة..

بل ثمة «مشاركة شعبية» من البشر في تلك الحرب؛ فحين يقطع المزارع النبات ويطحنه وينتزع بذوره ويلقيها في الحقل ويدفنها، فهو

يكرر حركات «عناة» نفسها عندما قضت على «موت»، فكأنما هو - المزارع - يدرك أنه بهذه الحركات يدعم آلهة الخير ضد الإله الشرير.. وهي نفس فكرة «تمثيل المعركة» التي يؤديها البابليون فيما يخص معركة «مردوخ» و«تيامات».. وبشكل عام فإن احتواء الطقوس على ممارسات تُخَلِّد ذكرى قوة الإرادة في الحياة في مواجهة خطر الموت هو أمر يتكرر في أكثر من عقيدة، بل حتى في الإسلام - وهو من الأديان الإبراهيمية - نجد الآلاف يخلدون سعي السيدة «هاجر»، زوجة النبي «إبراهيم» وأم النبي «إسماعيل»، بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء لابنها في إصرار منها على دفع الهلاك عنه والسعي إلى استمرار الحياة، ما ينم عن أن قيمة «الكفاح لاستمرار الحياة» لها شأن كبير في الأديان الشرقية بشكل عام..

ومن بين الأساطير الشرقية، فإن هذه الأسطورة هي من أقوى نماذج ترجمة مفهوم «الشر» في الوجدان الجمعي وتجسيده ورسم علاقته بالخير كعلاقة صراع وتكامل في آن واحد..

■ ■ ■



نُصُب الإله «بعل»



الإله «بعل» وزوجته «عناة»

VI

أرباب الإغريق الذين يُصبح أحدهم طيبًا ويُمسي شريرًا



عندما يسمع البعض اسم «زيوس» تقفز إلى ذهنه صورة لرجل ضخم القامة مفتول العضلات أشيب الشعر واللحية يتربع على عرشه فوق قمة جبل الأوليمب محيطًا نصف جسده بشملته كاشفًا عن عضلات جذعه الضخمة، وهو ممسك بصاعقة في وضع التأهب لإرسالها على الخاطئين من البشر..

ومَن عاصروا في تسعينات القرن العشرين عرض المسلسل الأمريكي «Hercules/ هرقل» غالبًا قد تكوّنت لديهم صورة ذهنية عن آلهة الأوليمب، «زيوس» العربيد و«هيرا» القاسية و«آريس» الشرير وغيرهم (مع تكرار التأكيد أن الدراما ليست من مصادر المعرفة التاريخية الدقيقة)..

أما من قرؤوا في الميثولوجيا اليونانية ـ خاصة الكتاب الرائع «أساطير الحب والجمال عند اليونان» للأستاذ دريني خشبة ـ فلا بُدَّ أنهم أكثر إلمامًا بالطبائع المتقلبة لآلهة الأوليمب..

فبينما كانت علاقة الإنسان بآلهته في مصر القديمة تقوم على أساس قواعد من الانضباط الأخلاقي والسلوكي، وكانت علاقته بها في العراق القديم تقوم على الولاء والخضوع والمنفعة، كانت علاقة الإغريقي بآلهته تقوم على قاعدة أساسية: لا تأمن لها تمامًا ولا تثق بها دائمًا!

فالآلهة الإغريقية كانت من أكثر آلهة الشعوب تأثرًا بطبائع البشر وتقلباتهم، وأكثرها احتواء على نقائصهم وعيوبهم.. فالإله كان كثيرًا ما يصبح طيبًا ويمسي شريرًا!

■ ■ ■

في البدء لم يكُن من شيء.. كان الـ«كيوس» الكبير.. أي: الفراغ والفوضى (وهو أصل كلمة Chaos بمعنى «الفوضى»)..

ثم من اللاشيء ظهرت «جيا»، ربة الأرض، المعروفة بـ«ذات الأثداء الراسخة»، في إشارة غالبًا للجبال.

وبينهما ظهر «إيروس» الحب، أنجبت «جيا» ابنها «أورانوس»، رب السماء، وجعلته يغطيها ثم تزوجته.. وكوَّنا معًا العالم..

ومن زواج «جيا» و«أورانوس» ظهرت ثلاثة أصناف من المخلوقات:

- «التايتانوس»/ الجبابرة، وهم ستة من الذكور، ومثلهم من الإناث.

- و«السايكلوب»، وهم ثلاثة كائنات لكل منهم عين واحدة في منتصف رأسه.

- والوحوش، وهم ثلاثة لكل منهم مائة ذراع وخمسون رأسًا وقوة خارقة.

لم يتقبل «أورانوس» أن يكون أبًا لهؤلاء، ربما لخشيته أن يستحوذوا على سلطته، فحبسهم في رَحِم أمهم «جيا» التي تألمت لهذا القرار القاسي.. وسعت في تدبير ما تنقذهم به.. فوافقها أصغر أبنائها «كرونوس»، وكمنا للأب حتى إذا ما جاء لجِماع «جيا» وثب عليه «كرونوس» وضربه بمنجل مزق به أعضاءه التناسلية وألقاها في البحر.. فصرعه وخلعه عن عرشه..

ومن دماء الإله المغدور، وقعت قطرات على سطح الأرض فأنبتت «فيوري»، ربة الانتقام والحقد.. وامتزجت غيرها بمياه البحر فأنبتت «أفروديت»، ربة الجمال..

وحرر الفتى إخوته «التايتانوس»، لكنه ترك «السايكلوب» والوحوش في الحبس..

وتربع «كرونوس» على عرش كبير الآلهة.. فأنجب الأبناء والبنات،

ومن أبرزهم «الموירات»، وهن الربات الثلاث اللاتي يغزلن خيوط العمر والقدر والموت للبشر، ونصيب كل منهم من الخير والشر، وأنجب الليل، الذي أنجب عددًا من أرباب الشر، أمثال «نمسيس»، التي تمثل البلاء لكل من يتجاوز حده أو يبالغ في الثراء أو السعادة، وأرباب الخديعة والفجور والشيخوخة.. وأنجب «إيريس»، ربة النزاع والصراع، التي أنجبت أيضًا الحزن والنسيان والجوع والمرض والاقتتال والقتل والمذابح والخصام والأكاذيب والظلم..

وراح الأرباب وحتى «التايتانوس» يتناسلون.. وتزوج «كرونوس» أخته «ريا» التي أنجبت له ستة ذكور، هم: «بوسيدون» و«هاديس» و«زيوس»، وثلاث إناث هن: «هيرا» و«دميتر» و«هستيا»..

وكأن «كرونوس» سِر أبيه، فقد أعاد سيرته في سجن أبنائه، فراح يبتلعهم واحدًا تلو الآخر ويحبسهم في جوفه خشية أن يعيد أحدهم معه فعله بـ«أورانوس»..

وعندما جاء موعد ميلاد آخرهم - «زيوس» - خشيت «ريا» عليه من أن يلقى مصير إخوته، فجاءت بحجر ولفته بالقماش وقدمته لـ«كرونوس» فابتلعه حاسبًا أنه ابنه حديث الولادة.. بينما أرسلت «زيوس» الرضيع إلى جزيرة كريت بمساعدة أبويها «جايا» و«أورانوس»، وأمرت الكريتيين أن يحيطوه بحلقة من محاربيهم يضربون بسيوفهم على دروعهم ليخفوا صوت بكائه عن «كرونوس» كيلا ينتبه إليه..

وبالفعل نما «زيوس» وكبر وصار رجلًا قويًا راشدًا، فدبر لخلع أبيه وإنقاذ إخوته من محبسهم، فتآمر مع بعض ثقات «كرونوس» ودس عليه شرابًا جعله يتقيأ أبناءه، ثم دهمه «زيوس» فصرعه وقيَّده بالسلاسل وحبسه في الهاوية «تارتاروس» التي تقع وراء الأرض وتحت البحر..

لم يكَد «زيوس» يتبوأ عرش الألوهية الكبرى حتى ثار ضده تمرد من «التايتانوس» ـ غالبًا بتحريض من جدته «جيا» التي استاءت لانتزاع مكانة الآلهة القديمة ـ فتمركزوا على جبل يُدعى «أوثريس» وراحوا يهاجمون جبل «الأوليمب»، مقر «زيوس»، بكل ما لديهم من قوة، وكان من أبرزهم أبناء الجيل التالي من «التايتانوس»، وهم الإخوة الأربعة «مينوتيوس» و«أطلس» و«أبيميثيوس» و«بروميثيوس»..

استمرت الحرب عشر سنوات، ثم رأى «زيوس» أن يحسمها فأمر بإطلاق سراح «السايكلوب» والوحوش من «تارتاروس» وسلحهم بصواعقه وسلطهم على أعدائه.. بل راح من مركزه في الأوليمب يلقي الصواعق والنيران بكثافة حتى التهب سطح الأرض وصار ناريًا متزلزلًا عاصف الأجواء..

وأخيرًا، اندحر «التايتانوس» وأُسِروا حيث ألقوا إلى «تارتاروس»، وحُكِمَ على «مينوتيوس» أن يُسجَن في أقصى أعماق الأرض، وعلى «أطلس» أن يحمل قبة السماء إلى الأبد، بينما أُمهِل كلٌّ من «أبيميثيوس» و«بروميثيوس» إلى حين لسببٍ في نفس «زيوس»..

ولم يكَد الإله يلتقط أنفاسه من هول المعركة حتى فوجئ بتمرد جديد من جانب العمالقة، وكانوا مِمَّن خلقتهم قطرات دم «أورانوس» حين جُبت مذاكيره، لكن «زيوس» هذه المرة لم يكُن وحده، فقد كان معه نسله من الأرباب، وعلى رأسهم «آريس»، إله الحرب، و«أبوللو»، إله الشمس والرماية، و«هيفاستوس»، الإله الحداد، و«هرقل»، نصف البشري صاحب القوة الخارقة، فضلًا عن «بوسيدون» أخي «زيوس».. حيث أطاح كل منهم عملاقًا فقتله أو دفنه تحت جزر البحر..

ولكن ثَمَّةَ مفاجأة أخيرة كانت تنتظر «زيوس»، فجدته «جيا» كانت

قد أبقت له التحدي الأكبر: التنين «طيفون»..

كان التنين «طيفون» هو ابن «جيا» من «تارتاروس»، هاوية الجحيم، فجاء مخلوقًا بشعًا عملاق القمة إلى حد أنه يمد يدًا فتكون بالغرب والأخرى فتكون بالشرق، ويصل بقدميه لأعماق البحر بينما رأسه تشق السماء.. وكانت له مائة رأس مسلحة بالأنياب والسموم، ومن ساقيه تنبت الأفاعي الرهيبة، وكانت حركته تثير الأعاصير (وربما من هنا اشتُق اسم الإعصار «تايفون»)..

تقدَّم «زيوس» لمنازلة «طيفون» بنفسه، لكن هذا الأخير صرعه ومزق أعصاب وأوتار أطرافه ثم ألقاه حبيسًا في كهف..

سارع الرب «هرمز» ـ رسول الآلهة ـ لإنقاذ سيده.. فدس على «طيفون» من أقنعه بتناول عشب يزيد من قوته، بينما هو يضعفه، وبينما التنين يقع في الخدعة كان «هرمز» يفر بـ«زيوس» من السجن ويعالجه..

عاد «زيوس» لمواجهة «طيفون» الذي كان قد ضعف وترنَّح، فهزمه «زيوس» ودحره وحبسه تحت جبل «إتنا» ـ في إيطاليا حاليًّا ـ وكلما تقلَّب التنين ثار بركان هذا الجبل..

وأعلنت «جيا» يأسها من القتال واستكانت لسلطة حفيدها.

ثم صعد الإله المنتصر إلى الأوليمب وتربع على عرشه معلنًا بشكل ضمني ألَّا أحد ندٌّ له، سواء من الآلهة أو غيرهم..

وألزم «زيوس» الأرض السكون بعد أن كانت ملتهبة فبردت وسكنت.. وأعاد للجبال استقرارها وللبحار مساحاتها.. تمهيدًا لأن تكون حياة..

■ ■ ■

كان «بروميثيوس» ـ وتعني «التفكير الحكيم» ـ من «التايتانوس»، وكان داهية؛ فلمَّا رأى كفة «زيوس» هي الراجحة في الحرب التزم الحياد، بل حاول التودُّد لكبير الآلهة حتى جعله هو المسؤول عن تقسيم الطعام بين الآلهة والبشر في الولائم المشتركة..

وكان أخوه «أبيميثيوس» ـ وتعني «التفكير المتسرِّع» ـ يستفيد من تلك المكانة، فكان في مأمن من أذى «زيوس»..

ولكن لأن «غلطة الشاطر بألف»، فقد ارتكب «بروميثيوس» خطأً في تقسيم لحوم الثيران فأعطى البشر أفضلها والآلهة أقلها شأنًا، فغضب «زيوس» وعاقب البشر بحرمانهم من نعمة «النار».. لكن «بروميثيوس» سارع فتسلل لجزيرة كان الإله «هيفاستوس» يضع فيها الكير، وسرق جذوة النار وقدمها للبشر..

فقرر «زيوس» أن ينتقم مِمَّن تحدوا سطوته بأن استدعى «هيفاستوس» وأمره بخلق سبب بلاء البشر ـ على حد قول الأسطورة ـ وهو: المرأة..

قام «هيفاستوس» بخلق امرأة كأجمل ما تكون النساء، إلى حد مقارنة جمالها بالإلهات.. وقام «هرمز» ـ بأمر «زيوس» ـ بوضع الخداع في قلبها والكذب على لسانها.. ثم زينتها الإلهات وأُطلِق عليها اسم «بندورا» وقدمها «زيوس» لـ«أبيميثيوس»، شقيق «بروميثيوس»، وقبلها «أبيميثيوس» على الرغم من شدة تحذير أخيه له ألا يقبل هدية من «زيوس»..

وفي زفاف العروسين، قدم «زيوس» لـ«بندورا» مزهرية ضخمة ذات غطاء ثقيل.. وهنا كانت الخدعة والانتقام..

فـ«بندورا» لم تتمكن من مقاومة الفضول الأنثوي لمعرفة ما في المزهرية..

فرفعت غطاءها.. وسرعان ما اندفعت منها الشرور والأضرار، من حسد وبغض وكراهية ونفاق وكذب وتدليس وغش وخيانة وغدر وفسق وفجور وكل سيئ ورديء..

وبعد أن كان البشر يعيشون في سلام وحب وسكينة، عرفوا الشرور، ليدخلوا في عصرهم التالي المزدحم بالصراعات والاقتتال.. وعندما أفاقت «بندورا» من ذهولها وأغلقت المزهرية كانت قد تبقت روح أخيرة حبيسة فيها هي «الأمل»!

ومضى الزمن وأنجبت «بندورا» من «أبيميثيوس» ابنة اسمها «بيرحة» بينما كان لـ«بروميثيوس» ابن هو «ديوكاليون»، وتزوج الاثنان.. وذات يوم عرف «بروميثيوس» أن «زيوس» ما زال حاقدًا على البشر ويدبر لتدميرهم، وأنه قد قرر تسليط الطوفان عليهم لإفناء البشرية..

فسارع «ديوكاليون» ببناء سفينة وإعداد ما يلزم لاستمرار الحياة بداخلها.. وعلم «زيوس» بتحذير «بروميثيوس» له فعاقبه بأن علَّقه بين جبلين وسلَّط عليه طائر رخ يلتهم كبده كل يوم، وفي الليل تنمو له كبد جديدة فيصبح الطائر ويلتهمها.. وهكذا..

أما «ديوكاليون» فقد استقل هو وزوجته السفينة وبقيا يركبان أمواج الطوفان عشرة أيام، ثم رست السفينة على جبل فنزل منها الزوجان وقدَّما قربانًا لـ«زيوس» فرضي عنهما ورفع غضبه عن البشرية..

لكن البشرية كانت قد فنيت عداهما.. فتوجها إلى بعض المعابد يسألان الآلهة عن كيفية إعادتها، وجاءهما الجواب:

- غطيا وجهيكما.. وسيرا وألقيا عظام أجدادكما وراء ظهريكما!

لم يفهم الزوجان معنى «عظام الأجداد» أولًا، ثم سرعان ما أدركا

المقصود، فغطى كلٌّ منهما وجهه وسار وهو يلقي الحجارة وراء ظهره..

ومن الحجارة التي ألقاها «ديوكاليون» نبت الرجال.. ومن الحجارة التي ألقتها زوجته نبتت النساء..

فالجدة الكبرى هي «جيا»/ الأرض.. إذًا فالحجارة هي عظامها..

وتزاوج الرجال والنساء، وعاد بنو الإنسان يعمرون الأرض وهم يقدِّمون الخضوع لـ«زيوس» الذي تربع على عرشه وهو ينظر للجميع بسمو وينذر من يتحدونه ـ وإن كانوا من الآلهة ـ أن يحرقهم بصواعقه أو أن يلقيهم في الهاوية «تارتاروس».

ولكن كان الجنس البشري الجديد محكومًا بمكابدة المشاق في حياته، بعد أن كان الجنس البائد يعيش في سلام وسعادة ودعة..

كان بنو الجنس القديم يعيشون في شباب دائم، وإذا ماتوا فإن من يموت منهم إنما يأتيه الموت في شكل نعاس هادئ، ثم ينتقل إلى «حقول الإليزيه/ شانزليزيه» حيث الجنة الدائمة وأنهار اللبن والعسل..

أما بنو البشر الجدد فقد عرفوا المشاق والتحديات بمختلف أنواعها..

فالشرور التي أطلقتها «بندورا» بحماقتها تعتريهم وتُسقِم بعضهم بآفاتها..

و«فيوري»، ربة الانتقام، توسوس لهم بالبُغض والثأر من أبسط الأخطاء..

وإن كانت الربة «أثينا»، ربة للحكمة والحرب الحكيمة، فإن أخاها «آريس»، إله الحرب الجنونية، يطوف بالأرض ينشر الاقتتال والرغبة في التدمير ومعه تابعاه «فوبوس/ الخوف» و«ديموس/ الرعب» وتصحبه دائمًا الربة «إيريس»، ربة البغضاء والنزاع، لتسعر الحرب وتزيد الشقاق..

و«نمسيس»، ربة القصاص، تراقب البشر، فإذا رأت منهم من «حقق أكثر ممَّا ينبغي له من النجاح والسعادة والثراء» تسارع بإنزال الكوارث به وكأن للسعادة حدًّا لا ينبغي تجاوزه!

و«ثاناتوس»، رب الموت، يطوف بالأرض متلفِّعًا بعباءته رافعًا سيفه ليستل الأرواح ويرسلها إلى «هاديس»، رب العالم السفلي.. وهو لا يعشق أكثر من إفناء البشر، ولا يتمكن أحد من رده إلا «سيزيفيوس» الذي أوقعه في بعض خدعه فقيده، فلمَّا تمكن «ثاناتوس» من الإفلات عوقب «سيزيفوس» بأن حُكِمَ عليه بدفع حجر لأعلى الجبل حتى إذا ما بلغ قمته تدحرج الحجر هابطًا فيعود لدفعه من جديد.. وهكذا..

و«هاديس»، رب العالم السفلي، يتسبب في محنة للبشر؛ فهو يختطف «بيرسفوني»، ابنة «دميتر»، ربة الخصوبة والحصاد، ويهبط بها للعالم السفلي بموافقة أخيه «زيوس»، ويتخذها زوجة.. فتستشيط «دميتر» غضبًا وتقرر منع الخير عن الأرض..

وبعد مساجلات، يوافق الجميع أن تقضي «بيرسفوني» مع زوجها ثلث العام ومع أمها ثلثيه، ففي الثلثين اللذين تقضيهما مع «دميتر» تخصب الأرض، بينما في الثلث الذي تقضيه في العالم السفلي يسود الشتاء الثقيل ويقل الزرع..

■ ■ ■

وكأن البشر لا تكفيهم مشاق الحياة، فإن الآلهة يزيدون الحياة صعوبة بصراعاتهم فيما بينهم، التي يزجون بالبشر فيها..

فـ«هيرا»، التي تبغض «هيراكليس»، ابن زوجها من بعض مغامراته النسائية، تربِّي الوحوش لتضعها في طريقه، فيتضرر بها البشر، كـ«أسد

نيميا» العملاق الذي لا تؤثر فيه النصال، ويقطع على الناس طريقهم ويفترس مواشيهم، فيتصدى له «هيراكليس» ويقتله خنقًا فتخلده «هيرا» بأن ترفعه برجًا في السماء باسم «برج الأسد»، أو «الهايدرا»، وهي تنين بمائة رأس، كلما قُطِعَ أحدها نبت غيره، فراحت تؤذي البشر وتهلك من يصادفها حتى قتلها «هيراكليس» أيضًا..

و«إيريس» ـ ربة النزاع ـ تدبِّر لوقيعة بين الربات الثلاث «هيرا» و«أفروديت» و«أثينا»، فتضع بينهن تفاحة ذهبية مكتوبًا عليها «للأجمل».. فيتنازعن في أمرها ثم يقررن أن يحكِّمن أول بشري يمر بهن.. فمر بهن «باريس»، راعي الغنم، فحكم بها لـ«أفروديت» التي كافأته بإخباره أنه ابن ملك وأرشدته لقصر أبيه، ملك طروادة، ثم وعدته بأن يحوز أجمل النساء، فلمَّا زار اليونان خطف «هيلانة»، ابنة أحد الملوك، فنشبت حرب طروادة! هذا كله من أجل «مقلب» من إحدى الربات بحق ثلاث ربات أخريات بينهن ربة الحكمة نفسها!

و«زيوس» لا يستطيع كبح جماح شهواته ـ وهو من أكثر آلهة الحضارات القديمة صبيانية ـ فينزو على الربات والحوريات وحتى بنات البشر.. ويثير جنون زوجته «هيرا» التي لا تستطيع أن تقتص منه فتصب غضبها على عشيقاته المسكينات على الرغم من أن أغلبهن وقعن في حباله بالخديعة أو حتى الاغتصاب!

و«زيوس»، بالذات، لم يكُن مثلًا أخلاقيًا أعلى؛ فهو يخون زوجته «هيرا»، بل ويعتدي عليها بالضرب لو واجهته، وعندما قيدها وعذبها وتدخل ابنها «هيفاستوس» لتخليصها قذفه «زيوس» من أعلى الجبل فكسر ساقه وصار أعرجَ، وبالتبعية فإن ابنه «آريس» يراود «أفروديت»، زوجة «هيفاستوس»، عن نفسها فتمنحه جسدها فيباغتهما الزوج ويقيدهما

على مكانتهما ويفضحهما بين الآلهة.. وهكذا فإن سكان الأوليمب لم يكونوا نماذج تُحتذى، إنما كانت سيطرتهم على البشر باسم القوة فقط!

الخلاصة أن مصير الإنسان في ظل حكم آلهة الأوليمب كان رهين نزواتهم وصراعاتهم وشكوكهم وتقلباتهم التي تنافس أحيانًا أعتى البشر حماقةً واندفاعًا وتهورًا!

■ ■ ■

المتبحِّر في عالم الأساطير القديمة يدرك مدى تأثر الإغريق بالموروثات الأسطورية لمصر والشام والعراق..

فالنشأة الأولى للحضارة اليونانية القديمة كانت من خلال الاتصال الحضاري بالشرق عبر جزيرة كريت، فتم نقل مفردات حضارية كثيرة للموروث اليوناني، ومنها الأساطير..

فالوجه الغضوب لـ«زيوس» هو ذاته لـ«إنليل» العراقي، وتفصيلة «هزيمة الإله ثم انتصاره» على يد التنين «طيفون» هي مشابهة لمقتل «أوزيريس» ثم بعثه، وكذلك التهام «موت» لـ«بعل» ثم رجوعه، وشخصية «عشتار» وجدت لنفسها توزيعًا في المساحات الأنثوية، سواء أكانت «هيرا» أم «دميتر» أم «أرتميس»..

وإن كان الإغريق قد تأثروا بشخصية «الأم الحارسة الحكيمة» من «إيزيس» فصارت «أثينا»، فإنهم تأثروا بشخصية «الإله الشهواني سريع الغضب» - ربما من «إنليل» أو من شابهوه - فصاغوا «زيوس».. وكالموروث العراقي جعلوا علاقة البشر بالإله نفعية، قائمة على الولاء والخضوع والحذر، لكنهم بالغوا في صياغة آلهتهم في صور بشرية بل ونفسيات بشرية جدًّا؛ فالإله لا يكتفي بأن يكون قاسيًا غضوبًا كـ«إنليل»،

أو ممثلًا للقوة الغاشمة كـ«سِت»، أو مدمرًا كـ«تيامات»، إنما هو مخادع ومتجبر وحسود ومراوغ وخبيث ومؤذٍ.. وحتى الآلهة التي يمكن أن توصف بأنها «طيبة في أساسها» لا تتورَّع أحيانًا عن الإيذاء؛ فـ«هيرا»، راعية الزوجات والأسرى، تحارب «هيراكليس» وتدبر له المكائد وتربي الوحوش الكاسرة، و«أثينا»، ربة الحكمة، تشارك في حرب طروادة وتنحاز لطرف ضد طرف بغضِّ النظر عن عدالة القضية، و«أفروديت»، ربة الجمال، تخون زوجها على فراشه.. باختصار: إن الخيط الفاصل بين الخيِّر والشرير في آلهة الأوليمب لم يكُن بهذا الوضوح الذي قد نفترضه بالقراءة السطحية للأساطير الإغريقية..

وأعتقد أن هذا يفسر أن الموروث اليوناني من تناول قضايا «الأخلاق» و«الحق والخير والجمال» إنما يرجع للفلاسفة لا لرجال الدين!

أما العلاقة مع الآلهة فكانت علاقة منفعة، بمنطق «نحن نعبدهم لنتقي شرهم وننال خيرهم»، وهو هنا ليس نوعًا من النفاق؛ فالآلهة كانت صريحة من البداية، أنها لا تريد سوى الطاعة والولاء، أما المسائل الأخلاقية ومدى تداخل الآلهة معها فقد ظهرت في مرحلة لاحقة من التاريخ الإغريقي، كافتراض وجود محكمة أخروية، أو وجود آلهة مهمتها معاقبة القتلة..

القيمة «الطيبة» الوحيدة التي يبدو احترام الأرباب لها كانت «البطولة»، بما فيها من شجاعة وإقدام وقوة، حتى إن تقديس الأبطال وتقديم القرابين لهم كانا من الممارسات المعروفة في اليونان القديم.. وهذا شيء منطقي؛ فالآلهة اليونانية هي في الأساس «آلهة محاربة».

وتفاصيل «الأحداث السيئة» في الأساطير المؤسسة للدين الإغريقي بعضها يمثل محاولة لتفسير أحداث طبيعية كاضطراب قشرة الأرض

أو ثورات البراكين أو وقوع الصواعق، وهو أمر مألوف في الأديان القديمة، أو مصائب شخصية قد تقع لهذا الشخص أو ذاك، كالموت والمرض وفقدان الثروة.. بل ولكل ظاهرة طبيعية علاقة بإله أو عملاق أو مسخ أو كائن ما ورائي يمارس نشاطًا ما..

لكن بعضها الآخر، المثير للتأمل، هو ذلك المفسر لخطايا البشر وعيوبهم ونقائصهم بأنها مسؤولية «موريات القدر» الثلاث، أو إلهة للحسد أو البغض أو الانتقام، أو «مزهرية تتحرر منها أرواح الشر»..

وكأن الإنسان اليوناني القديم قد عجز عن تقبل فكرة «فطرية وجود الشر» في الإنسان فابتكرت قريحته آلهة بها من الشر ما بها وحمَّلها مسؤولية ما في نفوس البشر من شرور.. نحن إذًا أمام واحدة من أكبر الحيل الدفاعية النفسية في التاريخ! فصحيح أن ثَمَّةَ اعترافًا بمسؤولية كل إنسان عن أفعاله، لكن هذه الأفعال من البداية منطلقها هو ما أطلقته الآلهة من شرور في الناس، أو ما تدبره سرًّا وتزج فيه ببني الإنسان الذين يمكن لأي منهم أن يصبح ـ بلغة الحرب ـ «خسارة عشوائية» لصراعات الآلهة فيما بينها..

بناء على ما تقدم كله، فإن الموروث الأسطوري اليوناني كان الأكثر صراحة في القول إن الشر هو «صنعة الآلهة» و«خلقها».. وحتى «شرور الناس»، من بغض وحسد وكذب وخيانة، إنما هي صنيع «زيوس»، الذي ابتلى به البشرية بهديته لـ«بندورا».. أي أن الشر لم يكُن من مكونات الإنسان منذ خلقه وإنما هو أمر سبق خلق البشر، فـ«أورانوس» الذي كان أول إله هو أب شرير، وكذلك ابنه «كرونوس»، و«زيوس» لم يعصمه من وصمه بالشر سوى أنه قد خرج منتصرًا من تلك الحرب الكبرى على طريقة «كتابة المنتصر للتاريخ».. بل وربما كان تقبُّل اليونانيين لعبادة

«زيوس» على الرغم من مساوئه هي انعكاسًا لفكرة «عبادة البطولة».. فهم يدركون أنه «ليس الأكثر خيرًا بين الآلهة»، لكنه في الوقت نفسه «الأكثر قوة».. وفي مجتمع كان يسوده نظام «المدينة الدولة» بل وتشتهر بعض مدنه ـ مثل «إسبرطة» ـ بأنها «مدن محاربة»، فإن «الإله المنتصر المسيطر» خيرٌ من «الإله الطيب الرحيم».. حتى إن فكرة تقديم القرابين لغير الآلهة إنما كانت لقبور ونُصُب الأبطال باعتبار أنهم شفعاء للبشر عند الأرباب..

لهذا فإن العبادة الإغريقية كانت من أكثر العبادات «نفعية» في التاريخ، حيث الشر أمر واقع مقبول نوعًا ما ويتوقف موقعه من الإعراب على موقع ممارسه: هل هو المنتصر أم المهزوم؟



«زيوس» كبير آلهة الإغريق



«أثينا» إلهة الحكمة المحاربة الحكيمة

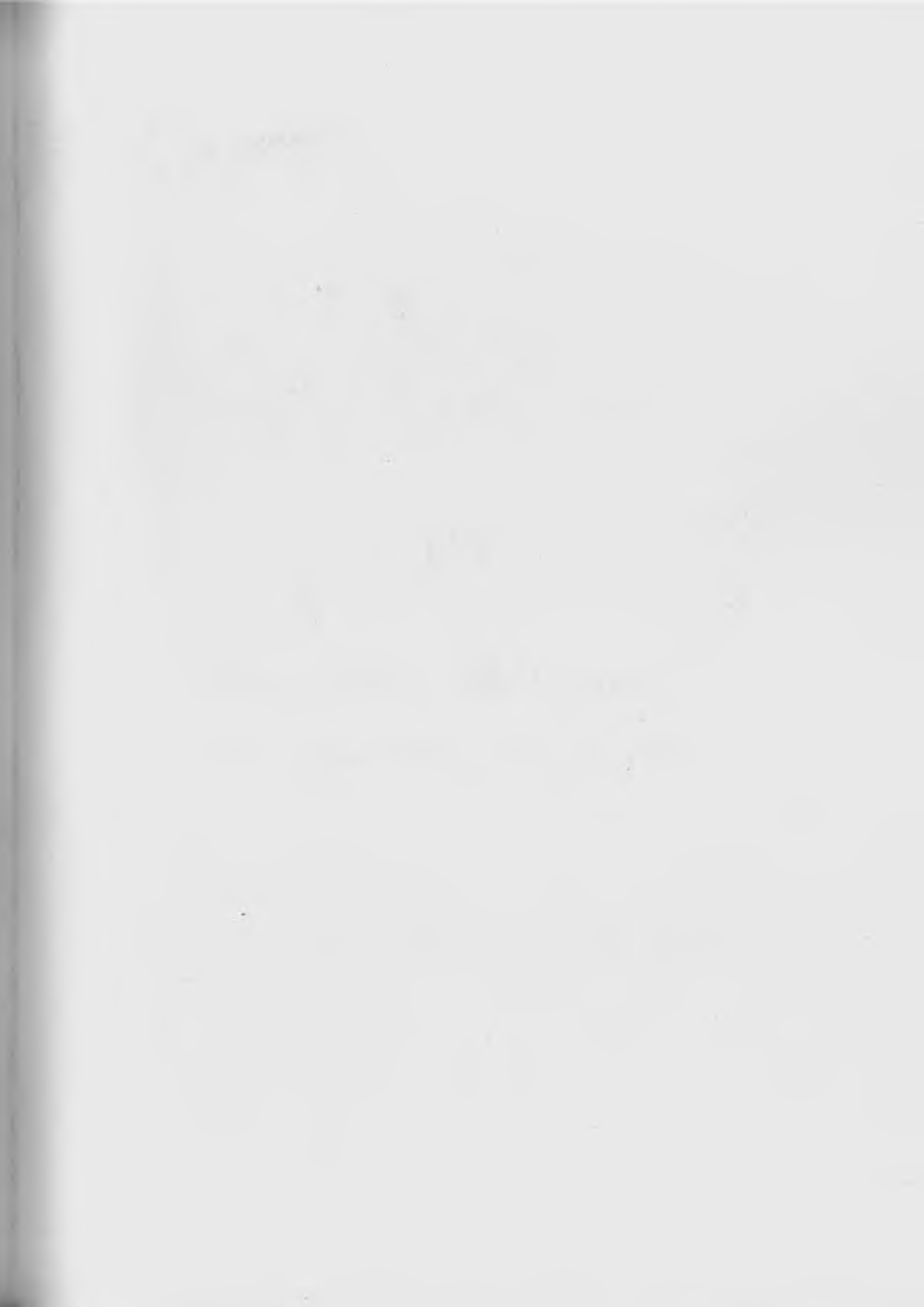


«آريس» إله الحرب والقتال



VII

«أنجرامابنو» و«أهريمان»..
قائدا جيوش الشر في المعركة الأخيرة



كان ميلاده نفحة نورانية لأهله، نفحة خشيتها شياطين الظلام التي سعت جاهدة إلى القضاء عليه في مهده فدبرت له المكائد.. أخطرها حين أطلقوا عليه قطيعًا من الأبقار اندفع نحوه لسحقه لولا أن أدركته رحمة الإله فانفصل عن القطيع ثور وقف يحميه ويرد عنه الحوافر الثقيلة.. ثم حُمِلَ إلى كهف به ذئاب مفترسة ولكن الذئبة الأم امتنعت عن افتراسه وحمته..

هكذا تبدأ قصة «زرادشت»، نبي الديانة التي حملت اسمه في بلاد فارس.. والمرجَّح ميلاده وحياته في القرن السابع قبل الميلاد..

في سن الخامسة عشرة، انضم لرجال الدين القديم، وفي سن الثلاثين شاهد رجلًا يفوق بنيانه تسعة رجال أنبأه أنه «فاهومانا» (الفكر الطيب) كبير الملائكة، ورفعه للسماوات ليمثل في حضرة «أهورامزدا»، الإله الواحد، ليتلقَّى رسالات ربه التي أمر أن يدعو قومه لها..

«أهورامزدا»، الإله الواحد الذي لم يولد ولم يوجده أحد، وإنما أظهر نفسه بنفسه..

في البدء لم يكُن من شيء، ثم رأى «أهورامزدا» أن يبدأ الخلق فخلق روحين، هما: «سبينتامانيو» و«أنجرامانيو»، وأنعم عليهما بنعمته الأولى: حرية الاختيار.

وبينما اختار «سبينتامانيو» طريق الخير، جنح «أنجرامانيو» لطريق الشر، فأصبح الأول هو «الروح الطيبة» بينما صار الآخر «الروح الخبيثة».

كان يمكن للإله أن يدمِّر الروح الخبيثة، لكنه ألزم نفسه احترام نعمة الحرية فقرر أن يُعِين روح الخير عن طريق خلق ما يساعدها في دحر الروح الشريرة..

خلق «أهورامزدا» ستة كائنات نورانية هم: «فاهومانا» (الفكر الطيب)، و«آشافاهيستا» (الحقيقة الناصعة)، و«كاشاترافايرا» (الملكوت القادم)، و«سبينتا أرمايتي» (الإخلاص)، و«هورفات» (الكمال)، و«إيرميتي» (الخلود)، الذين خُلقوا ـ بأمر «أهورامزدا» ـ كائنات نورانية طيبة، بينما راح «أنجرامانيو»، الروح الخبيثة، يخلق الكائنات الشيطانية (ديفا) ليستعد الطرفان للحرب الأبدية المقبلة..

ثم قرر الإله أن الحرب بين الخير والشر لا بُدَّ لها من عالم مادي يكون ساحة لها، فخلق الأرض في هيئة منبسطة سهلة، وخلق حولها بحرًا من المياه العذبة يجري منه نهران، وخلق الشجرة الأولى التي تحوي كل بذور الأشجار، كما خلق شجرة أخرى هي شجرة الحياة الأبدية، وخلق الإنسان الأول وأسكنه «الأرض الأولى» التي حملت اسم «خافي نيرانا»، ولم يجعل فيها موتًا ولا مرضًا ولا شقاءً..

كان «أنجرامانيو» يراقب الخلق، الذي ما إن اكتمل حتى انقضَّ عليه ومعه شياطينه، فأفسد عذوبة البحر بالملح وسهولة الأرض بالجبال والتضاريس الوعرة، ودمر الأشجار وذبح الإنسان الأول وراح ينشر الشرور والبلايا في أنحاء العالم..

انطلق الملائكة بأمر ربهم فراحوا يحاولون إصلاح ما أفسد «أنجرامانيو»، فخلقوا الغمام ليمطر ويسقي الأرض، ونثروا البذور لينبت الزرع وينمو الشجر، والتقطوا بقايا الإنسان الأول فطهروها بنور الشمس وغرسوها في الأرض لتنمو منها شجرة في هيئة إنسانين ملتصقين، فصلوهما ليصبحا بشريين هما: «ماشيو»، الذكر الأول، و«ماشيا»، الأنثى الأولى..

وراح الملائكة يعلمون «ماشيو» و«ماشيا» الزراعة والصناعة وفنون الحياة، وأوصوهما بعبادة «أهورامزدا» وحده لا شريك له، وألَّا يطيعا

«أنجراماينو» وجنوده، وأن يعمرا الأرض بالخير ويكثرا من الحرث والنسل ليحبطا عمل الروح الخبيثة..

لكن الروح الشريرة لم تتوقف عن زرع الشرور، فراحت تنشر الأمراض بين الكائنات وتبث أفكار الشر والحقد والأذى بين البشر، وتشيع الفوضى والدمار، آملة أن يتبعها بعض بني الإنسان فيفسدوا خلق «أهورامزدا»..

وهكذا بدأت الحرب الحقيقية بين الخير والشر في هذا العالم..

■ ■ ■

كانت تعاليم «زرادشت» لأتباعه بسيطة مباشرة: فالعالم هو ساحة حرب بين «أهورامزدا» من ناحية والشيطان «أنجراماينو» من ناحية أخرى..

وعلى مَن يريد أن يكون مِن أنصار الخير وأتباع الإله أن يلتزم ثلاثة أشياء: الفكر الحسن، والقول الحسن، والعمل الحسن..

كان عليهم أن يدركوا أن تقرُّبهم للإله بالصلوات والعبادات أمرٌ حسنٌ يساعدهم على التفكُّر في الإله وإعلان الخضوع له، لكنه لا يكفي؛ لأن الإحسان إنما يكون برعاية العالم وإعماره وتقديم العمل الطيب للمخلوقات كلها.. فلا قيمة لعبادة بغير عمل.. والنار المقدسة التي يوقدونها لا تُعبَد لِذاتها وإنما هي رمز لجذوة الخير التي في نفس كل منهم..

شجعهم على الزراعة والبناء؛ فالشيطان يغتاظ من عمارة الأرض وانتشار الخير بها..

حثَّهم على الزواج والتناسل ليُكثروا من البشر الذين يعملون على عمارة العالم ونشر الخير به..

أمرهم بالعدل والإحسان والتجاوز عن الأذى ورفض الثأر والعنف، حتى مع الأعداء..

أخبرهم أن الإله يجازي خيرًا على التراحم والتواد، وعلى مدِّ يد العون والرحمة، ليس للبشر فحسب بل للحيوان والطير وسائر الكائنات بلا تمييز؛ فاحترام «أهورامزدا» إنما ينطلق من احترام خلقه..

أوصاهم بالتطهُّر والحرص على النظافة والصحة ومقاومة الأمراض، ونهاهم عن إهانة الجسد أو ازدرائه..

وأخيرًا: أعلمهم أن بالتزام هذه التعليمات يكون الإنسان قد استحق أن يكون من جنود «أهورامزدا» في مواجهة «أنجرامانيو» وجنده من «الديفا»..

■ ■ ■

ولكن، ما الذي بعد ذلك؟ ما الذي ينتظر الإنسان بعد موته ومغادرته هذا العالم؟

تقول الزرادشتية: إن الإنسان حين يموت تقف روحه أمام قبره ثلاثة أيام ليتأمل أعماله، فإن كانت حياته طيبة فإنه يجد ملائكة الإله تحيط به وتسرِّي عنه وتبشره بالخير.. وإن كانت حياته فاسدة والشر منهجه وجد شياطين الظلام تدهمه فتعذبه وتسخر منه..

ثم بعد الأيام الثلاثة تأتي الملائكة فتأخذ الإنسان ليمثل أمام المحكمة الإلهية التي يقودها «مثرا»، أحد الكائنات النورانية الطيبة، فيُنصَب الميزان ويؤتَى بكتاب حسنات الإنسان وسيئاته ـ التي تدونها ملائكة موكلة بذلك طول حياته ـ وتوضع حسنات الميت في كِفة منه وسيئاته في الكِفة الأخرى، فإذا رجحت حسناته علم أنه قد استحق الجنة، وإن

رجحت سيئاته أُنذِرَ أنه قد صار من أهل الجحيم..

بعدها ينطلق الإنسان إلى هاوية فوقها جسر على هيئة السيف، إنه «الشنفاد»، أي: «الصراط»..

فإن كان الميت من أهل الخير فإن «الشنفاد» ينقلب بحيث يصبح جانب السيف هو الممشَى، ويتسع ليقطع فوقه ثلاث خطوات، تمثل أولاها «الفكر الحسن» وثانيتها «القول الحسن» والأخيرة «العمل الحسن».. فيجد فتاة جميلة طيبة الرائحة ترحب به وتقول له: «أنا عملك الحسن» فتقوده ليعبر فوق الهاوية للطرف الآخر حيث يدخل الجنة ليستقبله «أهورامزدا» والملائكة ويسكنوه «البردوس»، أي: «الفردوس».

وإن كان من أهل الشر فإن «الشنفاد» ينقلب ليصبح ممشاه هو حافته الحادة التي تصبح أدق من شعرة الرأس وأحد من السيف فيخطو خطواته الثلاث: الفكر السيئ والقول السيئ والعمل السيئ؛ حيث تنتظره عجوز نتنة الرائحة بشعة الخلقة تعانقه وتهوي به في الجحيم حيث الروائح البشعة والأفكار الخبيثة والظلام الذي يتكاثف حتى يمكن الإمساك به باليدين، ليجد أن المذنبين يعذبهم «أنجراماينو» نفسه وهو يسخر منهم ويشمت بهم..

وأخيرًا تبقى فئة هؤلاء الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فهم يبقون في موضع وسط بين الجنة والجحيم هو «كريز أشيا»؛ حيث يعيشون حالة شبحية باهتة بلا إحساس حتى يحين «يوم قيامة الأموات».

■ ■ ■

وفي نهاية الزمان تنزل امرأة عذراء إلى بحيرة وضعت بها الملائكة نطفة «زرادشت»، فتتسلل النطفة إلى رحمها وتحمل بـ«ساوشنياط» الذي

يولد منها ليكون «المُخَلِّص» الذي يقود أتباع «أهورامزدا» في معركة أخيرة ضد أتباع «أنجرامانيو»..

وبينما المعركة محتدمة، إذ تنشق الأرض عن عظام البشر الميتين فيستوون أحياء وينضمون للمعركة ويُحْشَرون جميعًا، كلٌّ مع الزمرة التي اتبعها في حياته السابقة؛ فأهل الخير مع جند «أهورامزدا»، وأهل الشر مع جند «أنجرامانيو».. وبينهم أناس يصيحون ببعض أهل الخير يلومونهم أنهم تركوهم للضلال ولم ينصحوهم، ويحاولوا أن ينتشلوهم من طريق الشر، فيُطرِق هؤلاء المخاطَبون برؤوسهم خجلًا ويُختَم على أفواههم فلا يستطيعون ردًّا..

ثم يهبط الملائكة بأمر الإله فيجعلون حديد الأرض ومعادنها تصعد في صورة حمم لاهبة تغرق العالم، وبينما يحترق بها الأشرار يمر بها الخيرون بسلام كأنما هي نهر من حليب دافئ.. فتذيب الشر وتمحقه..

ويهرع «أنجرامانيو» وشياطينه فرارًا من الهول إلى أعماق الأرض، لكن نهر النار يتسلل عبر طبقات الأرض إلى حيث مخبئهم فيجتاحهم ويحرقهم ويقضي عليهم تمامًا..

بل إن حتى الجحيم يحترق فيفنى بمن فيه..

وتنحسر أمواج النيران وتياراتها لتكون الأرض قد تطهَّرت بالنار من الشرور، وتصبح جنة يسكنها الطيبون منذ بدء الخلق إلى آخره جزاءً بحسن اختيارهم..

هكذا تنتهي ملحمة حرب الخير والشر في الديانة الزرادشتية..

■ ■ ■

بعد قرون من دعوة «زرادشت»، تعرضت ديانته لتغيير جذري؛ فرجال الدين وجدوا أن عوام الناس يحتاجون إلى شرح لـ«أفستا» ـ كتاب الزرادشتية المقدس ـ وأناشيد الـ«غاثا» التي مجد بها «زرادشت» ربه.. فراحوا يضعون الشروح والتفاسير التي ساقها تطورها ـ خاصة بعد غزو الإسكندر المقدوني لبلاد فارس ـ إلى التأثُّر بالديانات التعددية القديمة، فتغيرت الزرادشتية وانتقلت من حالة «عبادة الإله الواحد» ضد «الروح الخبيثة» إلى دين آخر به إلهان متساويان..

كان القائمون بهذا التغيير هم كهنة من قبيلة «ماجي»، اشتهروا بالعمل الديني، وقيل إنهم كانوا ينتمون سرًّا للديانات الآسيوية القديمة وإنهم إنما اعتنقوا الزرادشتية رغبةً منهم في الحفاظ على مكانتهم السابقة، راحوا يعدلون العقيدة الأهورامزدية إلى عقيدة جديدة تقول بقصة مختلفة نوعًا..

اشتهر «الماجي» بالعمل المرتبط بالعبادات السرية، بل وبممارسة السحر، حتى أصبح اسمهم (Magic) معادلًا لممارسة السحر في اللغات الأوروبية، بينما عُرفوا في العربية باسم «المجوس».

هؤلاء «الماجي» قالوا بقصة مغايرة؛ فلم يجعلوا الروح الخبيثة مخلوقة أدنى من «أهورامزدا»، بل قالوا إن الإله الأول كان «زروان» ـ أي: «الزمان» ـ وكان يتوق لأن يكون له ولدٌ من نسله، فراح يقدم القرابين ويقيم الصلوات (وغير موضَّح لمن يقيمها إن كان هو الإله الأول)، لكنه تعرَّض لحالة من الشك في جدوى الدعاء والصلاة، فجوزي لذلك بأن انشق بطنه عن «أهريمان»، الإله الشرير، فأصابه الرعب والإنكار عندما قال له «أهريمان»:

ـ أنا ابنك وريث العالم.

فقال له:

- كلا! ابني طيب وأنت خبيث.. ابني نوراني وأنت ظلامي.

ثم سرعان ما وُلِدَ له «أهورامزدا»، فلمَّا أراد أن يوليه حكم العالم احتج «أهريمان» بأنه السابق في الولادة وهو بكر أبيه المستحق لخلافته..

فكلف «زروان» ابنه الطيب «أهورامزدا» لخلق العالم ليكون ساحة قتال بينه وبين أخيه الشرير «أهريمان»، وراحا يتبادلان سيادته فيحاول «أهورامزدا» إصلاح ما أفسد «أهريمان»، بينما يسعى هذا الأخير لإفساد صنع أخيه.. وهكذا حتى تنشب المعركة الأخيرة بين جيشيهما، جيش الخيرين يقوده «أهورامزدا»، وجيش الشر يقوده «أهريمان».. ثم ينتصر الخير ليسود العالم ويُمحَق الشر تمامًا..

تلك الصيغة الأخيرة للديانة الزرادشتية نمت حتى صارت هي الديانة الرسمية للإمبراطورية الفارسية..

■ ■ ■

وكأن الزرادشتية كانت تحاول تقديم «رسالة سلام» لكلٍّ من عالَمي البشر والآلهة..

فعلى مستوى البشر، كانت بلاد فارس غارقة في اقتتال أمراء الحرب من ناحية، والشعبين: الفارسي آري الأصل والطوراني تركي الانتماء، بل إن ممَّا تذكره بعض كتب التاريخ أن «زرادشت» نفسه قد قضى نحبه قتيلًا بسيف طوراني في اجتياح لبعض بلاد فارس، فاخترق السيف جسده بينما كان يصلي لـ«أهورامزدا»..

كانت دعوة الزرادشتية ورؤيتها لمفهوم الخير والشر في العالم بمثابة صرخة في وجه العنف والاقتتال؛ فهي تنهَى عنهما بصرامة، وهي لا

تجعل «أهورامزدا» إلهًا للفُرس وحدهم ـ كما كانت آلهة العراقيين أو المصريين ـ بل هو «إله عالمي» تشمل رسالته ورحمته الجميع..

فبينما كان المصريون يعتبرون أن باقي الشعوب من نسل أعداء الآلهة، وكان السومريون والبابليون يؤمنون أن آلهتهم إنما مهمتها أن توطِّئ أعناق الآخرين لهم، وكان ملوك «آشور» يأسرون آلهة الشعوب المغلوبة ويكتبون عليها أنها قد صارت سجينة للإله «آشور»، كان «زرادشت» يدعو لإله يأمر الإنسان أن يلقى عدوه مادًّا يد السلام له ليمتص ثورة غضبه..

ورؤية الزرادشتية لمفهوم الخير أنه الإعمار والتناسل والبناء كانت بمثابة «ثورة صامتة» على حالة القتال التي تنشر الدمار والهدم والقضاء على الإنسان بيد أخيه الإنسان؛ فهي إذًا منطلقة من حالة سخط على الأوضاع القائمة داخليًا وخارجيًا.. وهي بمثابة محاولة لإيجاد هدف إنساني مشترك بين الشعوب المتحاربة، هو: «الاشتراك في بناء العالم وإعماره»، عوضًا عن الهدف المعروف للملوك بأن يكثروا من التوسع وحيازة الغنائم وإخضاع الشعوب..

لهذا حولت الزرادشتية مفهوم الخير السابق عند الملوك، الذي كان «السيطرة والثراء وقهر الأعداء»، إلى مبدأ شرير من صُنع الروح الخبيثة «أنجرامainو»..

كذلك كانت الثورة الصامتة للزرادشتية موجهة ضد فكرة وجود «آلهة شريرة» أو أن «الآلهة خَلقت الخير والشر»، فاستُبدلت بها فكرة أن «الإله طيب وخيّر بطبيعته» وأن «الشر أوجدته الروح الخبيثة المتمردة على الإله».

ولهذا فإنها قد أنزلت رتبة الروح الشريرة من إله مساوٍ في القوة

للإله الطيب ـ مثلما كان «سِت» المصري لـ«أوزيريس» و«حورس»، أو «تيامات» لـ«مردوخ» العراقي أو «موت» لـ«بعل» الفينيقي ـ وجعلتها كائنًا أدنى..

وحاولت تلك الديانة كذلك تقديم حل لمشكلة «الشر» عند البشر؛ فالإنسان بطبيعته عُرضة للسخط على الإله/ الآلهة لخلقه الشر والبلايا النازلة ببني الإنسان، أو لسكوته عنها (وهي مشكلة فكرية ونفسية ما زالت قائمة عند الكثيرين حتى الآن من المنتمين لمختلف الثقافات والخلفيات الدينية)، فقدمت الزرادشتية الإجابة في شكل التزام «أهورامزدا» احترام «حرية الاختيار» التي أنعم بها على المخلوقات العاقلة؛ فهو لم يخلق الشر ولا هو راضٍ عنه، إنما هو يحترم الحرية، لكنه يدعم قوى الخير لتنتصر بحريتها على القوى الشريرة..

■ ■ ■

كذلك حاولت ديانة «زرادشت» أن توجِد حالة من السلام فيما يتعلَّق بالألوهية.. فهي لا تجعل السماء محلًّا لصراعات الآلهة حول منصب «الإله الأعلى»، إنما هي تقدِّم مفهوم «الإله الواحد»، وهو مفهوم «التوحيد»؛ فالفرق بين «الوحدانية» و«التوحيد» أن المفهوم الأول يعني: وجود إله أعلى معبود مع الاعتراف بباقي الآلهة.. أما التوحيد فهو: نفي وجود آلهة أخرى غير الإله الواحد الأعلى..

هذا المفهوم قضى على فكرة «صراع الآلهة».. فلا حرب بين إله طيب وآخر شرير كما «حورس» و«سِت»، ولا انقلابات بين الآلهة كما في قصة «أورانوس» و«كرونوس» و«زيوس»، ولا تمرد للآلهة على الإله الأول كما في قصة «تيامات» و«مردوخ».. بل هو إله واحد (أهورامزدا)..

■ ■ ■

لكن حالتَي السلام الأرضية والإلهية ارتدتا مرة أخرى إلى الوراء..

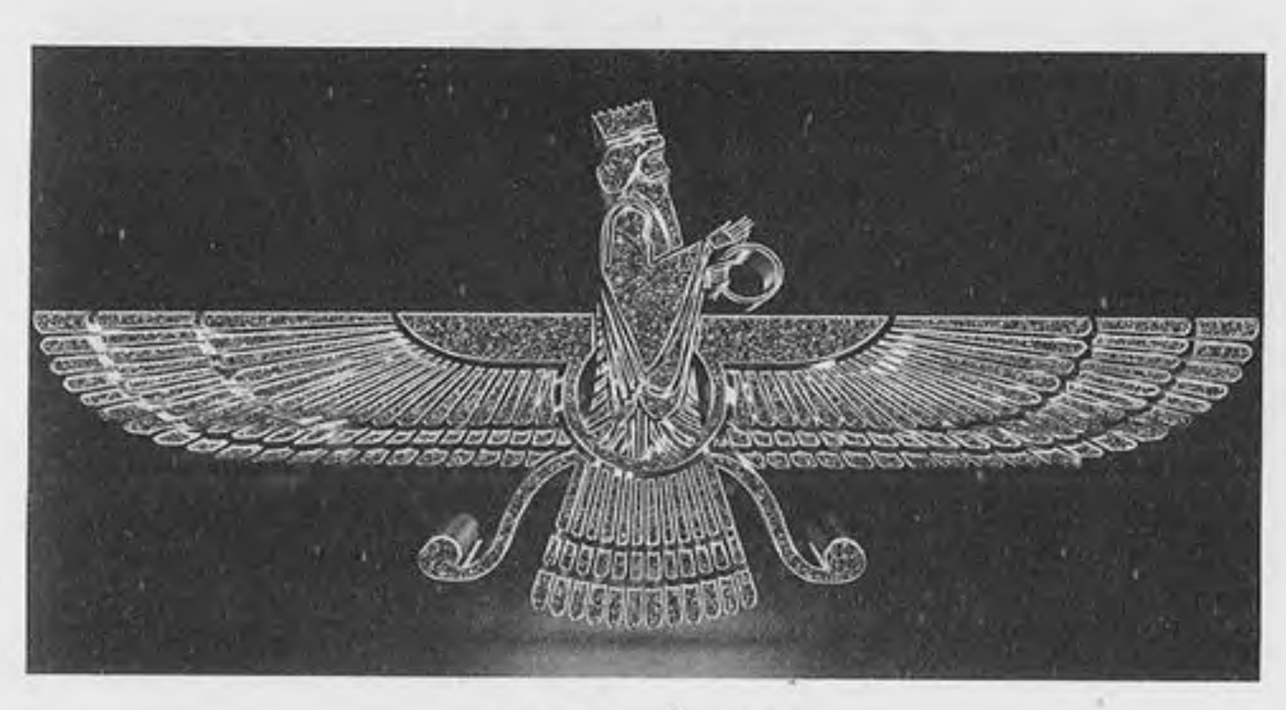
فسقوط الدولة الفارسية الأولى تحت ضربات جيش الإسكندر المقدوني قد أصابت الفُرس بالصدمة وانعدام الثقة بمفهوم السلام الأرضي مع الآخر.. ومن قبلها كان هذا المفهوم قد اهتز على أيدي الملوك الفُرس -أمثال «قمبيز» و«دارا» و«زرجسس» ـ الذين لم يعوا الجزء الدنيوي من رسالة «زرادشت» فامتشقوا السيوف غزوا وتدميرًا.. ومن بعد «الإسكندر» ظهرت صراعات «ملوك الطوائف» في بلاد فارس الذين حكم كل منهم إقليمًا وراح يتوسَّع منه.. ثم بعد ذلك أتت سلطة الأسرة الإشكانية، ثم انقلاب الأسرة الساسانية عليها وصراعاتها داخليًا مع رجال الدين وخارجيًا مع الإمبراطورية البيزنطية، فصار الحديث عن ارتباط السلام المُبَشَّر به في الزرادشتية والخير عبثًا.. والغالب أن الفارسي القديم المؤمن بـ«أهورامزدا» قد أصابته صدمة من «ضخامة» قوة الشر، ممثلةً في الحروب والكوارث والفتن، فلم يعُد يستوعب أن صانع هذا الشر كله مجرد مخلوق، بل لا بُدَّ أنه إله!

وبالتوازي مع ذلك انهار السلام السماوي الناتج عن «التوحيد».. فلم يعُد للعالم إله واحد، بل إلهان متساويان في القوة، هما: «أهورامزدا» و«أهريمان».. وظهرت العبادات «السرية» والديانات الأخرى، كعبادة «مثرا» أو دعوة «ماني» الذي تحدث عن عالَمي النور الخيِّر والظلام الشرير، أو دعوة «مزدك» الذي بشر بشيوعية للممتلكات والنساء.. فانهار الاتفاق على مفهوم الإله، وبالتالي الاتفاق التابع له على مفهوم الخير.. وبالتبعية انهارت الرؤية الموحدة لمفهوم الشر..

وربما لهذا ـ كما يقول الأستاذ فراس السواح في كتابه «الرحمن والشيطان» ـ ضعف الدين الزرادشتي في مواجهة الأديان الإبراهيمية: اليهودية والمسيحية والإسلام..

وبعد أن كان الفُرس يؤمنون بإله للخير تحاربه روح شريرة أدنى منزلة، أصبحت قوة الشر مساوية لقوة الخير، لتضيع واحدة من أكثر المحاولات نضجًا لتقديم مفهوم قوي للشر في الفكر الإنساني..

■ ■ ■



الإله «أهورامزدا»



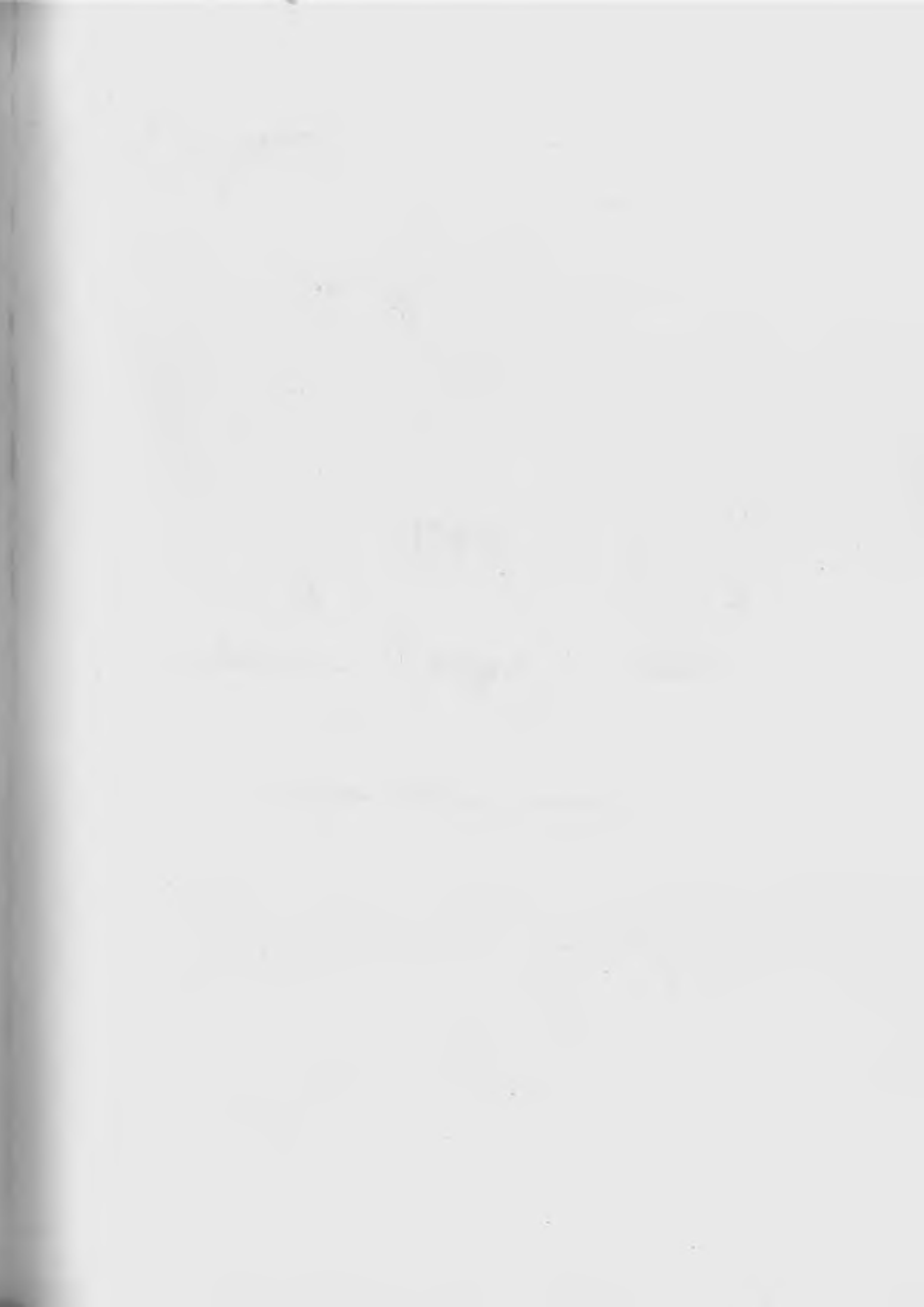
صورة تخيلية لـ«زرادشت»



VIII

«سخمت».. «أرتميس».. «عناة».. «عشتار».. «ليليث»..

الغضب الأنثوي المدمِّر



«حذارِ من غضب الأنثى؛ فإنه يجعلها كتلة من الدمار لا تُبقي ولا تذر»!

رسالة ضمنية قدَّمتها أساطير عدة لثقافات متنوعة، وضعت «غضب الأنثى» بين شرور العالم وبلاياه..

من «عشتار» العراقية لـ«سخمت» المصرية، مرورًا بـ«عناة» الفينيقية و«أرتميس» الإغريقية و«ليليث» التي انتقلت بين مختلف الثقافات..

ثَمَّة حقيقة تاريخية أن النظام الأمومي ـ الماترياركي ـ حيث للمرأة السيادة والسلطة بل والألوهية، قد سبق بكثير النظام الذكوري الأبوي ـ الباترياركي.

ثم وقع الانقلاب الذكوري، فصار الرجل سيدًا للعشيرة وكبيرًا للآلهة.. ولم يتوقف الانقلاب عند ذلك، بل راح يضمِّن الأساطير ما يشير إلى أن الأنثى التي كانت تمثل الأرض المعطاءة للخير والرَحِم التي تقدم الحياة أصبحت أحيانًا معدودة بين أرباب الشر..

وعلى الرغم من تضمُّن ديانات الأقدمين تأليهًا للمرأة وتقديمًا لها كإلهة أمٍّ راعية طيبة، كـ«إيزيس» في مصر على سبيل المثال، وعضدٍ لزوجها كـ«عناة» في فينيقيا، لكنها كذلك تضمنت ذلك التحذير سالف الذكر:

ـ احترس من غضب المرأة؛ فهو أحيانًا غير مبرر، وإن وُجِدَ له المبرر فإنه سرعان ما يتحول لغاية في حد ذاته وكأنه من شهواتها العظمى..

■ ■ ■

في الموروثات المصرية القديمة، نطالع نموذجًا للغضب الأنثوي في قصة «رع» وتمرد البشر..

تقول الأسطورة إن الإله «رع» قد أدركته الشيخوخة، وراح يسير مترنحًا وقد مال رأسه وتهاوى فكه السفلي فراح لعابه يسيل على الأرض..

وكانت الإلهة «إيزيس» تراقب سيد الآلهة وهي طامعة في الاستحواذ على «اسمه الأعظم» الذي يحتفظ به سرًّا لنفسه، فمن يملك هذا الاسم تتفتَّح له أبواب القدرة الإلهية وفنون السحر والسيطرة..

لاحظت «إيزيس» لعاب «رع» وهو يسيل، فالتقطت من التراب الممتزج باللعاب الإلهي وصاغت منه حشرة سامة ألقتها في طريق الإله في غفلة منه..

وبينما «رع» يمشي، إذ لدغته الحشرة وسرعان ما سرى سُمُّها في جسده، فصرخ الإله صرخة عظيمة ترددت في الأرض والسماء.. وهرع الآلهة ليروا ما أصاب كبيرهم..

رقد «رع» والحمى تجتاحه والآلام تعصف به.. راح يتلوَّى ألمًا وهو يطلق الاتهامات أن ثَمَّةَ من أراد به الشر..

ومع الآلهة، جاءت «إيزيس» وقد رسمت على وجهها أمارات الجزع.. وعبثًا حاول الأرباب علاج سيدهم بالتعاويذ والعقاقير، لكنه لم يتعافَ مقدار ذرة..

استجمعت «إيزيس» شجاعتها واقتربت منه وقالت له إنه ليس أمامه إلا أن يخضع لاستخدام اسمه الأعظم السري لطرد السم من جسده.. ولكن عليه أن يبوح به لها لترقيه به؛ لأنه لا يمكنه أن يرقي به نفسه..

حاول «رع» أن يراوغ ويتملَّص من هذا الأمر، فهو يعلم أنه إن أشرك أحدًا في هذا السر فإنه يشركه في قدراته الخارقة.. لكنه لم يتمكن من الصمود أمام الوجع فمال على أذن «إيزيس» وباح به لترقيه به وتشفيه..

ولتحوز قدرة تفوق ما كان يمكن للجميع أن يتخيلوا..

ضعْفُ «رع» وشيخوخته أغريا البشر بالتمرُّد عليه، فراحوا يجاهرون بالتجديف في حقه والسخرية منه والاستهزاء بألوهيته.. ولَمَّا تفشى بينهم التمرُّد بلغ ما يقولون مسامع «رع» الذي استشاط غضبًا وقرر إفنائهم..

استدعى الإله عينه المقدسة «سخمت».. و«سخمت» ابنته هي إلهة لها جسد امرأة ورأس ومخالب وأنياب لبؤة مفترسة.. مثلت «سخمت» بين يدي «رع» وتلقت أمره، أن تقضي على نوع البشر..

ولم يُرعَ البشر إلا ولبؤة ثائرة عملاقة تدهمهم فتجتاح جموعهم وتسفك دماءهم حتى راحت تخوض فيها بقدميها.. وعبثًا حاولوا الفرار إلا أن الوحش الغاضب راح يحاصرهم ويمزقهم إربًا..

أشرف «رع» من عليته على البشر يطالع المشهد، وبعكس ما توقع لم يثلج صدره تقتيل بني الإنسان واستشعر ندمًا يقرعه فصاح بـ«سخمت» يأمرها أن تكف عن القتل؛ لأنه قد عفا عمَّن تبقى من خلقه..

ولدهشته، رفعت «سخمت» رأسها إليه وصاحت به أنها لن تكف عن القتل لأنها إذ ذاقت طعم الدم البشري شعرت بنشوة عظمى وتوق لأن تشرب المزيد منه (في كتابه «أفراح المقبرة» يصفها أستاذي وصديقي دكتور أحمد خالد توفيق بأنها أول مصاص دماء في التاريخ)..

حاول «رع» أن يعيد ابنته إلى رشدها فراح يطلق التوسلات لها أن تكتفي بما سفكت من دماء، لكنها صمَّت أذنيها عن توسلاته وعادت تنقضُّ على من ألقاهم قدرهم الأسود في طريقها..

صار «رع» ينظر إلى خلقه وهم يفنون ثم سرعان ما واتته فكرة تشبث بها لعلها تنقذ البشرية من الفناء.. أمر بإحضار الآلاف من

جرار النبيذ الأحمر، وأن يُمزَج بمكونات تعطيه لون الدم فيُلقى في طريق «سخمت»..

وأسرع أتباع «رع» ينفذون أمره، فأحضروا النبيذ ومزجوه بالمطلوب ثم وضعوه حيث تراه الربة الدموية..

ولما رأت «سخمت» النبيذ حسبته دمًا، فمالت نحوه تعب منه في شراهة، حتى إذا ما تمكن النبيذ من رأسها ترنحت ثم استسلمت للرقاد والنوم..

وهكذا نجت الإنسانية من شراهة الربة اللبؤة للدم، لكنها بعد تلك الواقعة صارت إلهة للحرب والقتل والعنف.. فهي دائمًا في شراهة للدم بعد أن ذاقته..

وكعادة المصريين في أساطيرهم عن الآلهة، فقد تم تطويع وحشية «سخمت» لتصير موجهة ضد الأعداء، فهي تطير فوق ساحة القتال وترضي نفسها بتقتيلهم وتمزيق أجسادهم، بينما تطلق الزفرات رياحًا حارة أطلق لأجلها المصريون على الرياح الساخنة اسم «أنفاس سخمت»..

■ ■ ■

في عالم الحيوان، تلعب اللبؤة دورًا رئيسيًا في مملكة الأسود؛ فهي التي تتولى المطاردة وصيد الفرائس، وهي التي ترعى الأبناء وتدربهم، والويل لمن يقترب من عشيرة الأسود، فإن اللبؤات يكُنَّ أول من يستل عليه الأنياب والمخالب.. ومثال «لبؤة غاضبة» إذ توصف به أحيانًا الأنثى الثائرة غضبًا إنما هو خير دليل على خطورة غضب هذا الحيوان..

راقب المصريون بلا شك سلوك الحيوانات المحيطة بهم، وربطوا أغلبها بآلهتهم فجعلوا لغالب الآلهة هيئات تجمع بين الحيوانية والبشرية..

ومما راقبوا ـ حين كان بمصر أسود ـ اللبؤة وشراستها، التي تفوق تلك التي للذكور من نوع الأسود والسنوريات عامة..

بل لعل بعض عاثري الحظ من المصريين مِمَّن ألقاهم قدرهم في أثناء سفرهم أو صيدهم في طريق هذه الوحوش المفترسة قد قضوا بمخالبها وأنيابها، فشهد لها الجميع بالقوة والوحشية، خاصة ـ كعادة الحيوانات المفترسة ـ إذا ذاقت طعم الدم.. فالحيوان الذي شم أو ذاق الدم هو كابوس حقيقي لمن يواجهه..

لهذا استحقت اللبؤة أن تكون نموذجًا لغضب الإله..

ولَمَّا استقر وجود المصريين القدماء ومدينتهم وتحددت الحدود الفاصلة بين عالم البشر وعالم الحيوانات المفترسة، تحولت اللبؤة في وجدانهم الجمعي إلى حامية لمصر.. أجل؛ فوادي النيل تحميه من جانبيه صحراء مهلكة بما فيها من ضوارٍ لا ترحم..

لهذا استحقت «سخمت» مكانتها بين الآلهة..

ولأن الإنسان ـ خاصة المصري القديم ـ يربط لا إراديًا بين سلوك البشر وسلوك الحيوان، فقد ربطوا بين حنان الأمهات والبقرة فكانت الإلهة «حتحور»، وبين الثعبان والغدر فكان الثعبان الشرير «أبيب»، وكذلك بين اللبؤة المفترسة وغضب الأنثى فكانت «سخمت» لتمثل ليس فقط ربة الحرب وإنما الغضب الأنثوي المدمر إلى حد حب الاقتتال..

ومن يدري؟! ربما كان استخدام لفظ «اللبؤة» كسِباب في المجتمع المصري المعاصر ـ بينما هو صفة احترام في المجتمعات الشامية والعراقية ـ هو تأثر بسلوك اللبؤة الحقيقية التي إذا فقدت زوجها فإنها قد تحاول التقرب من السيد الجديد لعشيرة الأسود، على الرغم من أنها تفعل هذا

حماية لأبنائها من بطشه.. هو مجرد تخمين على أي حال..

■ ■ ■

جسد جميل ممشوق يغطيه رداء قصير لا يبلغ الركبتين، وجه شديد الجمال قاسي الملامح تعلوه نظرة متعالية.. ذراع قوية على الرغم من رشاقتها تنتهي بيد تمسك بقوس وأخرى تنتهي بيد ممسكة بالسهام، وفوق الرأس شعر مجمع إلى أعلى.. وإلى جوارها كلاب الصيد الشرسة..

إنها «أرتميس» الإغريقية، ربة الصيد والبراري..

منذ ميلادها بين الآلهة ظهر ميلها للصيد والمطاردات عندما طلبت من أبيها «زيوس» أن يهديها صندلًا ونطاقًا وجعبة سهام حادة وقوسًا قوية.. عُرِفَت بالبراعة في إطلاق سهامها القاتلة واشتهرت بالقسوة الشديدة..

حولها كلاب صيدها مرهفة الحواس سريعة الانقضاض حادة الأنياب، وترافقها حورياتها المحكومات بالعفة الأبدية، فإذا وقعت إحداهن في ممارسة فعل الجنس فإنها تلقى العقاب الشنيع، حتى إن لم يكُن هذا بإرادتها..

و«أرتميس» سريعة الغضب شديدة العقاب، وما أسهل ما يُثار غضبها، فإن تفاخر صياد ببراعته، أو تفاخرت امرأة بأن حسنها يقارب حسن الإلهات، أو أصاب صياد فريسة في غاباتها المقدسة، فإنها تنزع بهم الموت بلا تردد..

تراها عند سفوح الجبال ترسل الموت عبر سهامها باتجاه طرائدها..

ذات يوم، كانت تستحم في إحدى البحيرات مع بعض رفيقاتها، وتصادف مرور صياد روَّعه حسن الإلهة العارية فوقف مذهولًا، لكنها

لمحته فحوَّلته إلى ظبي وأطلقت خلفه كلاب صيدها التي مزقته إربًا وافترسته..

وفي مرة، أنعمت على أحد البشر بمرافقتها للصيد، فحاول التبسُّط معها ولمسها فاستدعت لتوِّها عقربًا لسعه فأرداه..

أحب أخوها الإله «أبوللو» فتاة، فزهت الفتاة بجمال أطفالها، ما أثار حفيظة «أرتميس» فقتلت حبيبة أخيها.. وأنجبت امرأة ستة ذكور وست إناث فتفاخرت بأن لها دستة من الأبناء بعكس «ليتو» - أم «أرتميس» و«أبوللو» - التي لم تنجب إلا ابنًا وابنة، فأطلقت «أرتميس» سهامها على الأبناء الاثني عشر لتقضي عليهم..

أما الرجل الذي لم يقدم لها قربانًا بمناسبة زواجه فقد أرسلت إلى غرفة زواجه الأفاعي تغزوها.. وذلك الذي نسي أن يقدم أولى ثمار محصوله قربانًا لها أرسلت عليه الدب - حيوانها المفضل - ليمزق أهل منطقته ويقضي على أسرته..

وفي ملحمة الإلياذة، نراها تغضب على الأسطول اليوناني المتوجه لغزو طروادة؛ لأن قادته لم يقدموا لها قربانًا فتمنع الرياح عن أشرعته، وتتشدد في غضبها فلا ترضى إلا بتقديم «أفيجينيا»، ابنة القائد «أجاممنون» أضحية بشرية لها..

وفي بعض قرى مملكة أثيكا اليونانية، كان دبها المدلل يمرح في الغابات فصادف فتاة فقتلها، فلمَّا قتله إخوتها غضبت عليهم «أرتميس» فأرسلت الوباء حتى بلغ أثينا ولم ترضَ إلا بتقديم المدينة المقدسة فتياتها راهبات لعبادتها..

■ ■ ■

كما سبق أن رأينا في الأساطير الإغريقية، فإن الشر الموجه من الآلهة للبشر على أقل هفوة أو خطأ ـ أو ربما من دون ارتكاب أي أخطاء ـ كان فوريًّا قاسيًا يصيب الصالح والطالح.. وكأنما آلهة الأوليمب سادة إقطاعيون من سادات أوروبا في العصور الوسطى، على الخاضع لهم أن يحني رأسه دومًا كيلا تصيبه بعض قذائفهم..

والميثولوجيا اليونانية هي الأكثر ازدحامًا بالنساء ذوات الغضب المدمر، لكن «أرتميس» كانت أكثرهن مسارعة لإنزال العقاب لأقل ذنب..

ولنحاول تفسير «المتلازمة» بين أنثوية «أرتميس» وارتباطها بنشاط الصيد، فغالبًا هي انعكاس قوي لفكرة «الإلهة الأم الكبرى» متسيدة الألوهية في العصر الأمومي.. والمعروف عن الإنسان في حياته الباكرة أنه كان يستشعر نوعًا من الذنب عند قيامه بسلب حياة فريسته، فكان يقدم القرابين والصلوات للإلهة دفعًا لهذا «الذنب الضروري لحياته»، وفي الوقت ذاته كان يستشعر العرفان لتلك الإلهة ـ الأم الكبرى ـ لأنها هي التي وهبته هذا الصيد، بل هي التي تهبه المزروعات ـ التي يسلب كذلك حياتها عندما يجنيها من الأرض ـ فكأنما «أرتميس» هي الأم الإلهة القديمة التي تعبِّر بقسوتها عن غضبها من تراجعها لمكانة متأخرةً عن الآلهة الذكور.. وتريد من خلال غضبها وشراستها الدائمة أن تقول: «أنا هنا.. أنا ما زلت هنا، وعليك أن تجاهد لترضيني وإلا فالويل لك».

من ناحية أخرى، فإن وحشية «أرتميس» وجنونية غضبها إنما هما بمثابة تفسير مستتر لتأخير الألوهية الأنثوية عن الألوهية الذكورية..

وهما كذلك انعكاس للنظرة السائدة بين الإغريق للمرأة؛ فهي

بالنسبة لهم ـ كما يبدو من أساطيرهم ـ كائن شهواني شرس عدواني غير متعقل، وغضبه غير متوقَّع، رهيب العواقب.. حتى إن الإله «زيوس» حين أراد ابتلاء البشرية فإنه قد ابتلاها بخلق المرأة الأولى «بندورا» التي أطلقت بحماقتها الشرور من عقالها..

وممَّا يُذكَر عن بعض فلاسفة اليونان القديم أنه قد قال إنه يشكر الآلهة أنها قد خلقته يونانيًّا لا بربريًّا، حرًّا لا عبدًا، رجلًا لا امرأة.. ومن المعروف عن قوانين الأثينيين أنها لم تكُن تمنح المرأة حق التصويت في الممارسات الديمقراطية ولا حق التقاضي بغير وكيل ذكر..

ولأن الأساطير هي انعكاس ـ بشكل أو بآخر ـ للتاريخ، فكان من الطبيعي أن تقدم ذكورية العقل المنتج للأسطورة الإغريقية نموذجًا كـ«أرتميس»..

■ ■ ■

ماذا عن «عناة» الفينيقية؟

بينما تقدم لنا أسطورة «بعل» و«عناة» نموذج الزوجة المخلصة المتفانية في حب زوجها إلى حد محاربة إله الموت لإنقاذه، تقدم لنا الأسطورة نفسها نموذجًا للمرأة الشرسة في غضبها..

فبعد انتصار «بعل» على «يم»، رب المياه، سخرت الربة «إيلات» من حفيدها لأنه ليس له بيت/ معبد عظيم يليق بألوهيته..

فاستشاطت «عناة» غضبًا واقتحمت بيت جدها «إيل» صارخة به، ما أفزعه فراح يفر منها من حجرة إلى أخرى وهي تطارده..

وخلف باب آخِر غرف قصره، راح «إيل» يرتجف وهو يتلقَّى وعيد «عناة» أن تهشم رأسه وتجعل شعره الرمادي يتضرج بالدم ولحيته ذات الشيب تكتسي بالدم المتخثر!

ويرضخ «إيل» للتهديد موافقًا على بناء معبد لـ«بعل» شريطة أن تنال «عناة» موافقة الربة «إيلات»، فتسارع «عناة» لتقديم الهدايا لجدتها وهي تمدح قرار جدها وتصفه بالحكمة..

ثم في نص آخر، ولسبب غير واضح، نجد «عناة» تدهم البشر، فتقوم ـ على حد وصف النص ـ بإطاحة رؤوسهم ودحرجتها كالكرات، وتأسرهم فتربطهم لحزامها ثم تغوص بهم في دماء الجنود القتلى وهي تسفك دماءهم بسهامها وهراوتها..

ويبلغ «بعل» ما تفعل زوجته فيسارع ببعث رسولين لها يبلغانها أمره أن توقف القتل والحرب وأن تعمل على نشر الخير والسلام والحب.. ويضمن رسالته معسول الغزل وكلام الحب.. فترتاع «عناة» وتحسب أن مكروهًا قد أصاب حبيبها، إلا أنها تتأكَّد من أنه بخير، فتسارع إليه ويرتفع البلاء عن البشر..

ولا تنسى «عناة» أن تعدد مآثرها ومظاهر قوتها في الحرب وهي تستقبل رسولَي زوجها.

■ ■ ■

لغيابِ كثيرٍ من سطور النص الأصلي، لا نعرف لماذا أنزلت «عناة» غضبها بالبشر بهذا الشكل الرهيب، وإلا لسهل علينا أن نحلل ذلك ونفسر الأسطورة..

ولعلنا نستطيع أن نستنتج من سرد «عناة» لـ«بطولاتها» أنها استشعرت إهانةً ما من قِبَل البشر فقررت أن تستعرضَ قوتها بالبطش بهم..

ومن الباعث على التأمل أن تبدأ سطور القصة بخوض «عناة» في الدم والجثث، ثم تنتهي بتبادلها الحب مع «بعل».. وكأنها تعبر عن رؤية

واضعيها لسرعة تقلُّب حال الأنثى وما بها من تناقضات..

■ ■ ■

«عشتار»، والويل من غضب «عشتار»، فإن ربة الحب والجنس الأم المعطاءة الموصوفة بأنها «منفرجة الركبتين دومًا»، سواء لتلقي فعل الجماع أو لتقديم فعل الولادة، هي ذات غضب مدمر عاصف..

فهي تحوم حول المعارك تشفي نفسها بمشاهد القتل والعنف..

وهي التي يضحي المتعبد المخلص لها بذكورته، فنجده يوم عيدها تنتابه النشوة ويغيب عن وعيه فيقطع أعضاءه التناسلية بيده ثم يركض في شوارع المدينة ممسكًا بما قطع من أعضاء يتناثر من جرحه الدم حتى يقع مغشيًّا عليه أمام بعض الدور، فيكون على سيد الدار أن يؤويه ويعالج جرحه ثم يُلبسه ثياب النساء ويقوده لمعبد «عشتار» ليصبح من خصيانها..

ولـ«عشتار» ـ وقرينتها السومرية «إنانا» ـ قصة عن الهبوط للعالم السفلي..

فـ«عشتار» قد قررت أن تزور العالم السفلي، عالم الموتى الذي لا يرجع منه مَن يدخله، فتقدمت بجرأة وطرقت أبوابه طالبة الدخول لزيارة أختها «أرشكيجال»، ربة العالم المظلم.. فلمَّا أُذِنَ لها راحت تدلف من أبوابه واحدًا تلو الآخر، وعند كل باب كان يُنتَزَع منها جزءٌ من زينتها الإلهية أو ثيابها.. حتى مثلت عارية أمام عرش «أرشكيجال» التي غضبت لجرأة أختها على اقتحام عالمها فأسرتها وأطلقت عليها ستين علة من علل الجسد قضت على «عشتار» التي رُبط جسدها ـ بأمر أختها ـ إلى عمود في قاع عالم الموتى..

ولأنها كانت تتوقع الشر من «أرشكيجال»، كانت «عشتار» قد لقَّنت وزيرها ما يفعل إن هي غابت، فلمَّا طالت غيبتها استطاع الوزير أن يبعث رسولًا إلى العالم السفلي، قام بإحياء «عشتار» وأخرجها وردَّ لها زينتها وثيابها حتى عادت لعالم الأحياء (ويفسر السومريون والبابليون بهذا تناقص القمر حتى يتحول إلى محاق ثم اكتماله تدريجيًّا بعد ذلك)..

ولكن كان شرط «أرشكيجال» لإطلاق «عشتار» أن ينال عالم الموتى ضحية بدلًا منها..

وعندما رجعت إلى بيتها فوجئت أن زوجها «تموز» جالس على عرشها وقد أهمل أن يؤدي واجب الحداد عليها، فثار غضبها ضده.. وسلطت عليه شياطين العالم السفلي لتأخذه ضحيةً لأختها عوضًا عنها.. فراحت الشياطين تطارد «تموز» وتضربه من مكان إلى آخر، حتى لقي مصرعه وحُمِلَ إلى العالم السفلي..

فقامت «عشتار» تنوح على زوجها وتشكو للآلهة الذين تدخلوا، فقضي بأن يقضي «تموز» قسمًا من العام في العالم السفلي وقسمه الآخر في عالم الأحياء.. ولتتكرر كل عام طقوس الموت والنواح ثم البعث والاحتفال بحياة «تموز»..

وفي ملحمة «جلجامش»، نجد «عشتار» قد أُعجبت بالبطل خارق القوة عظيم الأعمال، فتوددت إليه وعرضت عليه الزواج، لكنه سخر منها وراح يعيرها بالمصائر المظلمة لمن أوقعتهم في حبائل حبها، فاستشاطت غضبًا ودهمت مجمع الآلهة وهي تطلب من أبيها «إنليل» أن يمنحها الثور السماوي العملاق، وإلا فتحت باب عالم الموتى وتركتهم يلتهمون الأحياء..

فرضخ «إنليل» لطلبها وقدَّم لها الثور الذي أطلقته ليدمر أوروك

مدينة «جلجامش»، وتقدم الثور من المدينة المنكوبة وهو يطلق خوارًا تنشق الأرض له لتبتلع الأحياء، و«عشتار» جالسة على سور المدينة تضحك في شماتة وهي تنظر دمارها..

لكن البطل «جلجامش» وصديقه «أنكيدو» تمكّنا من قتل الثور وأهانا «عشتار» التي ثارت فأمرت الآلهة أن توقع الموت بأحد البطلين، ولما كان «أنكيدو» بشريًا كاملًا، بينما كان في «جلجامش» دم إلهي من جهة أمه، كان الموت من نصيب «أنكيدو» لتشفي «عشتار» غليلها من «جلجامش» الذي انهار لموت صديقه الحميم..

ولا تنحصر «عشتار» في الأساطير العراقية، فهي تنتقل إلى فارس في صفة «أناهيد»، نجمة الصباح أو «الزهرة»..

وفي كتاب «عرائس المجالس» لـ«الثعلبي النيسابوري» ـ وهو كتاب مزدحم بالتفاصيل التي لا يقرها المتخصصون في الأحاديث النبوية والتفاسير القرآنية ـ نقرأ أن «أناهيد» أو «الزهرة» هي المرأة التي أغوت الملكين «هاروت» و«ماروت» فعصيا اللـه فاستحقا العذاب الدنيوي.. وبسهولة نربط بين شخصية «الزهرة» وشخصية «عشتار» التي يدمر هواها من يقع في شباكه، خاصة أن القصة تدور في مدينة بابل!

ولعل «الثعلبي» قد تسللت إليه بعض بقايا أساطير «عشتار» وغواياتها المهلكة، فضمنها في القصة، وهو أمر ملحوظ في كتابه سالف الذكر..

بل لقد انتقلت «عشتار» إلى جزيرة العرب وبادية الشام والعراق في هيئة «العُزَّى».. و«العُزَّى» هو اسم مبالغة لـ«العزيزة»، وإن كانت «اللات» في المعتقد العربي قبل الإسلام هي زوجة الإله، فإن «العُزَّى» هي ابنته..

وهي ربة دموية قاسية باطشة، لها توق دائم إلى الدم والأضاحي؛ ولهذا فقد كان المتعبدون لها يذبحون عندها.. بل لقد كانت تقبل القرابين البشرية، حتى إن أحد ملوك المناذرة خلال حربه مع الغساسنة أسر ابن الملك وضحى به لـ«العُزَّى»، بل وضحى لها بأربعين راهبة مسيحية أسرهن من أرض عدوه..

وحتى في الموروث الإسلامي فإن «العُزَّى» تظهر بهيئة «عشتارية» - لو سمحتم لي بالتعبير - ففي قصة هدمها ومنع عبادتها تظهر لـ«خالد بن الوليد» - المكلف بهذا العمل - في هيئة امرأة عارية نافشة شعرها وهي تصرخ وتصرُّ على أنيابها.. وإن صحت القصة فلعل هذه المرأة كانت بمثابة «ممثلة» لدور الإلهة، لكن هيئتها تؤكد تأثر «العُزَّى» بـ«عشتار»..

■ ■ ■

«عشتار» هي أقوى نموذج بين أساطير الشعوب لفكرة «المرأة المغوية اللعوب القاسية عاتية الغضب شنيعة الانتقام»، على الرغم من أنها هي في الوقت ذاته المرأة العاشقة المحبة راعية الحب والمحبين والأم المعطاءة للخير..

وكأنها ينبهنا الوجدان الجمعي العراقي القديم للطبيعة المزدوجة للمرأة - حسب نظرته - فهي الحنون التي تصارح بحبها، لكنها المدمرة إذا استشعرت رفضًا لهذا الحب.. وهي التي تلقي بزوجها «تموز» إلى التهلكة في غضبها ثم ترجع إلى رشدها فتبكيه.. وهي التي ترعى الحب لكنها لا تبالي بأن تهلك الآلاف غضبًا لكرامتها..

وكأنها يتبنَّى ذلك الوجدانُ الجمعي تلك النظرةَ البدائية للمرأة، أنها «أصل الغواية» والتي تدمر غوايتها من يغشى نظره حبها.. وهي

المسيطرة ولو بدت ضعيفة، والقاسية ولو أظهرت الحنان..

■ ■ ■

بقيت لدينا شخصية أخيرة ـ وليست آخرة ـ تمثل «الشر الأنثوي»، هي «ليليث»، الشيطانة قاتلة الأطفال ومجهضة الحوامل..

شخصية «ليليث» وُلِدَت في مهد الثقافة العراقية القديمة تحت اسم «ليليتو»، وهي روح شريرة تطلق الرياح الحاملة للأمراض فتقتل الأطفال وتُمرض النساء الحوامل..

وفي بعض الأساطير حول «جلجامش»، نقرأ أن الإله قد خلق شجرة عملاقة فطمعت الربة «إنانا/ عشتار» أن تصنع من خشبها سريرًا وعرشًا.. لكن الشجرة سكنتها ثلاثة كائنات: طائر «الزو»، وهو طائر شرير شيطاني مُعادٍ للآلهة ـ وقد سكن أعلاها ـ والتنين وقد سكن أسفلها، أما في جوفها فقد سكنت «ليليتو» الشريرة..

لكن «جلجامش» هاجم ثلاثتهم، فقتل التنين، وفر منه طائر «الزو»، بينما طُردَت «ليليتو» إلى الصحارى أو إلى أشجار الصفصاف التي تختبئ في جوفها..

هذه الشخصية انتقلت إلى الموروث اليهودي القديم تحت اسم قريب هو «ليليث»..

تقول الأسطورة: إن «ليليث» كانت الزوجة الأولى التي اختارها الرب لـ«آدم» قبل أن يخرج من الفردوس، ولما حاول «آدم» أن يتودد إليها أظهرت التمرد ورفضت الخضوع لسلطته إلى حد أنها قد رفضت أن يرقد أعلى جسدها خلال الجماع..

وكانت تحتج على «آدم» بأنها مساوية له؛ لأنهما خُلقا في الوقت ذاته ولأن كلًّا منهما صُنِع بيد الإله..

وخلال بعض مجادلاتها معه، فوجئ «آدم» بها تنطق الاسم الإلهي الأعظم ـ المحرم نطقه ـ فاكتسبت قوة جعلتها تطير وتفر من الفردوس مخلفة وراءها «آدم» ومئات من الأبناء..

غضب الإله لما فعلت، فأرسل وراءها ثلاثة من الملائكة وكلفهم بالقبض عليها أو قتلها، وطاردها الملائكة حتى دهموها عند البحر الأحمر، فاستخدمت الاسم الأعظم مرة ثانية لتنجو منهم، لكنها وقعت تحت لعنة الإله لها أن تعقم فلا تلد وأن يموت كل يوم مائة من أبنائها..

وعوَّض الرب «آدم» بأن خلق له «حواء» من ضلعه..

وكان ما كان من وقوع «آدم» و«حواء» في الخطيئة وخروجهما من الجنة وتكليفهما بإعمار الأرض..

أما «ليليث»، فقد حقدت على «آدم» وزوجته، وقررت أن تقتل كل يوم من أطفال البشر وأن تجهض نساءهم الحبلى..

ومن هنا، تحولت «ليليث» إلى شيطانة تدهم البيوت في الليل فتقتل الأطفال وتفسد حمل النساء، بل قيل إنها قد تجعل الرجال يضاجعونها خلال نومهم وهم لا يشعرون.. أو أنها تظهر لهم في هيئة امرأة فاتنة وتغريهم بمضاجعتها ثم تقتلهم..

ولحماية أطفالهم، كانت الأمهات يضعن تمائم عليها أسماء الملائكة الثلاثة الذين طاردوا «ليليث»؛ لأن تلك الأخيرة تخشى مجرد رؤية هذه الأسماء.. وكذلك كُنَّ يضعن رسومًا لها وكتابة لاسمها؛ لأن ممَّا قيل عنها إنها تخشى كذلك رؤية اسمها.. وقد عُثر بالفعل على بقايا لتلك التمائم خلال التنقيب عن الآثار في بعض مناطق الشام..

جدير بالذكر أن شخصية «ليليث» قد ألهمت بعض الجمعيات

النسوية لتبنّي اسمها؛ حيث إن بعض النسويات ينظرن لها أنها بمثابة «الأنثى المتمردة على التحكُّم الذكوري»!

■ ■ ■

«ليليث» هي واحدة من أقدم نماذج «الغولة» أو «النداهة» أو «عرائس البحر».. فالأولى اعتقد العرب أنها تتخذ شكل أنثى وتقطع الطريق على المسافر لتستدرجه فتهلكه، والثانية يؤمن بعض أهل ريف مصر أنها تنادي الذكر باسمه ليلًا حتى يفقد رشده ويتبعها إلى هلاكه، أما عرائس البحر فقد جاء ذكرهن في ملحمة «الأوديسة» لـ«هوميروس»، أنهن يظهرن للبحارة على هيئة نساء فاتنات يغنين بأصوات ساحرة فيفقد البحار رشده ويتجه بسفينته إلى الصخور حيث يلقى مصرعه..

لكنها هنا لا تكتفي بالاستدراج، إنما تسعى بنفسها إلى ضحيتها، وضحاياها في الغالب هم الرُضَّع والأجنة..

وهي كذلك تذكرنا بـ«الروح الشريرة» التي تحوم حول مهد الطفل في الموروث المصري القديم؛ حيث اعتاد المصريون تلاوة رقية حول الطفل لتحصينه منها..

وفيما يبدو أن التأثر اليهودي بأسطورة «ليليتو» وتحويلها إلى «ليليث» قد تم خلال فترة «السبي البابلي» ـ وهو ما يفسر ورود هذه الأسطورة في التلمود وشروحه وليس في التوراة ـ وتبني الموروث اليهودي لها ما هو إلا تعبير عن حالة تشدد المتدينين اليهود ـ آنذاك ـ مع النساء ورغبتهم في تقديم نموذج سلبي للمرأة المتمردة على سلطة زوجها.. يبلغ حد تحويل المتمردة الأولى إلى شيطانة أنثوية تعادل الشيطان الذكر..

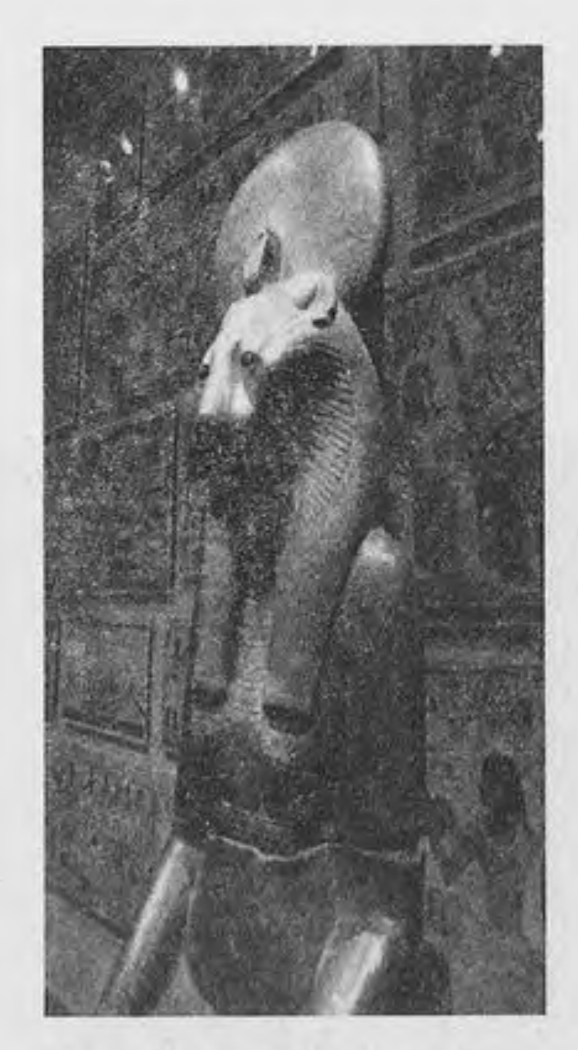
■ ■ ■

بشكلٍ عام، فإن تقديم نموذج «الأنثى ذات الغضب الأعمى المدمِّر» هي تيمة تتكرر في ثقافات مختلفة؛ فهي بمثابة صدى لذلك الانقلاب الذكوري في الزمن البعيد..

وهي كذلك محاولة لتحقيق التوازن بين احترام صفات الألوهية الأنثوية القديمة، من عطاء وأمومة وخصوبة، وفي الوقت ذاته تقديم ما يمكن وصفه بـ«التبرير» للانقلاب الذكوري بإبراز جوانب سلبية قاسية من الإلهة الأنثى تجعل المؤمنين بالإله الأكبر يشكرون قدرهم أن كبير آلهتهم ذكر ليكبح جماح الإلهات الإناث من الانسياق لانفعالاتهن المؤذية!

والأساطير عامة مولعة بتقديم التناقضات بشكل متساوٍ؛ فالضدان نراهما بدرجة القوة نفسها، وتعمل على «تكثيف» التناقضات بشكل يخدم الغرض منها.. ولما كان الغرض الدفين وراء أساطير «غضب الأنثى» هو غرضًا تبريريًّا لاستحواذ الذكر على السلطة الأرضية والألوهية، فقد كان من الضروري رسم شخصية تتمتع بتناقض صارخ وصادم وردود أفعال حادة ومبالغ فيها ليتحقق في نفس المتلقي الغرض المنشود..

■ ■ ■



«سخمت» إلهة الحرب المصرية



الإلهة «عشتار / إنانا» العراقية



«أرتميس» ربة الصيد والبراري الإغريقية



الإلهة «عناة» الفينيقية



لوحة تمثل «ليليث» للرسام جون كولييه



IX

«لوكي».. أبو المسوخ.. مُطلق «الراجناروك».. نهاية العالم!



كانوا مقاتلين أشداء غلاظ القلوب، يعتبرون أن الشجاعة هي الفضيلة العُظمى وأن الاستبسال في القتال هو العمل الأسمى وأن الموت في ساحة المعركة هو غاية الشرف..

عن «رجال الشَمال» المعروفين لنا باسم «شعب الفايكينج» أتحدث..

كان من الطبيعي إذًا أن يكون آلهتهم على شاكلتهم من المحاربين الأفذاذ، وأن تكون نقائض الشجاعة من جبن ومداهنة والتواء هي أكثر الصفات دناءةً وشرًّا في ثقافتهم..

لهذا كان من الطبيعي أن يكون الأرباب أمثال «أودين»، كبير الآلهة، وابنه «ثور»، رب الرعد المحارب، هم رموز الخير، وأن يكون «لوكي»، الخبيث الناعم، هو ممثل الشر..

■ ■ ■

قبل كل شيء(*)، لم يكُن من شيء سوى هاوية الظلام التي يحدها من الشمال عالم الظلام (نيفيلهايم) ومن الجنوب العالم الناري (موسبيلشايم).. ومن التقاء تيارات الصقيع الشمالي واللهيب الجنوبي تشكلت مساحة صلبة انبثق عنها العملاق «يمير».

من عرق الإبط الأيسر لـ«يمير» تشكَّل رجل وامرأة - في مثل عملقته - هما جدًّا العمالقة جميعًا..

وفي الجوار، كانت البقرة الأولى مرضعة العمالقة تلعق الملح الممتزج بالماء الناتج عن الجليد الذائب؛ فمن هذا الجليد انبثق كائن اسمه «بوري» أنجب ابنه «بور» الذي تزوج إحدى إناث العمالقة وأنجب الآلهة الثلاثة

(*) يمكن الرجوع للقصة كاملة ونص الأسطورة في كتاب Norse mythology من تأليف Neil Gaiman.

الأولى: «أودين» و«فيلي» و«في»، الذين بادروا بقتل العملاق «يمير» ومحاربة العمالقة وإفنائهم إلا من ذكر وأنثى هربا على متن قارب ليتناسلا وتنشأ منهما الأجيال التالية من العمالقة الذين انقسموا إلى «عمالقة الشمال الجليدي» و«عمالقة الجنوب الناري»..

وهكذا بدأت أولى العداوات بين الآلهة الملقب جنسهم بـ«الآسير» والعمالقة..

تقدم الآلهة الثلاثة من جثة «يمير» ومزقوها، فجعلوا من لحمه الأرض ومن دمه المياه ومن عظامه الجبال والمرتفعات ومن شعره الشجر ومن قمة جمجمته قبة السماء التي وضعوا بها الشمس والقمر والنجوم..

ومن الديدان الناتجة عن تحلل بعض أعضاء «يمير» نشأ «الأقوام»، وهم صانعو أسلحة الآلهة، وكانوا يعيشون تحت الأرض، ولم يتناسلوا لأنهم كانوا جميعًا من الذكور، إلا أن قائدهم قد مُنِحَ القدرة على تجديد خلقهم ليعوِّض غياب من يموت منهم..

كانت الأرض تتوسَّط هاوية الشمال وجحيم الجنوب فأطلق عليها اسم «الأرض الوسطى» أو «ميدجارد»، وعلى تلك الأرض وجد «أودين» و«في» و«فيلي» شجرتين يابستين فحولوا إحداهما إلى رجل اسمه «آسك» والأخرى إلى امرأة اسمها «أمبلا»، هما أبوا الجنس البشري..

وكان بين مساكن الآلهة وأرض البشر جسر ضخم على هيئة قوس قزح اسمه «بيرفروست»، عيَّن الآلهة لحمايته «هيمدال» الذي راح يراقب الآفاق ممسكًا ببوق لينفخه إنذارًا بأي خطر يتعرَّض له «آسجارد»، عالم الأرباب..

راح جنس «الآسير» من الآلهة يتكاثر، فجاء منهم الأرباب وعلى رأسهم «ثور»، رب الرعد، وآلهة أخرى مثل «بالدر» المشرق و«هوم» الأعمى و«كفاسير» الحكيم، وغيرهم..

ومن زواج إلهة شابة وعملاق فظ، جاء «لوكي»، الذي عقد مع الإله «أودين» «عهد أخوة الدم» وأصبح من حقه أن يتخذ لنفسه مكانًا على مائدة الأرباب..

كان «لوكي» وسيمًا لكنه كان خبيثًا ناعمًا كالأفاعي، وكان مولعًا بالمقالب القاسية وارتكاب الأفعال المؤذية، وما زاد الطين بلة أنه امتلك القدرة على الطيران والتشكل في أي هيئة يريدها.. ومع ذلك كان إذا شرب الخمر ـ وقد كان مدمنًا لها بالفعل ـ فقد السيطرة على لسانه فتفوه بالإساءات للآلهة الذين استضافوه احترامًا لعهد الدم مع كبيرهم..

■ ■ ■

في أرض البشر كان القانون الأول هو القوة، والفضيلة العليا هي الشجاعة، وكان المقاتلون يهرولون من دون تردد إلى ساحات القتال، وأقصى غاية أحدهم أن تنتهي حياته في أرض المعركة ممسكًا بسلاحه..

وكانت لـ«أودين» حوريات مقاتلات هن الـ«فالكيري»، كن يطُفن على صهوات جيادهن المجنحة بساحات القتال وينتقين من اختارهم «أودين» من الشجعان ليقضوا نحبهم في المعركة فيستحقوا أن يرتقوا بعد موتهم فينتقلوا إلى الجنة (فالهالا)، حيث يقضون حياتهم الأخرى في حفلات شراب ومرح ومبارزات في حضرة «أودين» الجالس على رأس المائدة وعلى كتفيه غرابان ينبئانه ما يجري في عالم البشر..

أما من يموت ميتة لا شرف فيها، كأن يقضي عليه مرض أو يموت على فراشه أو وهو يفر من الحرب أو لأي سبب لا صلة له بالقتال، فكان ينتقل إلى «نيفيلهايم»، حيث يعيش روحًا هائمة معذبة بالعار في عالم بارد مظلم كئيب..

■ ■ ■

كان «لوكي» قد تزوج الربة «سيجني» التي أنجبت له ابنين، هما: «نافري» و«فالي»، لكنه كان صاحب نزوات فكان يدخل في علاقات مريبة مع العمالقة أعداء الآلهة..

ذات يوم استدعاه «أودين» لحضرته، فلمَّا مثل بين يديه قال له كبير الأرباب:

ـ لك أبناء!

حاول «لوكي» إخفاء اضطرابه وهو يجيب:

ـ لي ابنان من «سيجني»، هما: «نافري» و«فالي».

رمقه «أودين» بعينه السليمة ـ وكان قد ضحى بالأخرى مقابل أن يشرب من نبع الحكمة العظمى ـ وقال:

ـ بل لك أبناء غيرهما، فلا تكذب!

ثم أردف:

ـ أعلم أنك كنت تتسلل إلى أرض العمالقة وتمارس الحب مع العملاقة «أنجربودا» وأنها قد أنجبت لك ثلاثة أبناء، وفي منامي رأيت أنهم سيمثلون التهديد الأكبر لجنس الآلهة!

ثم استدعى «أودين» الأرباب وعلى رأسهم «ثور» والإله «تاير» وأعلمهم قراره أن يذهبوا لأرض العمالقة حيث يلقون أبناء «لوكي»..

وبعد مشاق ومخاطر، بلغ الآلهة قلعة العملاقة «أنجربودا»، حيث وجدوا الأطفال الثلاثة يلهون في قاعتها الواسعة..

كان الأطفال الثلاثة هم: الأفعوان «يورمونجوندر»، صاحب السم الأسود الحارق القاتل، والذئب العملاق «فنرير»، ذو الأنياب الضخمة الحادة، والطفلة «هيل»، التي كان نصفها الأيمن لفتاة جميلة خضراء العين ونصفها الأيسر لجثة متحللة تبرز عظامها النخرة..

قيّد الآلهة الأبناء الثلاثة وحملوهم إلى «آسجارد» لينظروا ما يفعلون بهم..

وخلال رحلة العودة، لاحظ الآلهة أن أبناء «لوكي» كانوا ينمون نموًّا سريعًا مذهلًا..

في مجلس «أودين» وأسرته، راحوا يتشاورون أولًا في شأن الأفعوان «يورمونجوندر»؛ فهو عصبي عدواني يقذف السم على مَن يقترب منه.. فقر رأي «أودين» أن يذهبوا به لحافة «ميدجارد»، الأرض الوسطى، ويلقوه في البحر..

وراح «أودين» يرمق الأفعوان وهو يسبح في المياه، وهو يتساءل في قرارة نفسه إن كان قد أصاب في قراره بشأنه..

ثم اهتموا بشأن الطفلة «هيل» ـ نصف الحية نصف الميتة ـ فسألها «أودين»:

ـ أحية أنت أم ميتة؟

فأجابت بهدوء:

ـ انا ابنة «لوكي» و«أنجربودا».. فقط.

ثم أردفت:

ـ لكنني أفضل الموتى على الأحياء؛ فالأحياء ينظرون لي بكراهية بينما ينظر لي الموتى باحترام.

قر رأي «أودين» أن يجعلها سيدة «نيفيلهايم»، عالم الظلام، حيث أرواح من ماتوا لسبب غير القتال وأن يصبح هؤلاء هم رعيتها.. فابتسمت الفتاة حين قادها للأرض المظلمة وأراها قاعتها.. أمسكت بطبق وقالت:

ـ سأسمي طبقي الجوع.

ثم رفعت سكينًا وقالت:

ـ وسأسمي سكيني المجاعة.

وأردفت:

ـ أما فراشي فسيكون فراش المرض!

رجع «أودين» إلى الأرباب المتحلقين حول الابن الثالث ـ الذئب «فنرير» ـ وهم يتأملون ضخامة بنيته وفكيه المنفغرين عن فم واسع يقود إلى جوف عميق..

راحوا يتشاورون في أمره، وحده الإله «تاير» كان يتعامل مع الذئب بغير خوف، كرجل يداعب حيوانه المدلل..

فكر «أودين» ثم قال:

ـ هلموا نختبر قوته.

ثم قال لـ«فنرير»:

ـ سنقيدك بالسلاسل ونرى ما إذا كنت تستطيع أن تحطم قيدك.

استكان «فنرير» للآلهة وهم يقيدونه، حتى إذا ما انتهوا من إحكام وثاقه أشار له «أودين» فشد الذئب عضلاته ممزقًا قيوده بسهولة..

فأتوا بقيد أثقل وأشد متانة، لكن الوحش تخلص منه كمن يقطع خيطًا رقيقًا..

وراح الآلهة يثقلون كل مرة من قيود «فنرير» الذي كان ـ لدهشتهم ـ يمزقها وهو يتفاخر بقوته التي ـ على حد قوله ـ تفوق قوة أقوى الآلهة!

أخيرًا تفتق ذهن «أودين» عن خدعة، فأمر الأقزام أن يصنعوا له قيدًا لا يتمكن أحد من الفكاك منه، فجاؤوه بخيط حريري رقيق مصنوع بوسائل سحرية، وأكدوا للإله أن حتى الآلهة لا يستطيع أحدهم قطعه..

تقدم «أودين» من «فنرير» وقال له:

ـ تعال نجرب أن نقيدك بهذا.

فسخر منه الذئب قائلًا:

ـ أنت تستهزئ بي؛ لأنني إن تمكنت من تمزيقه فسيضحك الجميع على الذئب الذي استعرض قوته لقطع خيط حريري، وإن لم أتمكن فستكون قد خدعتني وتمكنت من تقييدي!

فأجابه «أودين» بسخرية مماثلة:

ـ بل أنت تدرك عجزك عن الخلاص منه فلهذا تخشى أن نقيدك به.

وبعد جدال، وافق «فنرير» أن يتم ربطه بالقيد الحريري بشرط أن يضع أحد الأرباب يده بين فكي الذئب، فإن أحس غدرًا فسيقطعها بأنيابه الحادة..

تردد الآلهة لكن «تاير» ـ الذي كان يأمل في انضمام «فنرير» إلى الآلهة ليستفيدوا من قوته ـ تقدَّم فوضع يده حتى المعصم بين أنياب الوحش، بينما راح «أودين» يقيد الذئب ابن «لوكي»..

وعندما أشار «أودين» لـ«فنرير» أن يمزق قيوده شد هذا الأخير عضلاته محاولًا الخلاص، إلا أنه سرعان ما أدرك عجزه عن ذلك فالتمعت عيناه بالغضب.. هنا نظر له «تاير» وقال:

ـ هلم.. افعلها.

فقضم الذئب يده لتوه.. وبهدوء انسحب «تاير» ليضمد جرح كفه المقطوعة..

قاد الآلهة الذئب حيث أرض شديدة الانخفاض إلى حد أن قاعها

كان أعمق من قاع المحيط، فربطوه لحجر بضخامة الجبل ثم ألقوه فيها، وقبل أن يدفعوه منها نظر الذئب لـ«أودين» قائلًا بكراهية:

ـ سأنتقم منكم جميعًا عندما يحين آخر الزمان، سألتهم الشمس والقمر، لكن سعادتي الكبرى ستكون حين أفترسك أنت يا «أودين»!

وهكذا تخلص «أودين» من الأبناء الأشرار الثلاثة لـ«لوكي»، ولكن إلى حين..

■ ■ ■

كان «لوكي» صديقًا لـ«ثور» في الظاهر، بينما كان في باطنه يضمر البغض والحسد له، بل وللآلهة كلهم..

وكان «أودين» يرقب الصديقين وهما يخوضان معًا المغامرة تلو الأخرى، ويعين كلٌّ منهما الآخر، لكن رؤيته الخارقة للزمن كانت تنبئه أن أحدهما لا بُدَّ سيقود الآخر لمصرعه..

بالتأكيد كانت نفس «أودين» تحدثه بالخلاص من «لوكي» بالتقييد أو النفي أو حتى القتل، لكنه كان ملتزمًا بعهد الدم الذي لا يعرف أحد غيره متى كان ولِمَ، فرضِيَ بأن يضع الفتى المشاكس الخبيث تحت رقابته الصارمة لعله يستفيد ويفيد الآلهة من دهائه الشديد.. والحق أنه كان كثيرًا ما يفيدهم به.. فكان في هذا تعزية لهم عن ريبتهم في غدر محتمل من ربيب كبيرهم..

وعلى الرغم من اجتهاد الأرباب في معاملة «لوكي» كواحد منهم ـ لعل ذلك يزيل سواد نفسه ـ فإنه لم يكُن يحمل لهم إلا الحسد والحقد لمكانتهم عند البشر والمخلوقات..

لهذا لم يكُن غريبًا أن يرتكب «لوكي» جريمة كانت بالنسبة للآلهة

ـ وللعالم كله ـ نذير ملحمة نهاية الزمان «الراجناروك»..

■ ■ ■

كان «بالدر» الشاب هو الإله المحبوب من كل آلهة «آسجارد»..

كان وسيمًا مشرق الوجه إلى حد أنه كان إذا مر بمكان ألقى عليه ضوءًا كضوء الشمس، وإذا مر بمرج أو شجر اهتزت الأعشاب والأشجار طربًا.. باختصار: كان وجوده يبعث السعادة والراحة لكل من يلقاه..

لكنه كان يتألم؛ فالكوابيس البشعة كانت تداهمه وتفسد نومه.. مشاهد بشعة لذئب يبلع الشمس والقمر، لإخوة يذبح بعضهم بعضًا، لظلام وموت يعمان كل شيء حي..

وكان يستيقظ من نومه مفزوعًا باكيًا.. ولا تجدي معه محاولات زوجته «نانا» وابنه «فورسيت» لتهدئة روعه..

أخبر «بالدر» الآلهة بأمر كوابيسه، فراحوا يتشاورون في تفسيرها حتى أعياهم التفكير، بينما كان «لوكي» يبتسم في قرارة نفسه..

أما «أودين» فقد أزمع أمرًا أسره في صدره..

ارتدى عباءته الثقيلة وقبعته عريضة الحواف اللذين كان يتنكر بهما حين يرغب في الطواف بأرض البشر.. راح يطوف ويسأل عمَّن يبرع في تفسير الأحلام، وأخيرًا وجد من نصحه بالتوجه شرقًا حيث وجد كاهنة اشتهرت بتفسير الرؤى..

وفي أقصى الأرض شرقًا، اكتشف أن هذه الكاهنة كانت قد ماتت منذ زمن بعيد، فوقف أمام قبرها وراح يقوم بطقوس استدعاء الموتى، وسرعان ما وجد روحها تمثل بين يديه..

ـ مَن أنت يا مَن أحضرني مِن أرض الظلام؟

سألته فأجابها:

ـ أنا التائه ابن المحارب.

ضحكت وقالت:

ـ بل أنت «أودين»!

ذُهل الإله لكشفها أمره، وراح يتمعَّن في ملامحها التي بدت له مألوفة، أخيرًا تبيَّن أن الروح الماثلة أمامه هي «أنجربودا» العملاقة التي أنجب منها «لوكي» مسوخه الثلاثة..

ضحكت «أنجربودا» ساخرة وقالت بشماتة:

ـ جئت تسألني عن تفسير حلم «بالدر».. عُد يا «أودين».. عُد إلى أرضك.. واعلم أن «الراجناروك» ـ ملحمة النهاية ـ تقترب!

ثم أردفت:

ـ أما أنا فلن يراني أحد حتى ألتقي من جديد زوجي «لوكي» بعد أن يتحرر من قيوده..

لم يفهم «أودين» الجزء الأخير من عبارتها، فـ«لوكي» ليس مقيدًا..

واختفت الروح، وعاد «أودين» لقصره، حيث أخفى أمر ما جرى عن الجميع إلا عن زوجته «فريج»، أم الآلهة..

راحت «فريج» تسخف من أمر الكوابيس ونبوءة الروح الشريرة، لكنها لم تشعر ـ على الرغم من ذلك ـ بالراحة..

فغادرت قصرها وقد ارتأت فكرة قد تحمي «بالدر» الحبيب من السوء..

راحت تطوف على كل المخلوقات وتأخذ من كل منها عهدًا ألا

تؤذي «بالدر».. طافت بالحيوانات والطيور والحشرات والنباتات والبشر والحجارة والماء وحتى المعادن.. ومن كل منها حصلت على العهد الغليظ..

إلا أنها أغفلت نبتة صغيرة لم تجد منها خطرًا يُذكَر فتجاهلتها..

■ ■ ■

وفي مجلس الآلهة، بشرت «فريج» زوجها وأبناءها أن «بالدر» قد صار محصنًا من كل شيء، ولكي يتأكد الأرباب راحوا يجربون أن يلقوا على الإله الشاب الحجارة والمعادن، فكانت تحيد عن جسده أو تتحطم قبل أن تصيبه..

وأعجبت اللعبة الآلهة فراحوا يلقون الحجارة الثقيلة والسيوف والسهام على أخوهم ويشهدون تحطمها ووقوعها وهو يضحك وهم يضحكون معه..

فقط اثنان لم يشاركا في اللعبة: «لوكي» الذي راح يراقب ما يجري وهو يدبر أمرًا، و«هود»، الإله الأعمى، الذي كان لا يرى ما يحدث لكنه يسمع الضحكات فراح يسأل في حيرة عن الأمر..

انسحب «لوكي» وتنكر في هيئة امرأة ثم عاد وتقدم من «فريج» قائلًا لها:

- لا بُدَّ أنك فخورة بابنك.. لكنني لو كنت أمه لخشيت أن يصيبه مكروه ممَّا يُقذَف عليه.

نظرت «فريج» للمرأة وأجابت:

- إنه محصن.. لا شيء يمكن أن يؤذيه.

فسألتها المرأة:

ـ كيف؟ـ

فأجابتها:

ـ أخذت عهدًا من كل شيء ألّا يؤذيه.

عادت المرأة تسأل:

ـ كل شيء؟

فأكدت «فريج»:

ـ كل شيء.

ثم أردفت باستهانة:

ـ عدا نبتة صغيرة لم أجد منها خطرًا لضآلة حجمها وضعف قوامها.

وعندما نظرت «فريج» لابنها الجميل ثم التفتت لم تجد المرأة إلى جوارها..

انسحب «لوكي» المتنكر وهرع إلى حيث النبتة المذكورة، فقطفها وصنع منها سهمًا أخفاه بين طيات ثيابه ثم عاد للجمع الذي كان لا يزال يمارس عبثه المرح..

تقدم «لوكي» من «هود» الأعمى الذي كانت علامات الأسى تعلو وجهه، سأله «لوكي»:

ـ «هود».. لماذا أنت حزين؟

فأجابه الإله:

ـ أسمعهم يمرحون ولا أعرف ما الذي يضحكهم، وأشعر بالحزن لأني لا أشاركهم مرحهم.

فقال له «لوكي» بنعومة:

ـ لقد قامت «فريج» بتحصين «بالدر» بأن أخذت عهدًا من كل شيء ألَّا يؤذيه، والأرباب يلقون عليه الحجارة والأسلحة ويتسلون بمشاهدتها تحيد عنه أو تتحطم على جسده.

ثم أردف مشجعًا:

ـ هلم، تعال شاركنا اللعبة.. سأضع لك سهمًا وأوجهك لتلقيه نحوه لتشاركهم المرح.

تحمَّس «هود» بسذاجة للفكرة، صاح «لوكي» بالجمع أن يفسحوا مجالًا لأخيهم الضرير ليلقي سهمه على «بالدر» الذي وقف مبتسمًا يشجع أخاه أن يلقي عليه سهمه.. أخيرًا تشجع «هود» وألقى سهمه على «بالدر»..

لكن ذلك السهم كان من صُنع «لوكي»، من النبتة التي لم تأخذ منها «فريج» العهد..

وأمام الأعين المذهولة للآلهة، أصاب السهم «بالدر» في مقتل.. نظر «بالدر» إلى السهم المخترق جسده ثم هوى ميتًا..

إزاء حالة الوجوم والصمت التي سادت المكان، ثم صريخ «فريج» الملتاعة، تساءل «هود» بخوف:

ـ ما الذي حدث؟

فأجابه «لوكي» هامسًا بصوت لا انفعال فيه:

ـ يا للأسف.. لقد قتلت أخاك!

■ ■ ■

همَّ بعض الآلهة بالفتك بـ«هود» المسكين، إلا أن «أودين» نهرهم مذكِّرًا إياهم أنهم في مكان مقدس..

تشاوروا فيما يفعلون لإنقاذ أخيهم الميت، فلأنه قُتِلَ بشكل عبثي فهذا يعني أنه لن يستحق اللحاق بمن قضوا بشرف وسيقوا إلى الجنة (فالهالا)، بل سيكون من سكان «نيفيلهايم» تحت حكم «هيل» ابنة «لوكي»..

هنا طرقت فكرة أبواب أذهانهم: «هيل»، لماذا لا يبعثون لها من يفتدي «بالدر» ويحرره من «نيفيلهايم»؟

أعجبت الفكرة «أودين» فسألهم عمَّن يتطوع للسفر إلى الأرض المظلمة، فتقدم الإله الشاب «هيرمود» معلنًا اعتزامه ذلك..

وبينما راح الآلهة يعدون جنازة «بالدر»، كان «هيرمود» يمتطي جواد «أودين» ذا القوائم الثمانية ناهبًا الأرض في الطريق إلى «نيفيلهايم»..

■ ■ ■

في جنازة «بالدر»، اصطف الآلهة وهم يضعون جسده في قارب ويدفعونه إلى الماء مع مقتنياته وفرسه.. وبينما هي تشاهد جثمان زوجها محمولًا على الأكتاف، صرخت «نانا» بعنف ثم سقطت ميتة، فحملها الأرباب ليضعوا جثمانها إلى جوار جثمان زوجها..

ومال «أودين» على جسد ابنه فهمس في أذنه بكلمات لم يعرفها سواهما، ثم خلع الإله حلقة المحاربين الذهبية من ذراعه ووضعها في ذراع «بالدر».

أخيرًا أطلقوا السهام المشتعلة على القارب ليحترق على طريقة كلٍّ من البشر والآلهة في تكريم جثث موتاهم..

في أثناء ذلك، كان «هيرمود» يصل إلى «نيفيلهايم» ويمثل بين يدي «هيل»، التي سمحت له بلقاء روح أخيه..

عانق «هيرمود» أخاه ثم التفت إلى ملكة عالم الموتى يسألها أن تحرر «بالدر» وتعيده إلى الحياة..

من فوق عرشها، أبدت «هيل» الاستنكار لطلبه، فراح «هيرمود» يلح عليها وهو يخبرها أن المخلوقات كلها حزينة على الإله الجميل القتيل..

هنا لمعت العين السليمة لـ«هيل» وقالت:

ـ تقول كل المخلوقات حزينة عليه؟

أجابها:

ـ نعم.. الكل ينوح ويبكي «بالدر» الحبيب.

تفكرت قليلًا ثم قالت:

ـ إذًا على الكل أن يعلنوا صراحة ومباشرة حزنهم عليه، كل مخلوق بلا استثناء، لو تم هذا سأعيده للحياة، ولكن لو بكى عليه الجميع عدا مخلوق واحد فستستحيل عودته، حتى أنا «هيل» لن يكون لي أن آمر بذلك.

شكرها «هيرمود» ثم عانق أخاه مجددًا، واعدًا إياه أن يرجعه للعالم المضيء، وقبل أن يرحل ناوله «بالدر» حلقة «أودين» التي أودعها ذراعه في جنازته، لتكون دليلًا أن «هيرمود» قد أدى مهمته..

وفي أثناء عودة «هيرمود» متهللًا بالأمل، كان «أودين» قد رُزِقَ ابنًا جديدًا عوضًا عن «بالدر»، ابنًا سمَّاه «فالي».. وبينما الآلهة في غفلة، تسلل «فالي» إلى «هود» قاتل أخيه وذبحه انتقامًا!

■ ■ ■

راح الأرباب يطوفون بالعالم يطلبون من كل مخلوق أن يبكي «بالدر»،

سلمون وحاول أن يفر إلى البحر عبر النهر، لكن الإله الحكيم «كفاسير» علم بخدعته فنبَّه «ثور»، الذي وثب في الماء وقبض على «لوكي»..

اقتاد الأرباب أسيرهم إلى كهف، حيث وجد بانتظاره زوجته «سيجني» وابنيه «فالي» و«نارفي»..

قيَّدوا «لوكي»، ثم بكلمات سحرية حوَّل «كفاسير» «فالي»، ابن «لوكي»، إلى ذئب ضخم، فزمجر الذئب ثم فجأة التفت إلى أخيه «نارفي» ومزقه إربًا، ثم انطلق هاربًا..

هكذا تحقق عدل الآلهة من وجهة نظر «كفاسير»، فكما تسبب «لوكي» في قتل أخٍ أخاه شهد ابنًا له يقتل شقيقه!

ولأنهم لا يستطيعون قتل «لوكي» بحكم عهد الدم، فقد قرروا معاقبته بشكل أبشع..

طُرِحَ «لوكي» أرضًا وقُيِّدَ في وضع المصلوب بأمعاء ابنه القتيل، وثبتت فوق أطرافه حجارة ثقيلة..

ثم جيء بثعبان ضخم فوُضِعَ على صدر الشرير وعنقه، وراح الثعبان يقطر سمه فوق وجه «لوكي» الذي راح يطلق الصرخات الرهيبة والسم يحرق وجهه ويذيب عينيه..

أما «سيجني»، زوجته، فقد أعطاها الآلهة الحق أن تنصرف معهم إلى «آسجارد» أو أن تفعل ما بدا لها.. وللدهشة فإنها على الرغم من كل شيء كانت لا تزال أسيرة حب زوجها، فقررت البقاء إلى جواره ومعها وعاء تضعه تحت أنياب الثعبان لينزل فيه السم بدلًا من السقوط على وجه حبيبها.. لكنها كانت تضطر للقيام كلما امتلأ الوعاء لتفرغه، فكان السم يواصل حرق وجه «لوكي» وكانت صرخاته تعود لتتردد..

وبينما انصرف الأرباب راضين عمَّا عاقبوا به رفيق الأمس الخائن،

كان «أودين» يتذكر نبوءة «أنجربودا» عن اجتماعها بـ«لوكي» بعد تحرره من قيوده..

■ ■ ■

بعد ذلك بزمن بعيد جدًّا..

تغيَّر العالم، خلدت الآلهة لنوم طويل.. كلها بلا استثناء، حتى حارس الجسر المؤدي لـ«آسجارد»..

سيطر على الأرض شتاء طويل قاسٍ.. قتل الزرع والشجر والحيوانات.. الناس صاروا أكثر شراسة وراحوا يتقاتلون، حتى الأخ راح يقاتل أخاه..

اعتدى البحر على الساحل وتسمم ماؤه، فراحت أمواجه تلقي على الشاطئ جثث الأسماك الميتة..

راحت الزلازل تمزق الأرض.. وغابت الشمس والقمر وراء غطاء سميك من الغيوم..

كان العالم يستعد للملحمة الأخيرة، ملحمة نهاية الزمان (الراجناروك)..

تضخم الذئب «فنرير» وتحرر من حبسه فانطلق ينهب الأرض ركضًا وقد بلغ اتساع فكيه ما بينه وبين السماء، وعيناه راحتا تطلقان شررًا يحرق ما يطؤه.. وثب وثبة هائلة فابتلع الشمس والقمر ليسود الظلام العالم

الأفعوان العملاق «يورمونجوندر» بث سمه في الأجواء فقتل الطيور، وراح يتمدد ويزحف مغادرًا المحيط غازيًا الأرض الوسطى (ميدجارد).

العملاق الناري «سورتر» اجتاح الأرض، يحوطه أتباعه عمالقة

النار، بينما تحرر «لوكي» من حبسه وتوجَّه لأرض عمالقة الصقيع، ثم عاد على رأس أسطول يحمل مقاتليهم مصحوبين بحلفائهم من جنود ابنته «هيل» التي بعثت بكل من في «نيفيلهايم» من الذين ماتوا بلا شرف ليدمروا الأرض..

اقتحم الغزاة جسر قوس قزح، داهموا «هيمدال»، الحارس الذي هبَّ من نومه وهرع ينفخ البوق إيذانًا بالمعركة الأخيرة..

أفاق الأرباب مفزوعين من نومهم.. هرع كل منهم لسلاحه.. أمسك «ثور» بمطرقته، وسل «أودين» سيفه، واستدعوا مقاتلات «الفالكيري» وحشدوا أرواح من قُتلوا في المعارك فانتقلوا إلى «فالهالا».

واستعد جيش الآلهة لمواجهة غزاة العمالقة والأموات والذئب والأفعوان العملاقين..

بقي الجيشان يرقب كلٌّ منهما الآخر، ثم اندفع المقاتلون من الجانبين ليلقوا بأنفسهم في أتون المعركة الرهيبة..

توجه «أودين» لقتال الذئب «فنرير» الذي فغر فاه لابتلاعه، فرفع الإله رمحه وسدده لحلق الذئب الذي أطبق فكيه على السلاح فحطمه، ثم قبل أن يدرك «أودين» ما جرى كان الذئب ينقضُّ عليه ويهوي عليه بأنيابه فيبتلعه..

هكذا لقي «أودين» مصرعه..

لكن إلهًا آخر - «فيدار» ابن «أودين» - وثب على «فنرير» فهمَّ الأخير بافتراسه، إلا أن الإله ثبت قدميه على الفك السفلي للذئب ورفع بيديه فكه العلوي بقوة حتى خلعهما وحطَّم عنق الوحش الذي تهاوى جسده ساحقًا ما حوله.

أما «ثور»، فما إن لمح الأفعوان «يورمونجوندر» حتى رفع مطرقته

ووثب إلى أعلى وثبةً لا يضاهيه فيها أحد، ثم بكل ما له من قوى هوى على رأس ابن «لوكي» بالمطرقة فتعالى صوت قرقعة جمجمته وهي تتحطَّم.. وسقط الأفعوان ميتًا، لكنه قبل أن يطبق عينيه بث نحو «ثور» بخة سم أخيرة اجتاحت أنفاس إله الرعد فقضت عليه لتوه..

ورأى الإله «تاير» الكلب العملاق «جارم» ـ حارس العالم السفلي وحيوان «هيل» المدلل ـ يصول بأنيابه بين المقاتلين، فانقض عليه وطعنه فقتله، لكنه سرعان ما سقط خلفه متأثرًا بجراحه..

وراح «سورتر»، عملاق النار، يُعمل القتل في الآلهة والبشر، ويحرق الغابات والدور والقصور حتى الأرض..

وتلاقى «هيمدال» و«لوكي»، فتبارزا بضراوة وتبادلا طعنات أسقطت كلا منهما يحتضر..

واندفعت الجحافل من الجانبين يُفني بعضُها بعضًا.. حتى تفانى الجانبان.. الآلهة والبشر.. سكان «فالهالا» وأهل «نيفيلهايم».. العمالقة والوحوش.. كلهم فنوا ولم يعُد من صوت سوى لتردد الأنفاس الأخيرة لـ«لوكي» و«هيمدال»..

راح «لوكي» بين زفراته الأخيرة يسخر من «هيمدال»، ويبدي الشماتة في دمار العالم، ويعلن أنه إن مات فإنه يموت سعيدًا لأنه قد حقق انتقامه..

لكن «هيمدال» قبل أن يلفظ النفس الأخير يرفع ضحكاته الساخرة من «لوكي»، وهو يخبره أنه إنما دمر هذا العالم لتلك الدورة من الحياة، لكنه لم يدمر الحياة ذاتها..

بلى.. ففي شجرة الحياة التي تتوسط الأرض كان بعض البشر قد نجحوا في الاختباء والفرار من الهلاك..

وفي السماء كانت الشمس قد أنجبت ابنة لها تستعد لتحل محلها..

وتحت الأرض الغارقة في الدم كانت بذور النباتات الناجية تستعد للنمو أشجارًا وثمارًا..

وإن كان الآلهة قد هلكوا، فإن الإلهين «بالدر» و«هود» قد استطاعا أن يرجعا من «نيفيلهايم»، وأن ينقذا بعض الأرباب الصغار ليقيموا من جديد قاعة حكم الآلهة..

وتختنق ضحكات «لوكي» الساخرة في حلقه؛ إذ يطلق زفرة حسرة أخيرة ثم يموت.. ومن بعده يصم «هيمدال» تمامًا وقد لحق من ماتوا..

وبعد أن وضعت المعركة أوزارها، تسلل الناجون من البشر ينظرون الأرض، وفي تجوُّلهم صادفوا «بالدر» و«هود» اللذين طمأناهم أن الحياة ستستمر وأن عالمًا جديدًا سينشأ مكان العالم القديم..

وهكذا تنتهي «الراجناروك»، بانتصار الحياة على «لوكي» ممثل الشر وأبنائه وكل المسوخ والعمالقة..

■ ■ ■

لمعرفة الثقافة الأخلاقية لشعبٍ ما، ولإدراك مفهومَي الخير والشر عنده، ينبغي أن نقرأ مكونات عقيدته..

والقارئ لأساطير الشعب الاسكندنافي، سرعان ما يدرك تقديمه صفات الشجاعة والإقدام والمواجهة الصريحة على غيرها من القيم.. فإن كان «لوكي» ذكيًا وسيمًا بارعًا، فإنه على الرغم من ذلك كان يمثل الشر؛ لأنه جبان خائن مخادع لا يواجه عدوه بشرف..

وعلى الرغم من أن الآلهة ـ وعلى رأسهم «أودين» ـ قد بدؤوا حياتهم وسلطتهم بالعدوان على العمالقة، فإنهم بالنسبة للثقافة الحياتية لمقاتلي

«الفايكينج» يمثلون قمة الخير لتحليهم بالشجاعة والقوة والإقدام..

والإنسان مهما بلغ من الحكمة والخير وحيازة الصفات الطيبة في الدنيا، فإنه عند هذا الشعب لا يستحق الجنة بعد موته ما دام مات ميتة هادئة.. أما من يموت قتيلًا في المعركة فهو المستحق للجنة ولو كان معتديًا طاغية سفاكًا للدماء..

حتى الإله الطيب المحبوب «بالدر»، استحق النفي لـ«نيفيلهايم» لأنه مات عبثًا!

مبادئ أملتها على شعوب الشمال طبيعةُ مجتمعهم القاسية؛ فهم يعيشون في طبيعة وعرة فقيرة بالخيرات ترزح تحت ثلوج ثقيلة وبرودة قارسة، فكان من المنطقي أن تقودهم لسلوك الغزو والسلب والنهب والتفنن في أعمال القتل والتدمير، حتى إن القارئ لتاريخ أوروبا في العصور الوسطى يدرك بسهولة أن هؤلاء القوم كانوا كابوسًا حقيقيًّا للبلدان الأوروبية مثل فرنسا وإنجلترا، بل حتى الأندلس التي تعرضت لبعض غزواتهم..

والمشاهد لعمل درامي مثل مسلسل «Vikings»، من إنتاج قناة «History»، يدرك أن شعوب الشمال لم يكُن معيار الخير والشر مرتبطًا عندهم بعدالة القضية التي يقاتلون لأجلها، إنما بمدى الاستبسال في القتال لأجل هذه القضية (ملاحظة: الأعمال الدرامية لا تصلح كمصدر للمعرفة التاريخية، إلا أن هذا المسلسل بشكل خاص قد قَدَّم بدقة نمط حياة «الفايكينج» بشكل مطابق لما جاء في كتب التاريخ، مع مراعاة أن الأحداث تبقى رهينة الغرض الدرامي لصناع العمل)..

فـ«لوكي» لم يكُن شريرًا بسبب أهدافه، ولا لأنه مُؤذٍ، إنما مثَّل الشر في الثقافة الاسكندنافية النوردية بسبب منهجه القائم على المراوغة

والمداهنة عوضًا عن المواجهة المباشرة..

والمسوخ والعمالقة الذين نقرأ عنهم في الأسطورة هم أيضًا انعكاس لثقافة أهل الشمال؛ فالأفعوان يمثل لهم وحوش البحر الذين كانوا يضطرون لخوض غماره ومواجهة مخاطره في غزوهم وتجارتهم ورحلاتهم الاستكشافية.. حتى إنهم كانوا يتقون شره بنحت هيئة رأس أفعوان على مقدمات سفنهم.. والذئب هو الحيوان المفترس الأكثر خطورة في غاباتهم ـ وذئاب الثلوج بشكل خاص معروفة بأنها الأكثر شراسة ـ و«هيل» الميتة الحية تمثل انتصار الموت على الحياة في نفس الإنسان الذي يستسلم لليأس من الظروف المحيطة والتحديات الحياتية التي تمثلت في الطبيعة القاسية لحياة «الفايكينج».

والعمالقة يمكننا أن نفسرهم بالجبال الوعرة قاسية التضاريس وما فيها من مخاطر مميتة، كان «الفايكينج» يضطرون لمواجهتها في ترحالهم، خاصة خلال حملات الغزو..

باختصار: فقد حوّل رجل الشمال كل ما يحيط به من مخاوف وتحديات ـ طبيعية وبشرية ـ إلى كائنات شريرة، ولأن مثل تلك المجتمعات تقوم على التكاتف والتآزر والتزام «أخوة الدم ورفقة السلاح» فقد كان من الطبيعي أن يتربع «لوكي» الخائن لرفاقه والناكث لعهدهم على قمة الأشرار في أساطير هذا العالم.. فمن دون صفات الإخلاص للعشيرة والشجاعة في مواجهة الخطر والصدق مع الحليف، يصبح القوم نهبًا للمخاطر المميتة المتمثلة في التضاريس الوعرة/ العمالقة، ووحوش البر والبحر ـ الذئب والأفعوان ـ واليأس من الكفاح لأجل الحياة/ «هيل».. فتتكالب تلك المخاطر عليه وعلى قومه فتهلكهم (رمزية «الراجناروك»).

بل نجد قيمة أخرى في نهاية الملحمة، تتمثل في رسالة هي أنه حتى مع تكالب تلك التحديات وهزيمتها للبشر، فإن مجرد استبسالهم في الدفاع عن قيمة «الرغبة في استمرار الحياة» يكفي لتعود الحياة من جديد حتى إن واجهوا ضربة قاصمة.. وهو ما يبدو في نجاة البشرية والألوهية في نهاية «الراجناروك»..

الخلاصة أن أساطير شعوب الشمال لم تكُن مجرد قصص حماسية عن الشجاعة ولا مرثيات للأبطال، إنما كانت بمثابة رسالة مستترة خلقها وجدان جمعي مفعم بالحماس لتحدي الصعاب رغبةً في الاستمرار وتحفيزًا لغريزة البقاء..



لوحة تمثل «أودين» فوق عرشه



«ثور» إله الرعد المحارب



«لوكي».. للرسام السويدي جون بوير



«الراجناروك»



X

مصايد الغيلان وغضب الجن..
شرور صحراء العرب



عزيزي القارئ، دعني أخبرك أمرًا من أمور طفولتي..

كنت في طفولتي أخشى الظلام، أخشاه بشدة وأتخيل أنه يخبئ عفاريت ستختطفني حتمًا لو بقيتُ فيه أكثر ممَّا ينبغي..

وكنت إذا نمت وأطفأَتْ أمي نور الغرفة أرى من خلال الضوء الخافت الآتي من الطرقة ظلالًا مخيفة على الجدران..

يومًا ما، قررت أن أواجه خوفي الذي استشعرت أنه غير منطقي، فأضأت نور غرفتي ورحت أنظر إلى محتوياتها.. ثم عدت أطفئه، ورحت أنظر للظلال وقد ميَّزتها: هذا ظل الكرسي، وهذا لصوان الملابس، أما هذا فمكتبي...

وهكذا تخلصت من خوفي هذا..

ما علاقة ما سبق بأساطير الكائنات الشريرة عند العرب؟ ستعرف من خلال السطور الآتية..

■ ■ ■

العرب لم تكُن لديهم آلهة شريرة بالمعنى نفسه الذي وُجِدَت به في العراق ومصر وفينيقيا واليونان؛ فالآلهة لم تكُن تصيب بشرٍّها إلا من يجاهر بازدرائها أو إهانتها، فلم يكُن قول العرب عن شخص: «إنما أصابته الآلهة بشر» إلا لسابق علم منهم أنه قد أخطأ في حقها..

فعلى سبيل المثال: حين أسلم رجل اسمه ضمام بن ثعلبة، وقدم على قومه، كان أول ما نطق به: «بئس اللات والعُزى»، فنهروه قائلين:

ـ مه يا «ضمام»! اتقِ الصرع، اتقِ الجذام، اتقِ الجنون!

وحين أرسل الرسول محمد الصحابي المغيرة بن شعبة لهدم نصب

«اللات» في الطائف، أراد «المغيرة» أن يسخر من قومه فاصطنع السقوط مشلولًا من فوق النصب، فهلل المؤمنون باللات إيمانًا منهم أنها قد أنزلت به غضبها، حتى قام وهو يضحك متهكمًا..

وحتى هذا الخوف من قدرة الآلهة على فعل الشر لم يكُن راسخًا عند العرب كلهم؛ فبعضهم كان يسخر منها بل ويسبها كامرئ القيس، الشاعر الذي ضرب القداح عند صنمه ليستشيره في أمر الخروج للثأر لأبيه القتيل، فلمَّا خرج سهم «لا تفعل» قذف السهام في وجه الصنم وصاح به: «اعضض أير أبيك، لو كان أبوك القتيل لأمرتني بالثأر»! والصحابي عمرو بن الجموح الأنصاري، حين وضع بعض قومه ـ قبل إسلامه ـ صنمه منكسًا في حفرة بها فضلات، علق سيفًا بعنقه وقال له:

ـ امتنع بهذا إن كان فيك خير.

وبالطبع فإن الخوف الأكبر من غضب الإله كان مرتبطًا بقدس أقداس العرب: الكعبة.. فقبيل الإسلام، عندما أصابت أستار الكعبة نيران مجمرة بخور كانت تحملها امرأة من قريش فاحترقت الكعبة وآلت للانهيار، أشار الوليد بن المغيرة بهدمها ثم إعادة بنائها، فامتنع القوم خوفًا من غضب الإله، فتقدم هو وراح يضربها بالمعول وهو يقول كلامًا فيه «طمأنة للإله» أنه لا يريد شرًا.. فقرر القرشيون أن ينتظروا حتى الصباح فإن أصاب الوليد شرٌّ فقد حلت به نقمة ربهم وإن لم يصبه شاركوه الهدم والبناء، فلمَّا أصبحوا ووجدوه سليمًا هدموها معه ثم بنوها..

لم تكُن شرور الآلهة إذًا لتمثل الخطر الأعظم من الكائنات «الماورائية» عند العرب ما داموا لم يرتكبوا ما يُغضبها، فلم تكُن في نظرهم «آلهة شريرة» أو «ذات سلوك غير متوقع» كما اعتقد العراقي القديم واليوناني

القديم في أربابهم، وإنما كانت مخاوفهم تتلخص في نوعين من الكائنات: الجن والغيلان، التي تقطن الخلاء وتنظر المار لتؤذيه..

■ ■ ■

كان عربي الجزيرة قبل الإسلام يؤمن أن الخلاء والأودية الخاوية هما مساكن الجن، حتى إنه إذا مر بأحدها كان يقول بصوت واضح: «أعوذ بعظيم هذا الوادي» ويلقي التحية «عموا ظلامًا»، معلنًا أنه في جوار عظيم جن هذا المكان، فلا يؤذيه بعضهم..

وكان بعض العرب يعلقون في أعناقهم عند السفر تمائم من أقدام الأرانب لاعتقادهم أنها تطرد الجن عن مرتديها، بينما تجتذبه قدم الثعلب..

ولم يقتصر الأمر دائمًا على الخلاء والقفار، بل لعله كان يشمل بعض الأماكن المأهولة، كمنطقة «ثنيات الوداع» ـ وهي من مداخل يثرب/ المدينة ـ حيث كانوا يقولون إن على من يمر بها أن ينهق كالحمار ثلاث مرات وإلا ضربه الهُزال حتى يموت، ولعلهم قصدوا أن يصيبهم جنها بسوء، واستمرت تلك العادة حتى سخر منها بعض العرب وامتنع عنها علانية، فلمَّا لم يصبه شيء تركوها..

فالجن عند العرب القدامى كانوا أحيانًا شعوبًا وقبائل تعيش في الصحارى والوديان، حتى إنهم ـ العرب ـ كانوا يفسرون الزوابع الترابية أنها نقع حروب جيوش الجان، وكان للمرور بديار الجن آداب، فلا بُدَّ من إلقاء التحية، وإعلان الاستجارة، والامتناع عن بعض الأفعال كقضاء الحاجة على الجحور ـ باعتبارها من مساكنهم ـ أو قتل الزواحف والحشرات ـ لاحتمال أن تكون جنًّا متنكرًا ـ أو صيد بعض الحيوانات كالنعام والحُمُر الوحشية والبقر الوحشي ـ باعتبار أنها دواب يمتطيها الجني.

بل إن ممَّا يؤثر عن بعضهم أنه كان يقول لرفاقه إنه قد رأى جمالًا أو ظباءً موسومة ـ أي معلمة بالنار لملكية صاحبها ـ بوسوم تنم عن أنها ملك لبعض الجن..

ومع ذلك، كانت موروثات العرب تتحدث عن بعض حوادث إيذاء الجن للبشر كـ«حديث خرافة»..

فـ«خرافة» كان رجلًا من العرب، اختفى لفترة ثم عاد وهو يفسر اختفاءه بأنه قد اختُطِفَ من الجن وحملوه إلى بلادهم، وراح يحكي ما رأى وما كان في هذه البلاد، فكان من لا يصدقونه يقولون: «هذا حديث خرافة»، حتى راحت مثلًا وصار يقال عن القول غير المعقول «حديث خرافة»، وهو مصدر كلمة «خرافات» التي نطلقها حتى الآن على الأمور التي لا يقبلها العقل..

وكذلك قصة الإخوة الثلاثة «مرير» و«مُرة» و«مرارة»، فقد خرج «مُرة» لسرقة ينويها ـ وكان سارقًا معروفًا ـ فاختطفه الجن، فخرج «مرارة» في أثره فاختُطِفَ كذلك، فاغتاظ أخوهما «مرير» وأقسم ألا يعود إلى دياره وألا ينام حتى ينقذ أخويه، فخرج إلى الجبل حيث اختفيا وبقي أيامًا لا ينام حتى أصابته الحُمى فوقع مغشيًّا عليه، ثم استيقظ ليجد جنيًّا يحمله وهو يقول له:

ـ لماذا نمت وقد كنت حريصًا على مطاردتنا؟

فقال:

ـ أضرعتني ـ أي أحوجتني ـ الحمى للنوم.

فصارت مثلًا..

وثمة قصة عن ابنٍ لبعض الملوك، كان طفلًا، وكان أبوه قد زيَّن عنقه

بطوق من الجواهر، فخرج الغلام يومًا فاختطفه بعض الجن، ثم مرت السنوات وفوجئ أهله به يرجع إليهم وقد شبَّ وكبر وهو يخبرهم أنه كان أسيرًا في بلاد الجان، فقيل: «قد شب عن الطوق» فذهبت مثلًا لمن انتقل من الطفولة إلى الشباب..

أما القصة الأكثر إثارة فكان مسرحها مكة؛ حيث يقول الراوي إن أحد فتيان الجن تزوج، ثم في اليوم السابع لزفافه قال لأمه إنه يريد أن يطوف بالكعبة، فحذرته أن يصيبه بعض سفهاء قريش بسوء، لكنه طمأنها وذهب للطواف..

وفي طوافه في هيئة بشرية التقاه شاب من عشيرة بني سهم القرشية، فوقع بينهما ما أدَّى لأن اعتدى عليه القرشي فقتله..

ففوجئ أهل مكة بعاصفة من الغبار الثقيل لم يروا مثلها من قبل تدهمهم، وعندما جاء الصباح روَّعهم أنه قد مات من بني سهم عدد كبير من الرجال، منهم سبعون شيخًا..

فاستشاطت عشيرة بني سهم غضبًا وانطلق رجالها إلى جبال مكة حيث لم يتركوا حية أو زاحفًا أو خنفسة أو جندبًا إلا قتلوه - لاعتقادهم أن هؤلاء من الجن - حتى كادوا يأتون على كل ما في الجبال منها، فسمع المكيون هاتفًا يستغيث بهم ويصيح:

- ألا فأغيثونا من بني سهم؛ فقد قتلوا منا أضعاف ما قتلنا منهم.

فمشى رجال بالصلح بين الإنس والجن حتى كف كل جانب عن الآخر، وتفاخر بنو سهم بهذا اليوم فسموا أنفسهم «الغياطلة قتلة الجن» (ولم أقف على معنى لفظ الغياطلة)..

وكان العرب يعتبرون أن كل حية هي جني حتى يثبت العكس؛

فمن قصصهم عن ذلك أن الشاعر الثقفي أمية بن أبي الصلت كان مرتحلًا مع بعض قومه، فعندما مروا ببعض الوديان وجدوا حية تقطع عليهم الطريق وتفزع جِمالهم، وراحت كلما حاولوا المرور تمنعهم، حتى كادوا يموتون من العطش..

فالتمس «أمية» من يدله على ما يفعل معها حتى وجد رجلا ـ قيل إنه جني ـ قال له:

ـ إذا لقيتها فقل باسمك اللهم سبع مرات تمتنع بها منها.

فعاد «أمية» وقومه إلى الطريق، وعندما هاجمتهم الحية قال «باسمك اللهم» سبع مرات فهربت وهي تصيح بهم بغيظ شديد:

ـ تبًّا لكم! مَن علمكم هذا؟

فمروا وبلغوا حيثما كانوا يبتغون، ولكن كان معهم حرب بن أمية بن عبد شمس ـ أبو «أبي سفيان» وجَد «معاوية» ـ فمات في فراشه فقالوا إن الجن قد خنقه، وكانوا يعتقدون أن الجن إذا أرادوا قتل رجل خنقوه في فراشه..

■ ■ ■

ولم يكُن شر الجن مطلقًا في معتقد العرب القدماء؛ فقد آمنوا أن منهم من إذا أحسنت إليه جازاك بالخير وإن استجرت به أجارك..

فـ«عبيدة بن الأبرص» قد مر بثعبان قد احترق جنبه من الحر، فنصحه بعض مَن معه بقتله، لكنه امتنع عن ذلك وأنقذه وسقاه، فأصبح وقد وجد بعيرًا وهاتفًا يصيح به أن هذا البعير مكافأة له..

ورجل آخر من العرب كان يرعى الغنم فاختطف ذئبٌ شاةً منه،

فصاح يستجير بـ«عظيم هذا الوادي» فوجد هاتفًا يصيح: «يا سرحان رد للرجل شاته»، فرجع الذئب بالشاة وأعادها للقطيع!

وهكذا كانت العلاقة بين العرب والجان ـ في المعتقد القديم ـ تخضع لنفس علاقات حسن الجوار بين قبائل البشر، مع وضع احتمال غدر بعضها ببعض في الحسبان..

■ ■ ■

بل ربما كانت بينهم علاقات تعاون؛ فكهان العرب المنتشرون في بلادهم كان لكل منهم «تابع» أو «صاحب» من الجن، يُنبئه بالأسرار، سواء أكانت أسرار الأرض أم أسرار ما يسترقون السمع به من السماء ممًا تتحدث به الملائكة.. فكان الكاهن إذا استشير في أمر يقول: «إلى غد حتى ينبئني صاحبي». وبقي هذا معتقدهم حتى جاءت بعثة الرسول محمد فورد في الموروث الإسلامي أن الجن قد مُنعوا من استراق السمع، ونقلت الكتب صياح الكهنة: «قد مُنع السمع عتاة الجن» في هذه الليلة، بل واختلف المؤرخون المسلمون حول مدة هذا المنع، فقال بعضهم إنه منع أبدي، بينما قال البعض الآخر ـ مثل ابن خلدون ـ إنه مرتبط فقط بفترة الرسالة المحمدية..

بل لقد اعتقدوا في «مصاهرة الجن»، فقال بعضهم إن «بلقيس»، ملكة سبأ باليمن، كانت أمها جنية، وروى بعضهم أن رجلًا قد صاهر الجن فتزوج واحدة منهم لكنها اشترطت عليه ألا يدعها ترى البرق وإلا حنَّت لبلادها وطارت إليها مفارقة إياه، فكان إذا رأى البرق يغطي عينيها، حتى إذا أهمل ذلك يومًا طارت وتركته..

وساد الاعتقاد أن لكل شاعر فذ شيطانًا من الجن يلقاه في بعض

الوديان فيلقي على لسانه الشعر، واشتُهر بهذا «وادي عبقر»، حتى قيل للفذ من الشعراء «عبقري»، ثم شمل معناها في اللغة كل فذ في مجاله..

لكن تلك العلاقة «الطيبة» مع الشياطين لم تكُن تعني اعتقاد العرب أنهم كائنات طيبة، فمما يبدو أنها كانت علاقة «منفعة متبادلة» تتوقف على رضا الطرفين، حتى إن ممَّا يُذكَر أن أحد العرب قد تغنى بأبيات شعر قد نهاه الشيطان عن إلقائها، فخالف الأمر فوُجِدَ قتيلًا..

والدليل على أن نظرة العرب للشيطان لم تكُن إيجابية ما ورد في سيرة النبي محمد من أن زوجته السيدة «خديجة» قد أرادت أن تختبر أمر ما قصَّه عليها من نزول الملاك «جبريل» عليه، فطلبت منه أن ينبئها بقدومه، فأنبأها، فقالت له ـ الرسول ـ: «اجلس عن يميني.. هل تراه؟» فقال إنه يراه، وكذلك حين جلس عن شمالها، فرفعت خمارها وأجلست الرسول تحته فقال إنه لا يرى «جبريل» فقالت: «ما هذا بشيطان»، في دلالة على أنها كانت ترى أن الشيطان لا يستحي من حرمات النساء..

ثم إن الوحي حين انقطع مدة عن الرسول محمد صادفته جارة له فـ«هنَّأته» بأن «شيطانه» قد كف عنه، في دلالة أخرى لنظرتهم السلبية للشياطين..

ومما ورد عن «شياطين العرب» أن رجلًا قد امتلك كلبًا كان لا يُفلت صيدًا إلا أمسكه، ثم تغير حال هذا الكلب، فحزن الرجل، ثم التقى رجلًا معه كلب آخر، فبينما هو في فراشه فوجئ بالكلبين يتكلمان فاصطنع النوم ليسمعهما، فسمع كلب الرجل الوارد عليه يخبر كلبه أن رسولًا قد بعثه اللـه وأنه لن يدع للكافرين بالله مكانًا في أرض العرب،

وأنه ـ الكلب ـ قد نوى أن يفر إلى بلاد بعيدة، فأجابه كلب الرجل بأنه سيفر معه..

ثم قام صاحب الكلب فلم يجد كلبه ولا كلب ضيفه فعلم أنهما شيطانان.

■ ■ ■

النوع الثاني من المخلوقات التي خشيها العرب كان «الغول».. وبينما كانوا يؤمنون أن الجن منهم الخيِّر ومنهم الشرير، وأن الشياطين يمكن أن يُنتفع منهم، كان «الغول» شرًّا خالصًا!

والحقيقة أني لا أعرف كيف يُنسَب للعرب القدماء قولهم إن الغول هو أول المستحيلات في قولهم «المستحيلات ثلاثة: الغول والعنقاء والخل الوفي»، فالغالب أنه قول راجع لثقافة ما بعد الإسلام، أو لعله قول قلة مِمَّن كانوا يسخرون من معتقدات قومهم قبل الإسلام..

فالعربي قد آمن أن الغول هو كائن من الجن ـ أو قريب منه ـ يتربص بالمسافرين في القفار، فيوقد نارًا فيظنون أن بالمكان بشرًا مثلهم فيتوجهون إليها، فيلقاهم ـ غالبًا في هيئة امرأة ـ ويستهويهم حتى إذا ما أَمِنوا جانبه كشف عن حقيقته فراح يلعب بالرجل لعب القطة بالفأر قبل التهامه، ثم يقتله..

والنجاة من ذلك عندهم تكون أولًا بأخذ الحيطة من أي إنسان يُوجد وحيدًا في طريق السفر، ثم النظر لقدميه؛ لاعتقادهم أن للغول ساقَي حمار أو عنزة، وأنه إذا تنكَّر في هيئة بشرية فإنه لا يستطيع تغيير شكل ساقيه، فإن اتضح أنه الغول كان على الرجل أن يستل سيفه ويضربه ضربة واحدة قاضية وألا يثنِّي بضربة أخرى، وإلا قام الغول من موته واستحال قتله..

وأشهر من ذُكِرَت مواجهته مع الغول كان «تأبط شرًّا» - وكان من صعاليك العرب قبل الإسلام - حيث ترجع تسميته لأنه كان مشهورًا بسرعة ركضه وأن حتى الخيل لا تسبقه، فكان إذا أصابه جوع توجَّه حيث قطعان الظباء وانتقى أسمنها وطارده وحمله.. وذات مرة في صيده قابل الغول فكشف الرجل عن أمره وضربه بالسيف ثم حمل جثته تحت إبطه فرآه أصحابه فقالوا «تأبط شرًّا».. وقيل كذلك إنه قد صاد كبشًا فحمله تحت إبطه فراح الكبش يبول عليه فنظر فإذا هو الغول..

بل حملت بعض كتابات التراث الإسلامي رواية أن الصحابي والخليفة المسلم الثاني عمر بن الخطاب قد واجه الغول قبل الإسلام وقتله!

والغول غالبًا أنثى، أو على الأقل يتخذ هيئة الأنثى؛ ربما لما فيها من الغواية للمسافر وحيدًا المشتاق إلى صحبة النساء..

وبينما حاز الغول شهرة واسعة في ثقافة العرب، وُجِدَ كائن آخر لم يحز الشهرة نفسها هو «الشِق»، و«الشِق» كائن ذو هيئة بشرية إلا أنه نصف إنسان، كجسم بشري مشقوق طوليًّا، وهو كالغول يتربص بالمسافرين في الخلاء.. وتروي قصص العرب أن «الشِق» قد قطع الطريق على رجل اسمه «علقمة»، فتبارزا ثم ضرب كلٌّ منهما عدوه ضربة فلقيا مصرعهما في اللحظة ذاتها..

■ ■ ■

جدير بالذكر أن عرب الجزيرة القدامى لم يربطوا «الشر الإنساني» بهذه الكائنات، بل ردوه - ببساطة - للإنسان، فكل إنسان مسؤول عن اختياراته من خير أو شر، وما للجن أو الشيطان أو الغول من سلطان على سلوك المرء.. والعرب كانوا من أشد الشعوب قسوة في

تقييم السلوك الأخلاقي للإنسان وإدانته لو انحرف عن الأخلاق القويمة.. فلم يربطوا السلوك الشرير بأسباب غيبية، أي أن الشر الناتج عن أفعال المخلوقات الشريرة سالفة الذكر كان «شرًّا ماديًّا» بحتًا..

■ ■ ■

المثير أن هذه المعتقدات العربية فيما قبل الإسلام عن الكائنات الماورائية لم يُقضَ عليها تمامًا بعده..

فـ«القزويني» مثلًا يورد في كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» كلامًا عن الغول فينقل عن البعض تفسيرهم لوجوده أن الجن إذا ما استرقوا السمع من السماء أصابهم شهاب، فمن وقع منهم في البحر تحوَّل إلى تمساح، بينما يتحول من وقع منهم في البر إلى غول..

بل يذكر في سياق الحديث عن «الكائنات المتشيطنة» نوعين من الكائنات، هما: «العدار» و«الدلهاب»، فالأول له عضو ذكري كبير مدبب يدهم الرجل فيفزعه أو يخترق جسده به، فيقال للمصاب: «أمذعور أم منكوح؟»، فإن كان مذعورًا عولج وإن كان منكوحًا أيقنوا بموته..

أما «الدلهاب» فيظهر كهيئة رجل يمتطي نعامة، ينتظر المسافرين بين المزارع أو عند ضفاف الأنهار، فيقتلهم ويفترسهم، وهو ـ على حد قول «القزويني» ـ يعيش في بعض قرى مصر..

هنا ينتهي كلام «القزويني» عن هذه الكائنات..

بل بقيت معتقدات البعض في أن بعض الحيوانات هي «جن حتى يثبت العكس»، وأشهرها: الكلاب والقطط، خاصة لو كانت سوداء اللون، ويختلفون في شأن إيذائها أو تركها خوفًا من انتقامها.. بل إن ثَمَّةَ معتقدًا في مصر ـ ولا أدري إن كان شائعًا خارجها أم لا ـ عند

بعض الناس أن التوائم مرتبطون بالجن وأنهم يتحولون ليلًا إلى قطط تجول في الشوارع والبيوت..

وفي بعض المعتقدات الشعبية المعاصرة، يؤمن البعض بوجود جيران لهم من الكائنات الخفية، إلى حد قيام بعض الناس ببعض ممارسات «الضيافة» لهذه الكائنات، كقيام بعض النسوة بسكب قليل من لبن الرضيع على الأرض لتشرب منه «أخته التي تحت الأرض» أو اعتقاد بعض القدماء من أهل النوبة في «ناس النهر» وتركهم بعضًا من الطعام والشراب لهم في بيوتهم قبل رحيلهم عنها قبيل غرقها تحت بحيرة ناصر..

صحيح أن الموروث الإسلامي ـ في القرآن والأحاديث ـ قد ذكر أن الجن كائنات حقيقية، وأنهم قد يعيشون في بعض بيوت البشر ـ ويُدعون «عُمَّار البيت» ـ وأنهم قد يتضررون من بعض السلوكيات، ولكن ما سلف ذكره يمثل ـ بالنسبة حتى لهذا الموروث ـ سلوكيات مبالغًا فيها تعكس بقاء بعض المعتقدات العربية القديمة، بل إن حتى الغول قد بقيت آثار للاعتقاد بوجوده، أشهرها خرافة «النداهة» في ريف مصر، وهي امرأة تقف ليلًا بالحقول وتنادي الرجل فتسلبه عقله وتستهويه ثم تهلكه.. بل ربما أن الرواية الشعبية عن «أمنا الغولة» التي يمكن لضحيتها الفرار منها بإلقاء السلام فتقول له: «لولا أن سلامك قد سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك» هي انعكاس في الوجدان الجمعي الشعبي لمزيج من أسطورة الغول وممارسة إلقاء السلام على وديان الجن..

■ ■ ■

ما علاقة ما سبق كله بالقصة التي استهللت الفصل بها؟

العلاقة بسيطة؛ فأشياء مثل «الظلام» و«الخلاء» و«الفراغ» إنما هي تمثل عناصر تطلق العنان للخيال الذي قد يشطح بعيدًا..

فالعقل الذي رأى في نهري دجلة والفرات «إيا/ أنكي» في أساطير العراق، ورأى في الخصوبة بركة «أوزيريس» في المعتقد المصري القديم، ورأى في الصواعق والرعد ضربات مطرقة «ثور» عند شعوب اسكندنافيا، يختلف عن العقل الذي لم يرَ سوى الصحراء والفراغ، فالأول وجد الظاهرة الطبيعية وجسَّدها في هيئة مناسبة لطبيعة مجتمعه، أما الآخر فقد حوصر بالمجهول ولم يجد حدودًا من ظواهر طبيعية إلا قليلًا، فكان خياله أكثر حرية وانطلاقًا، بل وشطحًا..

إضافة إلى ذلك، فإن وقوع جزيرة العرب في منطقة وسط بين ثقافات مصر والعراق والشام وفارس واليمن، جعلها بمثابة «المصب» للكثير من محتويات تلك الثقافات، فـ«استورد» منها الكثير وصاغه بما يلائم تحرره الفكري من قيود القوالب المادية المرتبطة بنهر أو بحر أو حقول.. فكانت بنات خيالاته كائنات غير مرئية غير ثابتة على هيئة أو شكل، وإن كانت متأثرة بمعتقدات شعوب أخرى، فالغول ما هو إلا النسخة العربية من «عرائس البحر» الإغريقية التي تتربص بالبحَّارة لإهلاكهم، وما تشكُّلها في هيئة امرأة تستهوي الرجل فتورده حتفه إلا كـ«عشتار» البابلية مع عشاقها، وجن الوديان ما هم إلا «شياطين العالم السفلي» في ثقافات العراق القديم، والجن الخانق للرجل في فراشه ما هم إلا «ليليث/ ليليتو»، شيطانة السومريين، والشيطان نفسه كائن عرفه المسيحيون واليهود، وما أكثرهم في الجزيرة العربية التي تأثرت بعض معتقدات أهلها القدامى بالأديان الإبراهيمية..

ولأن فكرة الإنسان عن الشر نسبية ترتبط بما يواجه في حياته من

مخاطر، ولأن عرب الجزيرة كان أكثر ما يخشونه هو «ما يحتويه الفراغ»، فكان من الطبيعي أن تنتج مخيلتهم الشر المتمثل في جن الخلاء وغيلان الفلاة وشياطين الوديان..

صحيح أن حياة العربي كانت بها مخاطر أخرى كالحيوانات الصحراوية المفترسة أو الحروب وغارات القبائل، لكنه كإنسان ذي طبيعة خشنة محاربة لم يكُن يخشى هذه الأخطار قدر خشيته ممَّا لا يرى ولا يتوقع ولا يمكن القضاء عليه بسهولة بضربة سيف أو رمية سهم.. فالحية المختبئة أسفل حَجَرٍ أخطر عنده من الأسد والذئب اللذين يسمع زمجرتهما ويراهما بوضوح، والضياع في الصحراء أخوف له من الدخول في معركة حربية ضارية..

بالتالي فإنه قد فعل نفس ما يفعله طفل يرى ظلالًا في غرفته المظلمة: صاغها على هيئة كائنات خارقة متربصة، وهي - حسب تفكيره - مؤذية بالضرورة ما دامت قد اختارت الاختفاء أو التنكُّر؛ فالعربي كان بطبيعته يستوحش مِمَّن يخفي وجهه بلثام أو يكمن في مخبأ أو يتحرك خفية أو يدلف عليه من دون أن يلقي السلام أو يجلس عنده ولا يمد يدًا إلى طعامه.. فكان من الطبيعي أن تكون الكائنات الشريرة في ثقافته كائنات خفية موحشة مراوغة متلاعبة كالجن والشياطين والغيلان.



رسم تخيلي للغول من كتاب «القزويني»



الغول يحارب فارسًا.. من كتاب «القزويني»

XI

التنين.. خادم الشيطان ورسول الفوضى



برج عالٍ وحيد، له باب مغلق ثقيل، تطل من نافذته فتاة جميلة ذات شعر طويل..

أمام البرج تنين ضخم يحرسه، وفي مواجهة التنين فارس يحمل رمحًا طويلًا يستعد لمنازلة الوحش الذي راح يضرب الهواء بجناحين عملاقين وهو ينفث اللهب من فمه ومنخاريه..

هذا المشهد ليس بغريب على كثير منا، طالعه بعضنا في قصص الأطفال أو أفلام الكرتون القديمة.. التنين الشرير الذي اختطف الأميرة، والفارس الشجاع الذي جاء من بعيد لينقذها..

دعوني أخبركم أن هذا المشهد ـ أو تحديدًا تيمة التنين/ الأفعوان الشرير والبطل الشجاع الذي يحاربه ـ مقتبس من عدد لا بأس به من الثقافات والمعتقدات القديمة..

■ ■ ■

قبل أن نتطرق لأصل قصة التنين والفتاة سالفة الذكر، دعونا نرجع إلى الوراء قرونًا غير قليلة لنشهد ميلاد هذين الكائنين اللذين احتلا مكانًا مهمًا في أساطير الشعوب: التنين والأفعوان..

في مصر القديمة، كان الإله «رع» يمثل قرص الشمس، وبالتالي فإن مهمة تسيير رحلتها من الشروق إلى الغروب كانت موكلة له..

كان «رع» يستقل مركبه ـ المعروف بمركب الشمس ـ وينطلق به من الشرق متجهًا غربًا بقدر ساعات النهار، وكانت رحلته تلك ضرورية للمخلوقات، للبشر والحيوانات الذين ينتظرون النور والدفء، وللمزروعات التي تتغذى من الأشعة الذهبية فتنمو، وللأرض التي تمتص الحرارة نهارًا وتبثها في الناس دفئًا ليلًا..

لكن تلك الرحلة لم تكُن باليسيرة؛ ففي الغرب كان ينتظره الثعبان الضخم «أبيب»، لم يكُن ثعبانًا بالمعنى المعروف، بل كان أشبه بالتنين، وكان يقضي الليل في محاولات شرسة لابتلاع قرص الشمس لمنعه من الإشراق مجددًا..

لكن «رع» لم يكُن يخوض تلك المعركة وحده؛ فالإله المحارب «سِت» كان يسارع بإنقاذه ومحاربة التنين الرهيب وردعه، في أغلب الأحوال كان يتمكّن من ذلك، لكن الوحش الخبيث كان أحيانًا يفاجئ الجميع فيهاجم مركب «رع» في وقت النهار فيبتلعه، إلا أنه سرعان ما كان يضطر للفظه مجددًا بفعل قوة كلٍّ من «سِت» و«رع»، هذا الهجوم كان الناس يشهدونه في شكل تسميه الظواهر الطبيعية الآن بـ«كسوف الشمس»..

ولأن المصريين القدماء كانوا مؤمنين بفكرة «تجدد الحياة»، وأن ثَمَّةَ دورة صارمة هي «حياة ثم موت ثم حياة»، فإن تلك المعركة لم تكُن تنتهي أبدًا بمقتل «أبيب» والقضاء عليه، فلكي تولد الشمس من جديد كان لا بُدَّ أن يكون فكَّا «أبيب» منفغرين غربًا لابتلاعها، فتدور المعركة معه حتى يتحرر «رع» ويبدأ يوم جديد يشعر فيه المصريون بالعرفان لتجدد النعمة عليهم..

أما في العراق القديم، وتحديدًا حضارة السومريين، فكان التنين يحمل اسم «كور»، وكان يعيش في قاع العالم، في عالم الظلام، حيث تقبع أرواح الموتى في هيئة شبحية، طعامهم التراب وملبسهم الريش..

قرر «كور» أن يتخذ زوجة، فدهم الأرض في غفلة من الأرباب واختطف الربة «أريشكيجال»..

سمع «أنكي» - رب المياه - استغاثات الإلهة، فهرع يحاول إنقاذها وراح يلقي على التنين الحجارة، لكنه لم يتمكن من اللحاق به، فقد غاص الوحش عائدًا إلى قرار مملكته، حيث تزوج «أريشكيجال» التي صارت ملكة على العالم السفلي..

ويمر الزمن، ثم يعود «كور» مجددًا لغزو الأرض، هذه المرة لاختطاف «إنانا/ عشتار»، ربة الحب والخصوبة، أخت «أريشكيجال»..

لكن «إنانا» لم تكُن بالفريسة السهلة، ففوجئ بها تواجه هجومه بانقضاضة كاسرة، وتجابه قوته بقوة هائلة، فـ«إنانا» لم تكُن مجرد ربة للحب والعطاء وإنما كانت إلهة محاربة يحسب لها الجميع ألف حساب..

وبعد معركة ضارية تستطيع الإلهة أن تسحق قوة «كور» وتقضي عليه، ليستريح العالم من خطره، ولكن إلى حين؛ إذ يفاجأ الأرباب بتنين ضخم - اسمه «لابو» - يندفع من أعماق المياه ويهاجم العالم معتزمًا سحقه ورده مرة أخرى لحالة الفوضى..

يجمع «إنليل» الآلهة ويلقي عليهم نبأ الكارثة، يصف لهم الوحش: جسم هائل يبلغ طوله خمسمائة كيلومتر وارتفاعه عشرة كيلومترات، وله مخالب يقتنص بها الطير من السماء، وفم واسع يبتلع ما يواجهه بيُسر..

ويتشاور الأرباب في اختيار من يواجه هذا الكائن الرهيب..

وللأسف فإن الألواح التي نقلت لنا هذه الأسطورة كانت مكسورة وسطورها ناقصة، فلم نعرف من الذي واجهه وكيف فعل، وإنما تقفز الأحداث مباشرة نحو النهاية عندما يخبر الإله المنتصر مجمع الآلهة أنه قد أطلق الزوبعة على «لابو» ثم صوَّب إليه سهمه فقضى عليه، وسفك دمه، حتى إن دم التنين راح يسيل لمدة ثلاث سنوات كاملة!

وفي حضارة بابل، نرى في قصة خلق العالم ـ التي تناولناها سابقًا ـ أن الإلهة الأم «تيامات» حين أرادت أن تحارب الآلهة فواجهها الإله «مردوخ»، قد حولت نفسها إلى تنين عملاق فاغر فمه لابتلاع الإله الفتى، فأطلق عليها «مردوخ» رياحه الشيطانية فنفخت جوفها وشلت حركتها ليصوِّب عبر فمها سهمًا تغلغل فيها حتى شق قلبها.. وما زالت الرسوم البابلية حتى الآن تحمل صورة لـ«مردوخ» وهو يحارب «تيامات» المتخذة هيئة التنين..

وفي الأسطورة الفينيقية للإله «بعل»، نرى الإله «موت» يبعث إليه تنين البحر «اللوتان» ذا الرؤوس الكثيرة ليدمره ويخرب أرضه، فيتصدى «بعل» لمحاربة التنين البحري ويسحق رؤوسه، ما يثير غضب «موت» فيقرر مداهمة «بعل» والقضاء عليه بنفسه، وعندما يضحي رب الأجواء بنفسه لـ«موت»، يأتيه هذا الأخير في هيئة أشبه بتنين، فكه العلوي في السماء وفكه السفلي في الأرض..

أما «زيوس» الإغريقي، فكانت مواجهته مع التنين هي الأكثر ضراوة، فعندما كبَّل «زيوس» أباه «كرونوس» بالأغلال وألقاه في هاوية «تارتاروس»، غضبت «جايا»، ربة الأرض الأم الكبرى، وتزاوجت مع «تارتاروس»، فأنجبت تنين «طيفون» الذي هاجم «زيوس» واستطاع هزيمته وقطع أوتار وأعصاب أطرافه ثم حبسه في كهف حتى استطاع «هرمز» ـ رسول الآلهة ـ إنقاذ سيده ومعالجته ليواجه «طيفون» مجددًا ويصرعه بصواعقه ثم يلقيه تحت بعض جزيرة يقول أهلها إن بركانها حين يثور فإن ذلك لمحاولة «طيفون» الفرار من محبسه..

ولا يتوقف تناول الأساطير الإغريقية لشخصية التنين على «طيفون»؛ ففي بعض «قصص البطولات» الإغريقية، نجد البطل «بيرسيوس»

يهرع لإنقاذ الأميرة «أندروميدا» من تنين كان يهمُّ بافتراسها بأمر إله البحر «بوسايدون» لتطاول أمها «كاسيوبيا» على بعض بنات الآلهة، فيسارع الفتى بمواجهة الوحش ويقضي عليه مخلصًا فريسته من براثنه..

وفي أعمال البطل الأسطوري «هرقل»، نجده يحارب «الهايدرا» - وهي أفعوان ذات رؤوس عدة - راح البطل يقطع رؤوسها، لكنه لاحظ أنه كلما أطيح لها رأس نبت غيره، فكلف تابعًا له أن يكوي موضع كل رأس يُقطَع بالنار حتى لا ينبت محله رأس آخر، واستمرا على هذا العمل حتى قُضي على الوحش الذي كان يروع الناس..

وشمالًا في اسكندنافيا، يتزوَّج «لوكي» الشرير العملاقة «أنجربودا» فينجب ثلاثة أبناء مسوخ، منهم الأفعوان «يورمونجوندر» ذو السم الحارق القاتل عن بُعد، الذي يقيده «أودين» ويلقيه في المحيط حتى يرجع إلى الأرض في ملحمة النهاية (الراجناروك) ويُسحَق رأسه بمطرقة الإله «ثور»، إلا أنه - الأفعوان - يستطيع أن يطلق نفثة سم أخيرة تقضي على إله الرعد..

وفي إنجلترا، صيغت في القرون الوسطى ملحمة «بيوولف»، التي تروي قصة المقاتل الدنماركي «بيوولف»، الذي أنقذ مملكة الملك «روزجار» من وحش يقتنص جنوده، ثم حين جاءت أم الوحش - الشيطانة - للانتقام، طاردها وقضى عليها، وحين عاد «بيوولف» لبلاده وجد أن ملكها وولي عهدها قد قُتِلا في بعض المعارك فتربَّع على العرش وحكم خمسين سنة حكمًا سلميًّا هادئًا حتى دهم مملكتَه تنينٌ مدمر، فحاربه المقاتل الذي كان قد شاخ وتخلى عنه أتباعه عدا صهره، وانتهت المعركة بمقتل التنين، لكن «بيوولف» مات متأثرًا بجراحه البالغة من المعركة الرهيبة..

■ ■ ■

ولا تقتصر قصص «التنين» - والزواحف الشريرة بشكل عام - على العقائد السابقة فحسب، بل إنها قد وجدت لنفسها مكانًا في بعض موروثات الأديان الإبراهيمية..

ففي العهد القديم، نقرأ عن «اللوياثان»، وهو تنين خلقه الرب في بدايات الخلق، ثم لمَّا تبين خطره على البشر حاربه وقتله وقايةً لهم.. وفي الموروث المسيحي فإن التنين هو رمز للشيطان وللنفس المحرضة على الشر..

وفي المسيحية كذلك، نجد ذِكر «الحية»، وهي من رموز الشيطان، فهي الناعمة الغادرة المخادعة التي تسعى إلى إيقاع بني آدم في الخطيئة والتمرد على الإله..

يعيدنا هذا لقصة «التنين والفارس والأميرة»..

لو بحث القارئ على أي محرك بحث عن «مار جرجس الروماني»، سيجد لوحة لفارس روماني يمتطي فرسه ويطعن بحربته تنينًا.. بل وكثيرًا ما نجد هذه اللوحة معلقة على جدران بيوت المسيحيين..

هذه اللوحة هي أصل القصة سالفة الذكر..

فوفقًا للموروث المسيحي من قصص القديسين والشهداء، فإن «مار جرجس» - و«مار» تعني السيد، وهي دلالة على التعظيم - كان يعيش في «كبادوكيا» في الأناضول خلال فترة اضطهاد الرومان للمسيحيين، وكان أبوه من النبلاء، لكنه تعرض لنقمة الحاكم الروماني نتيجة اعتناقه المسيحية، ما أدى إلى إعدامه..

ولكن لم يكُن الأب فقط هو المؤمن برسالة المسيح، فقد آمن الابن أيضًا بها، لكنه أسرَّها في نفسه، وعندما شبَّ كان قد التحق بالجندية

وأبدى شجاعة وبراعة لفتتا نظر الحاكم فعيَّنه واحدًا من قادته..

وعلى الرغم ممَّا تبوأ من مكانة، وعلى الرغم من قوة علاقته بالحاكم، أظهر «مار جرجس» التمرد حين أعلن الوالي أمره حظر المسيحية واضطهاد المسيحيين، فتعرض لنقمة هذا الحاكم الذي أذاقه الحبس والعذاب.. وبينما هو يُعَذَّب أظهر المعجزات؛ ففي مرة سقاه الحاكم ورجاله سُمًّا وهم يتحدون إلهه أن ينجيه فشربه ولم يتعرَّض لأذى، ثم تحدوه أن يدعو الرب أن ينبت الزرع من كراسي مجلسهم فدعاه فنبت الزرع، ثم تحدوه بعدها أن يدعو إلهه أن يحيي الموتى ففوجئوا ببعض القبور تنفتح عمَّن فيها فيُبعَثون ويقرون بتمجيد الرب ثم يعودون للموت، وأخيرًا حاول الحاكم إغراءه فقال له:

ـ سأزوجك ابنتي لو دخلت معبد الإله «أبوللو» وسجدت له.

فدخل «مار جرجس» المعبد وصاح بتمثال «أبوللو»: «هل أنت إله؟» فأجاب التمثال بالنفي، فرسم الفتى علامة الصليب فخر تمثال «أبوللو» على وجهه.. ولما فوجئ الحاكم بأن ابنته الأميرة قد تأثرت بدعوة «مار جرجس» وآمنت بالمسيحية أمر بقتله بطرق بشعة، فكان يموت ثم يُبعَث ثلاث مرات ثم كانت الميتة الرابعة هي الأخيرة ليرتقي ويصبح واحدًا من أشهر قديسي المسيحية..

والتنين في لوحة «مار جرجس» هو رمز للشيطان، والحربة هي رمز للإيمان، أما طعن الوحش بها فهو رمز لتصديه لإغراء الشيطان وغوايته وهزيمة القديس له بصبره على إيمانه وابتلائه حتى النهاية..

تلك القصة تحولت في بعض الموروثات الشعبية الأوروبية إلى صيغة أخرى تقول إن «مار جرجس» كان فارسًا في مملكة تقع بليبيا الحالية، وإن الملك ـ وكان وثنيًّا ـ قد استغاث به لإنقاذ ابنته الأميرة من تنين

اختطفها، فسارع الفارس لإنقاذ التنين، وصلى للرب مستعينًا به ثم حارب التنين فقضى عليه وحرر الفتاة، وآمن الملك بعد ذلك بالمسيحية..

ومن هنا، انطلقت قصة الفارس والتنين والأميرة، لتغزو الثقافة الشعبية للأوروبيين وتصل حتى إلى حكايات الأطفال وارتباط التنين بالشر، حتى إن ثَمَّةَ حقيقة طريفة هي أن الربط الشعبي بين الشيطان وأمير «ترانسلفانيا» في رومانيا، المتمرد على حكم العثمانيين «الكونت فلاد الوالاشي» وتلقيبه بـ«دراكولا»، كان سببه أن التنين كان شعارًا لتمرده، و«دراكول» تعني التنين بالرومانية، ما أسهم بعد ذلك في تأكيد ارتباطه بالشيطان أو بكائنات شيطانية شريرة خاصة، مع ما عُرِفَ من وحشيته على الرغم ممَّا يُفترَض أنه يمثل تاريخيًّا «بطل مقاومة» بالنسبة لأهل بلده..

وفي ذكر أحداث نهاية الزمان، يتحدث الموروث المسيحي عن أن الدجال يأتي في هيئة تنين بحري برؤوس عدة مكتوب على كل منها كلمة «كاذب» أو «دجال» أو «كافر» فيُضِل أناسًا حتى يأتي ملكوت السماء فينهزم الدجال/ التنين.

وبشكل عام، فإن وجود التنين في الموروث المسيحي هو رمز للشيطان وغوايته وشروره ومحاولاته إضلال المؤمنين.. وليس بالضرورة أن يكون تنينًا حقيقيًّا بالمعنى المادي..

▪ ▪ ▪

التنين وُجِد كذلك في بعض كتب التراث الإسلامي..

ففي كتاب «عرائس المجالس» لـ«الثعلبي النيسابوري»، يتحدث هذا الأخير عن دور الحية في طرد «آدم» و«حواء» من الجنة، فيقول

إن إبليس قد حاول الاحتيال للتسلل للجنَّة لإغوائهما، فأقنع الحية أن تخفيه بين أنيابها وتدخل به إليهما.. وكانت الحية من خَزَنة الجنة وكانت صديقة لكلٍّ من «آدم» وزوجته..

ويصف «الثعلبي» الحية قبل ارتكابها تلك الخطيئة فيقول إنها كانت عظيمة الحجم لها قوائم كقوائم الجِمال، مكسوة بجلد جميل وألوان زاهية، وإنها كان لها عُرف وكانت تأكل الزعفران وتشرب من نهر الكوثر وتفوح منها رائحة المسك..

فلما قارفت خطيئتها تلك وخانت الأمانة، عاقبها الله بأن طردها من الجنة ومسخ شكلها فصارت تزحف على بطنها وتأكل التراب وينسلخ جلدها كل عام، وصارت عدوَّة لبني آدم إلى الأبد..

وفي بعض الأحاديث المنسوبة للرسول محمد يأمر الرسول من يجد حية أو ثعبانًا في بيته أن ينذره ثلاثة أيام فإن لم يرحل يقتله، والإنذار تحسُّبًا لأن يكون الثعبان من الجن المؤمن.. أما الثعبان ذو الخطين على رأسه، أو الثعبان الأبتر، فإنهما يُقتلان من دون إنذار..

وتعالَ نتخيل حية لها بنيان ضخم وقوائم قوية وذيل طويل وعُرف على رأسها.. لو حاولنا رسم شكل مماثل سنجد أنفسنا أمام التنين كما هو مرسوم في اللوحات القديمة..

وثمة حيوان زاحف آخر يقترب في هيئته من التنين مع فارق أنه ضئيل الحجم، هو «الوزغ/ البرص»، نقرأ في بعض الأحاديث أمرًا بقتله، والمبرر أن النبي «إبراهيم» حين أُلقي في النار حاولت كل الحيوانات إطفاءها عنه إلا الوزغ فإنه نفخ منها عليه.. هل تخيل القارئ الصورة؟ حيوان زاحف ينفخ النار.. تمامًا كالتنين..

وفي كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، يتحدث «القزويني» بشكل صريح عن التنين، فيصفه في سياق حديثه عن بعض حيوانات جزر البحار الآسيوية، ففي رواية يقول: إنه حيوان ضخم يدمر كل ما يمر فوقه، حتى إن الناس يستغيثون بالله منه فيبعث ملائكة يحملونه فيلقونه وراء سد يأجوج ومأجوج ليأكلوا من لحمه، بل يصف لحمه ودمه فيقول إن الرجل إذا طلى عضوه الذكري بدم التنين وجامع المرأة تحدث لها لذة عظيمة!

وفي رواية أخرى يذكر أن الإسكندر المقدوني قد دخل مدينة فوجد أهلها يستغيثون به من تنين اعتاد كل فترة أن يقف على ساحلهم فيلقوا له ثورين يأكلهما ليردوا أذاه عن المدينة، فأمرهم الإسكندر بإحضار ثورين سلخهما وجعل في جوفيهما كلاليب معدنية، فلمَّا ابتلعهما التنين جذب الإسكندر سلسلة متصلة بالكلاليب فمزقت أمعاء التنين وقتلته فشكره الناس لذلك (لاحظ التشابه مع قصة «بيرسيوس» و«أندروميدا»)..

■ ■ ■

في كتابه «مغامرة العقل الأولى»، يذكر الأستاذ فراس السواح تفسيرًا نفسيًّا لأسطورة التنين، أن محاربته ترمز إلى الإنسان السوي في المجتمع، الذي يحارب لا شعوره ويسيطر عليه..

وهو تفسير له وجاهته، خاصة أن التنين في ثقافات الشرق الأوسط وأوروبا يمثل الشر والشهوات (بعكسه في شرق آسيا؛ حيث يمثل الحكمة ويد العون) مقابل البطل الذي يمثل الاستقامة والإيمان..

فالتنين المصري يمثل الظلام ضد النور.

والتنين العراقي القديم يمثل الفوضى والدمار ضد السلام والاستقرار.

والتنين الفينيقي يمثل الموت والقحط ضد الخصوبة والزرع.

والتنين التوراتي والمسيحي يمثل الشيطان وغوايته ضد الإيمان والاستقامة.

والتنين في الموروث الإسلامي يمثل الخيانة والأذى ضد الإخلاص والطاعة لله.

اللغز المحير هو: لماذا التنين؟ لماذا تلك الهيئة بالذات؟ إن الإنسان لم يوجد في زمن واحد مع الديناصورات التي تعتبر أكثر الكائنات شبهًا بالتنين، فكيف تسللت تلك الفكرة إلى ذهنه ثم منه إلى الوجدان الجمعي للبشر؟

هل للأمر علاقة بوجود بعض الزواحف الشبيهة للتنين، مثل الثعابين والورل والوزغ والسحالي والحرباوات والزاحف المعروف بـ«تنين الكومودو»، الذي يبلغ عدة أمتار طولًا؟ إن عدد من يشمئزون من تلك الكائنات وتقشعر جلودهم خوفًا منها ـ وكاتب هذه السطور أحدهم ـ كثير جدًّا.. وسلوك هذه الكائنات بطبيعته مخيف؛ فهي متسللة متلونة وأكثرها مُؤذٍ، فهل لمراقبة الإنسان القديم لسلوك الحيوان دور في اختياره هذه الزواحف بالذات ليصوغ منها في خياله وحشًا مخيفًا يمثل الشر؟

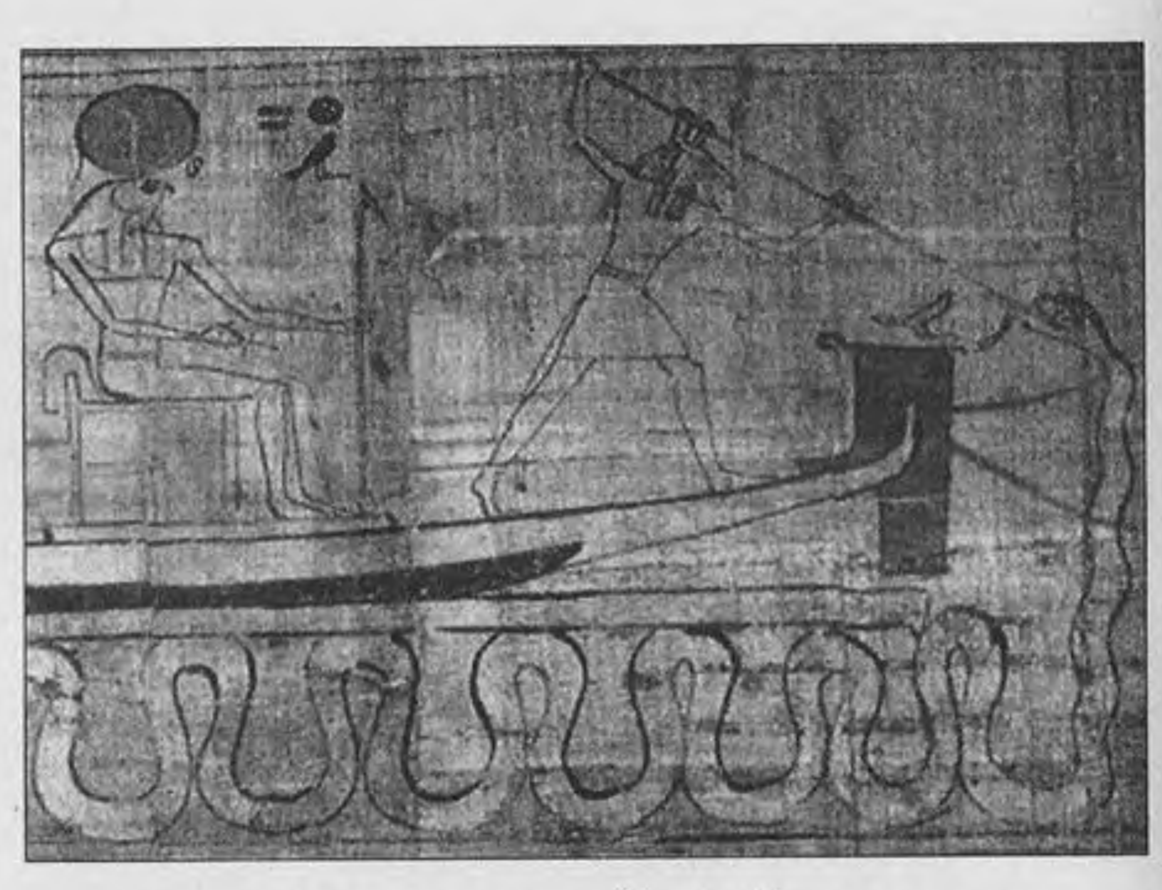
إن تفسير انتقال فكرة التنين من ثقافة إلى أخرى ومن معتقد إلى آخر هو أمر يسير؛ فالثقافات والعقائد تصب أنهار بعضها في مصبات بعض، لكن اللغز هو النشأة الأولى، وهو لغز لا أتردد في القول إنني ـ حتى لحظة كتابة هذه السطور ـ لا أجد له حلًّا، على الأقل حاليًّا..

لقد قرأتُ مؤخرًا بحثًا علميًّا أرى ـ بشكل شخصي ـ له وجاهته،

يحاول تفسير أسطورة التنين نافث النار بشكل علمي بيولوجي وكيميائي، ويحاول استنتاج كيفية تمكُّن حيوان زاحف من نفث اللهب عبر فمه، وأثر ذلك في نشوء الأسطورة، وبما أنني لست من أهل تخصصَي الكيمياء والبيولوجيا فإنني - احترامًا للتخصصين - لا أستطيع اعتماده في هذا الكتاب كتفسير أو حتى محاولة للتفسير لأصل تلك الأسطورة..

على أي حال، فإن اللذة في البحث وراء الألغاز التاريخية تكمن في ذلك الغموض الذي يحيط بها، خاصة الأساطير، فالأسطورة - أي أسطورة - هي إنتاج إنساني يمكن أن تخرج منه بعدد لا يُحصَى من النظريات والتفاسير.

■ ■ ■



«سِت» يتصدى للثعبان «أبيب» وهو يهاجم مركب «رع»



«مار جرجس» يطعن التنين



«بيوولف» يحتضر بعد قتله التنين



خاتمة

لو سألت المصري القديم: ما الشر الذي يخيفك؟ لأجابك: هو الفوضى والعنف، هو انعدام الاستقرار، هو ألا يفي النيل فيعطش الزرع، وأن تختفي الشمس فتموت الكائنات بردًا.

ولو سألت العراقي القديم لأجابك: هو الفوضى واختلال النظام، هو أن ينقم علينا الإله فيرسل علينا الفيضانات المدمرة، هو الوباء الذي يحول البيوت إلى قبور لسكانها.

والفينيقي ستكون إجابته: هو القحط والجفاف وموت الزرع، هو غضب البحر وابتلاع أمواجه للبحَّارة.

وإجابة الإغريقي ستكون: هو انعدام الأمان، هو هلاك البشر في حروب السادة، هو الشتاء القاتل للمزروعات.. هو هجوم وحوش الغابات والجبال.

والاسكندنافي سيجيبك سريعًا: بل هو خيانة الصديق وغدر الحليف، هو التفكك والشقاق بين أبناء العشيرة، هو الجبن عن مواجهة التحديات والتقاعس عن ردِّ الغزاة.

ولنسأل الفارسي، ستكون إجابته هي: الشر هو أن تترك نفسك لأهوائك ووساوس شياطينك وجموح شهواتك، الشر هو أن تؤذي المخلوقات وتمنع الخير عن جيرانك وأهلك.

أما العربي القديم فسيقول: الشر هو الضياع في الصحراء، هو غدر العدو الذي لا تراه..

هذه الإجابات كلها واقعية ومنطقية، ربما يختلف مفهوم الشر بين الثقافات والشعوب والحضارات، ربما أن كلًّا يغني على ليلاه في نظرته للشرور والأذى والأخطار..

لكن الواقع هو أن كل إجابة من تلك الإجابات تكمل الأخرى.. الشر نسبي، وهذا أمر جيد؛ فهو يوسع آفاق أفكار بني الإنسان ليتحسبوا له أيًا ما كانت هيئته أو صورته..

الشر نسبي.. وهذا أمر سيئ؛ فهو يضيق كذلك آفاق أفكار بني الإنسان فيقصره كل منهم على قناعاته الشخصية!

السؤال حول مفهوم الشر هو سلاح ذو حدين في مواجهة شرور هذا العالم، ولنُحسِن استخدامه فإن علينا أن نستمر في طرحه دائمًا، وألَّا تأتي علينا لحظة نقول فيها بثقة وغرور: قد أدركنا ما هو الشر وعرفنا إجابته واكتفينا من طرح الأسئلة.

ـ تم بحمد الله ـ

الإسكندرية ١٠ أكتوبر ٢٠١٩م

مصادر المعلومات

١- موسوعة أساطير العرب: د. محمد عجينة.
٢- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: القزويني.
٣- أساطير الحب والجمال عند اليونان: دريني خشبة.
٤- الإلياذة: هوميروس.
٥- الأوديسة: هوميروس.
٦- معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية: أمين سلامة.
٧- معجم الأديان العالمية: أ. د. محمد عثمان الخشت.
٨- موسوعة التراث الشعبي العربي: أ. د. محمد الجوهري.
٩- البطل بألف وجه: جوزيف كامبل.
١٠- قوة الأسطورة: جوزيف كامبل.
١١- معجم الأساطير اليونانية واليومانية: جيني مارك.
١٢- New Larousse encyclopedia of mythology.
١٣- موسوعة البسام: بسام الشماع.
١٤- دين الإنسان: فراس السواح.
١٥- مغامرة العقل الأولى: فراس السواح.
١٦- الله والكون والإنسان: فراس السواح.
١٧- الرحمن والشيطان: فراس السواح.
١٨- لغز عشتار: فراس السواح.
١٩- الأسطورة والمعنى: فراس السواح.
٢٠- موسوعة تاريخ الأديان: فراس السواح.
٢١- السحر والدين: د. خزعل الماجدي.

٢٢- سحر البدايات: د. خزعل الماجدي.
٢٣- الميثولوجيا السومرية: د. خزعل الماجدي.
٢٤- حضارة ما قبل التاريخ: د. خزعل الماجدي.
٢٥- الحضارات السامية المبكرة: د. خزعل الماجدي.
٢٦- الدين في الهند والصين وإيران: أبكار السقاف.
٢٧- الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين: أبكار السقاف.
٢٨- الدين في شبه الجزيرة العربية: أبكار السقاف.
٢٩- أساطير من بلاد ما بين النهرين: ستيفاني دالي.
٣٠- أنبياء البدو: د. محمد السعيد.
٣١- معجم آلهة العرب قبل الإسلام: جورج كدر.
٣٢- تاريخ مصر القديمة: إيان شو.
٣٣- أوروبا العصور الوسطى: أ. د. سعيد عبد الفتاح عاشور.
٣٤- جزيرة العرب قبل الإسلام: برهان الدين دلو.
٣٥- حضارة مصر والعراق: برهان الدين دلو.
٣٦- تاريخ العرب القديم: توفيق برو.
٣٧- قصة الجنس عبر العصور: ري تاناهيل.
٣٨- محمد رسول الله والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
٣٩- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي.
٤٠- عالم المصريين: لوكا بفيرش.
٤١- تراثنا الروحي: سهيل بشروئي ومرداد مسعودي.
٤٢- A dictionary of chivalry: Grant Uden.
٤٣- الغصن الذهبي: جيمس فريزر.
٤٤- الكهانة العربية قبل الإسلام: توفيق فهد.
٤٥- تاريخ إيران القديم: حسن بيرنيا.
٤٦- الجيش في مصر القديمة: د. محمد رأفت عباس.

٤٧- الديانة المصرية القديمة: د. عبد الحليم نور الدين.
٤٨- الآلهة والناس في مصر: فرانسواز دونان وكريستيان زافي كوش.
٤٩- ديانة مصر القديمة: أدولف إرمان.
٥٠- قصة الحضارة: ويل ديورانت.
٥١- فجر الضمير: جيمس هنري برستد.
٥٢- سجلات تاريخية من مصر القديمة: جيمس هنري برستد.
٥٣- تاريخ العرب قبل الإسلام: أ. د. محمد سهيل طقوش.
٥٤- قصة الفلسفة اليونانية: زكي نجيب محمود وأحمد أمين.
٥٥- الفراعنة في مملكة مصر.. زمن الملوك الآلهة: كلير لالويت.
٥٦- أساطير النشوء الأفريقية: د. ستيفنز بلجر.
٥٧- Norse mythology: Neil Gaiman.
٥٨- الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين: د. عمرو عبد العزيز منير.
٥٩- عرائس المجالس: الثعلبي النيسابوري.
٦٠- الدين وتدهور السحر: كيث توماس.
٦١- معالم تاريخ الإنسانية: هربرت جورج ويلز.
٦٢- أساطير وشعوب العالم: د. سامي ريحانا.
٦٣- موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.
٦٤- كتاب الحيوان: الجاحظ.
٦٥- حياة الحيوان الكبرى: الدميري.
٦٦- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي.
٦٧- البداية والنهاية: ابن كثير.
٦٨- الكتاب المقدس.
٦٩- القرآن الكريم.
٧٠- موقع الأنبا تكلا https: //st - takla.org.com.

٧١- موقع «الباحثون السوريون» https: //www.syr - res.com/.
٧٢- كتاب الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة: هانز فير.
٧٣- الشاه نامة: الفردوسي.
٧٤- السيرة النبوية: ابن هشام.
٧٥- أساطير آسيوية: خليل حنا تادرس.
٧٦- أساطير إغريقية: خليل حنا تادرس.
٧٧- الجبتانا.. أسفار التكوين المصرية: مانيتون السمنودي.
٧٨- روائع الأدب المصري القديم: ويليام كيلي سيمبسون.
٧٩- حكايات الأخوين جريم: ياكوبس جريم وفيلهلم جريم.
٨٠- النهاية في الفتن والملاحم: ابن كثير.
٨١- Egyptian revenge spells: Claudia R. Dellaire.

المحتويات

مقدمة لا بُدَّ منها ٩

I. «سِت».. الإله الشرير المظلوم ٣١

II. «إنليل».. سيد العاصفة.. الإله الناقم دومًا على عباده ٥٧

III. «تيامات».. الفوضى المدمِّرة والأم الكبرى عدوة أبنائها ٧٩

IV. «إيرا».. رب الطاعون حامل الشر والرحمة! ٩٣

V. «موت».. الذي يقتل الحياة لكي تستمر ١٠٣

VI. أرباب الإغريق الذين يُصبح أحدهم طيبًا ويُمسي شريرًا ١١٩

VII. «أنجرامانيو» و«أهريمان».. قائدا جيوش الشر في المعركة الأخيرة ١٣٧

VIII. «سخمت».. «أرتميس».. «عناة».. «عشتار».. «ليليث»..
الغضب الأنثوي المدمِّر ١٥٣

IX. «لوكي».. أبو المسوخ.. مُطلق «الراجناروك».. نهاية العالم! ١٧٧

X. مصايد الغيلان وغضب الجن.. شرور صحراء العرب ٢٠٧

XI. التنين.. خادم الشيطان ورسول الفوضى ٢٢٥

خاتمة ٢٤٢

مصادر المعلومات ٢٤٥

للتواصـل مع الكاتب

البريد الإلكتروني:

walid.m.feckry@gmail.com

الصفحة الرسمية:

www.facebook.com/walid.m.feckry

أرباب الشر

للشر وجوه كثيرة.. أكثر من أن تُحصى..
في مصر القديمة هو قوة الإله ست الغاشمة، في العراق القديم هو الإلهة الأم تيامات، تنين الفوضى المدمرة، هو نقمة الإله إنليل وغضبة الربة عشتار. في فينيقيا هو موت إله القحط والجفاف، وفي بلاد الاغريق ستقع في الحيرة وأنت لا تعرف أين موقع زيوس منه. أهل فارس سيقولون لك: هو أنجراماينو وأهريمان قائدا جند الظلام، والفايكينج سيسارعون بالإجابة: بل هو لوكي الخبيث الغادر برفاقه. سيرسم الراهب المسيحي علامة الصليب وهو يُحذرك من الحية والتنين خادمي الشيطان، وسيُنذرك العربي القديم أن تقع في مصيدة الغول، أو أن ترتكب ما يثير حفيظة الجن.
الشر قديم، فتعال نتعرّفه عن قرب، ونتعرّف أربابه في موروثات الأقدمين.
فعن أرباب الشر في الأساطير والمعتقدات القديمة نتحدث..


تصوير: تامر حسن

وليد فكري

باحث وكاتب في مجال التاريخ، يمارس الكتابة التاريخية منذ عام 2009، أصدر عددا من الكتب التاريخية، وله عدد كبير من المقالات في هذا المجال، أحدثها مع موقع قناة سكاي نيوز، التي قدّم عبر شاشتها التلفزيونية ومنصاتها على الانترنت برنامجه "تاريخ حاضر".

صدر للكاتب













